مكتبة

فلانري أوكونر

# يصعب العثور على رجل جيّد

ترجمة: سليمان ع. يوسف

جائزة
الكتاب الوطني
الأمريكي
1956

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

# يصعب العثور على رجل جيّد

وقصصٌ أخرى

**الكتاب: يصعبُ العثورُ على رجلٍ جيِّد وقصصٌ أخرى**

**المؤلف: فلانري أوكونر**

ترجمة: سليمان ع. يوسف

تصميم الغلاف: عبدالفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

---

عدد الصفحات: 264

الترقيم الدولي: 978-1-998800-14-8

الطبعة الأولى: 2023

---

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حيـــــاة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الالكتروني:

hayatbookstore.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

# يصعب العثور على رجل جيّد

## وقصصٌ أخرى

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلانري أوكونر

ترجمة

سليمان ع. يوسف

من أجل سالي وروبرت فيتزجيرالد

# المحتويات


| | |
|---|---|
| الحياةُ التي تنقذُها قد تكون حياتَك | 9 |
| أُناسٌ ريفيون طيّبون | 25 |
| اشتباكٌ متأخِّر مع العدُو | 53 |
| الزِّنجيُّ الاصطناعيّ | 67 |
| النَّهر | 97 |
| دائرةٌ في النار | 121 |
| ضربةٌ من حُسن الحَظ | 149 |
| هيكلٌ للروح القُدس | 167 |
| يصعبُ العثورُ على رجلٍ جيد | 185 |
| المُهجَّر | 209 |

## الحياةُ التي تنقذُها قد تكون حياتَك

كانتِ العجوزُ وابنتها جالستيْن على شرفتهما وقتما ارتقى السيد شيفتليت طريقَ منزلهما للمرَّة الأولى. انزلقتِ العجوز إلى حافَّة كرسيها وانحنت إلى الأمام، مظلِّلة عينيها بيدِها من شمس الغروب الثاقبة، أمّا البنت فكان بصرُها أضعف من الرؤية لمسافة بعيدة؛ لذا واصلتْ ملاعبةَ أصابعها. ورغم أنَّ العجوز تعيش في هذه البُقعة المُقفرة مع ابنتها فقط، ولم ترَ السيد شيفتليت من قبل؛ عرفَت -رغم المسافة- أنَّه مسكين، ولا يُخشى جانبُه. كان كمُّ معطفه الأيسر مكفوفًا حتى يظهر أنَّه لا يحوي إلا نصفَ ذراع، وقوامُه المهزول مائل قليلًا إلى الأمام كأن النسيمَ يدفعُه، وكان لابسًا بزَّة سوداء وقبعةً بنيةً من اللباد رفعَ مقدمتها وأخفض قفاها، ويحمل صندوقَ عدة صفيحيًّا من مقْبضه. تابع صعودَ طريقه متمهلًا، مديرًا وجهَه ناحية الشمس التي بدت توازنُ نفسَها على ذروة جبل صغير.

لم تبدِّل العجوزُ جلستها حتى صارَ في فنائها تقريبًا، فنهضتْ مسندةً قبضتَها المضْمومة إلى وركِها، أمّا الابنة -وهي فتاةٌ ضخمة تلبس فستانًا قصيرًا أزرق من الأورغاندي- رأته فجأةً وقفزت وراحتْ تخبط الأرضَ وتشير إليه وتصدر أصواتًا مضطربةً خرساء.

توقَّف السيد شيفتليت حالما دخلَ الفناء ووضعَ صندوقه على الأرض، ثمَّ أمال قبعتَه ناحيتها كأنها غيرُ مُبتلّاة ألبتَّة، واستدارَ إلى العجوز فنزع قبعته كلها، وكان له شعرٌ أسود طويلٌ ناعم يتدلى جامدًا من فَرقٍ في المنتصف إلى ما وراء قمتي أذنيْه على الجانبين، ووجهٌ ينحدرُ في جبهةٍ

لأكثر من نصفِ طوله، وينتهي فجأة بملامح مُتوازنة فوق فكٍّ بارز يشبه مصيدةً فولاذية. بدَا شابًا، لكن له نظرةُ استياء رزين توحي بأنه قد فهمَ الحياة حقَّ الفهم.

قالتِ العجوز: "طابَ مساؤك". كانت تقريبًا بحجم دعامة سياجٍ من خشب الأرز، وتعتمرُ قبعةً رجالية أخفضتها على رأسها.

وقفَ المسكين ينظرُ إليها ولم يجب، ثمَّ استدارَ ليواجه الشمس، ورفع كلتا ذراعيه، الكاملة والمبتورة، فدلَّتا على اتساع السماء، ورسم قوامه صليبًا أعوج. راقبته العجوزُ وذراعاها مطويَّتان فوَقَ صدرها كأنها مالكةُ الشمس، وراقبته الابنة ملقيةً رأسَها إلى الأمام، وذراعاها البدينتان العاجزتان تتدليان عند الرسغين. كان لها شعرٌ طويل ذهبيّ، وعينان بزُرقة عنق الطاووس.

ظلَّ على وقفته لخمس ثوانٍ تقريبًا ثمَّ التقط صندوقَه وجاء إلى الشرفة. انحنى عند الدَّرجة السفلى وقال بصوت أخنّ حازم:

- سيدتي، كنتُ لأدفع ثروةً حتى أعيش حيث يمكنُني رؤية الشمس تفعل ذلك كلَّ مساء.

فقالتِ العجوز: "إنها تفعل ذلك كلَّ مساء". وعادت إلى جلستها، فقعدت الابنةُ كذلك وراحتْ تراقبه بنظرةٍ ماكرة مُحترزة كأنه عصفورٌ اقترب أكثر مما يجب. انحنى إلى أحدِ الجانبين ينبش في جيبِ بنطاله، وفي غضون ثانية أخرج علبةَ علكٍ وقدَّم لها قطعة، فأخذتها وقشَّرتها وبدأت تمضغُها من دون أن تزيح عينيْها عنه. ثمَّ قدَّم قطعةً للعجوز لكنها اكتفتْ برفع شفتِها العليا لتريَه أنْ لا أسنان لها.

كانت نظرةُ السيد شيفتليت المتبصِّرة الشاحبة قد مرتْ بالفعل على كلِّ شيء في الفناء -المضخَّة بجوار ركن المنزل، وشجرة التين الكبيرة

التي تستعدُّ ثلاث أو أربع دجاجات لتجثمَ فيها- وانتقلت إلى سقيفة حيث رأى ظهرَ سيارة مربع صدئ، فسأل:

- أتُجيدان القيادة يا سيدتيَّ؟

فأجابتْه العجوز:

- لم تدُر تلك السيارةُ منذُ خمسة عشَر عامًا. مُذ مات زوجي توقَّفت عن الدوران.

- لم يعُد شيء مثلما كان يا سيدتي. لقد تعفَّن العالم تقريبًا.

ثمَّ غمغمَ بينما ينظرُ إلى العجلات:

- اسْمي توم ت. شيفتليت.

- سعدتُّ بلقائك، اسمي لوسينيل كريتر وابنتي لوسينيل كريتر. ما شغلُك في هذه الأنحاء يا سيد شيفتليت؟

قدَّرَ أنَّ السيارة من طراز فورد 1928 أو 1929، وقال بعد أن استدار وأوْلاها كاملَ انتباهه: "سيدتي، دَعيني أخبرُك بشيء. لقد استلَّ طبيبٌ من أطباء أتلانتا سكينًا واجتثَّ القلبَ البَشري" وردَّد بينما ينحني إلى الأمام: "القلب البشري، من صدر رجلٍ وأمسكَه في يده"، ومدَّ يده باسطًا راحتَها إلى أعلى كأنَّ القلب البَشريَّ يثقّلها بعضَ الشيء، "وعاينه كأنَّه فرخ دجاج"، ثمَّ قال بعد وقفة طويلةٍ أزلق رأسَه فيها إلى الأمام، ولمعت عيناه طينيَّتا اللون، "وليس يعلم عنه أكثر ممّا أعلمُ أو تعلمين يا سيدتي".

فقالتِ العجوز:

- هذا صحيح.

- ولو استلَّ سكينًا وشقَّ جميعَ أركانه؛ لظلَّ لا يعلم عنه أكثرَ منك أو منّي. بمَ تُراهنين؟

فقالتِ العجوز بحكْمة:

- بلا شيء. من أيّ ديار أنتَ يا سيد شيفتليت؟

لم يُجب، بل مدَّ يدَه في جيبه وأخرج جرابَ تبغ وحزمةً من ورق السجائر ولفَّ سيجارةً باحتراف مُستخدمًا يدًا واحدة، ثمَّ علقها متدلّيةً بشفته العليا. أخرج بعدَ ذلك علبة أعوادِ ثقابٍ خشبية من جيبه، وأشعلَ عودًا بحذائه، وحمل العودَ المشتعل كأنَّه يتفكّر في لغزِ اللهب بينما يسافر بخطورةٍ ناحيةَ جلده، فبدأتِ الابنة تصدرُ أصواتًا صاخبة، وتشير إلى يدِه وتهزُّ أصبعَها باتجاهه، لكن قبل أن يمسَّه اللهبُ بقليل انحنى مقبلًا يدَه فوقه كأنه سيضرمُ النارَ في أنفه وأشعل السيجارة.

نقفَ الثقابَ المطفأ بعيدًا، ونفثَ في المساء نهرًا رماديًّا، ثمَّ اكتسَى وجهُه نظرةً خبيثة وقال:

- سيدتي، إنَّ الناس مستعدّون لفعل أيّ شيء بأي حال. يمكنني أن أقول لك إنَّ اسمي هو توم ت. شيفتليت، وإنني من تاروتر بتينيسي، لكنك لم تريني من قبْل، فأنَّى لك معرفة أنني لست أكذب؟ ما أدراك أنَّ اسمي ليسَ آرون سباركس يا سيدتي، وأنَّني من سينغلبيري بجورجيا، أو كيف تعرفينَ أنه ليس جورج سبيدس، وأنَّني من لوسي بألاباما، أو أنني لستُ تومسون برايت من تولفولز بميسيسيبي؟

فغمغمتِ العجوز وقد أصابَها الضجر:

- لا أعرف شيئًا عنك.

- سيدتي، إنَّ الناس يكذبون بلا اكتراث. ربما أفضلُ شيء يمكنني إخبارُك به هو أنَّني إنسان، لكنِ اسمعي يا سيدتي، (قال ذلك وتوقف قليلًا جاعلًا صوتَه أكثر شؤمًا)، ما هو الإنسان؟

أخذتِ العجوز تمضغُ بذرة، وسألته:

- ماذا تحملُ في صندوق الصفيح ذاك يا سيد شيفتليت؟

فقال وقد عادَ إلى مكانه:

- أدوات. أعمل نجارًا.

- حسنًا، إن جئتَ لتعمل فيُمكنني إطعامُك ومنحُك مكانًا تنام فيه، لكن لا يُمكنني الدفع. أقول لك هذا قبلَ أن تبدأ.

لم يُجِب من فوْره، ولم يظهرْ على وجهه تعبيرٌ محدَّد. اتكأ على اللوح الخشبي من قياسِ بوصتين بأربع الذي يسند سقفَ الشرفة وقال بتمهُّل: "سيدتي، ثمة أناسٌ تهمُّهم بعضُ الأمور أكثرَ من المال". هزَّت العجوز كرسيَّها من دون تعليق، وراقبتِ الابنة المقداحَ الذي يتحرَّك صعودًا وهبوطًا في عنقه. أخبر العجوز بعدَ ذلك أنَّ معظم الناس لا يهمُّهم إلا المال، وسألها عمّا خُلق الإنسانُ لأجله. سألها عمّا إنْ كان الإنسان مخلوقًا لأجل المال أم ماذا، وسألها عمّا خُلقت لأجله في رأيها لكنها لم تُجب؛ بل جلستْ تهزُّ كرسيَّها وتتساءل عمّا إن كان رجلٌ بذراع واحدة قادرًا على رفع سقفٍ جديد لبيتِ حديقتها. أخبرها أنَّه في الثامنة والعشرين من عُمره، وأنَّه عاش حياةً متعدّدة الألوان، فقد عمل مرنّمًا إنجيليًّا، وكبيرَ عمال في السكك الحديدية، ومعاونًا في دارٍ لدفن الموتى، وحلَّ بالراديو لثلاثة أشهر رفقةَ فرقة العمّ روي ورعاة بقر الجدول الأحمر. قال إنه قاتَل ونزفَ الدماء مع قوات بلادِه المسلحة، وزار كلَّ الأراضي الأجنبية، وإنه رأى في كلِّ مكان أناسًا لا يكترثون بأيِّ طريقة يفعلون الأشياء. وقال إنه لم ينشأ على هذه الشاكلة.

ظهرَ قمرٌ مكتمل أصفرُ بين أغصان شجرة التين كأنه يوشكُ أن يجثمَ فيها مع الدَّجاجات. قال إنَّ على الإنسان الفرارَ إلى الريف ليرى العالم كاملًا، وإنه يتمنى أنْ يعيش في مكان قفْرٍ كهذا حيث يمكنُه رؤية الشمس تغرب كلَّ يوم كما أراد لها اللهُ أن تفعل.

سألتْه العجوز:

- أمتزوِّج أنت أم عازب؟

حلَّ صمتٌ طويل، ثمَّ سألها أخيرًا:

- سيدتي، أين عسى المرءُ يجد امرأةً بسيطة اليوم؟ ما كنتُ لأرضى بأيّ من الحُثالة التي يمكنني التقاطها بسهولة.

كانتِ الابنة منحنيةً إلى الأمام حتى يكاد رأسُها يتدلى بين ركبتيها بينما تراقبُهما مِن خلال الباب المثلثي الذي شكَّلته في شَعرها المقلوب، ثمَّ سقطت فجأة متكوِّمة على الأرضِ وراحت تئنُّ، فقوَّمها السيد شيفتليت وساعدَها على العودة إلى الكرسي. وسأل:

- أهي ابنتُكِ الصغيرة؟

- وَحيدتي. وهي أعذبُ بنتٍ في العالم. لا أتخلَّى عنها لأجل أيّ شيء على سطْح الأرض. إنها ذكيةٌ أيضًا. يمكنها الكنسُ والطبخ والغسيل وإطعام الدَّجاج وعزقُ الأرض. ما كنتُ لأستغني عنها ولو مُنحتُ صندوقَ مجوهرات.

فقالَ بلطف:

- لا. إيّاك والسماح لأي رجلٍ بأخذها منك.

- على أيّ رجل يأتي في طلبها أن يبقَى هنا في محيط المنزل.

ركَّزت عينُ السيد شيفتليت في الظلمة على جزءٍ من مصدِّ السيارة يلتمع في المَسافة، وقال هازًّا يدَه القصيرة كأنه قادرٌ على الإشارة بها إلى

منزلها وفنائها والمضخَّة: "سيدتي، لا يوجد شيء معطَّل في هذه المزرعة لا يمكنني إصلاحه، سواء أكنتُ هاويًا بيدٍ واحدة أم لا. أنا رجل، وإن لم أكُن رجلًا كاملًا. أتمتعُ بـ..."، قال ذلك بكبرياء، ثمَّ أردفَ بينما ينقرُ بأصابعه الأرضَ توكيدًا على جسامة ما سيقول: "فطنة خُلُقية!" وثقبَ وجهه الظلام ليبرز في عمودِ ضوء الباب بعدئذٍ محدِّقًا بها كأنَّ هذه الحقيقة المُستحيلة قد أذهلته نفسه.

لم تؤثرِ العبارة في العجوز، وقالت:

- لقد أخبرتك أنَّ بوسْعك البقاءَ والعمل مقابلَ الطعام، إن كنت لا تمانعُ النومَ في تلك السيارة.

فقالَ مبتسمًا ابتسامةَ سرور:

- كان الرهبانُ القدماء يَنامون في توابيتهم يا سيدتي!

- لم يكونوا متطوِّرين مثلنا.

بدأ في الصباح التالي العملَ على سقف بيتِ الحديقة بينما جلست لوسينيل، الابنة، على صخرةٍ تراقبه، ولم يمضِ أسبوعٌ على وجوده حتَّى بدا التغييرُ الذي أنزله بالمكان واضحًا، إذ رقَّع الدرجاتِ الأماميةَ والخلفية، وبنى حظيرة خنازير جديدة، وجدَّد السياج، وعلَّم لوسينيل -التي كانت صمّاء تمامًا ولم تنطق كلمةً في حياتها- أنْ تقول "عصفور"، فراحتِ البنت الضخمة ذاتُ الوجه الوردي تتبعه في كلِّ مكان تردِّد: "عصفورررر عفصرووررر" وتصفق بيديها، بينما تراقبُهما العجوز من بُعد والسرورُ يملؤها في سرِّها، ذلك أنها في أشدِّ توْقها إلى صِهر.

كان السيد شيفتليت ينامُ على المقعد الخلفي الضيق القاسي للسيارة مادًّا قدميه من النّافذة، وقد وضعَ شفرة حلاقتِه وعلبة ماءٍ على صخّارة لعبت دورَ طاولة جانبية، وعلَّق مرآةً على البلور الخلفي، وحافظَ على أناقة معطفه في علاقةٍ علَّقها على إحدى النوافذ.

وفي الأمسيات، يجلسُ على الدرجات ويتكلَّم بينما تهزُّ العجوز ولوسينيل كرسيَّيهما إلى جانبيه. كانت جبالُ العجوز الثلاثة سوداء قبالةَ السماء الزرقاء القاتمة، ويتردَّد عليها مختلفُ الكواكب، والقمرُ بعد أن يغادر الدجاجات. أشار السيدُ شيفتليت إلى أنَّ سببَ تحسينه المزرعةَ هو أنه صارَ مهتمًّا بها اهتمامًا شخصيًّا، وقال إنه سيصلح السيارة حتى.

كان قد رفع غطاءها وفحصَ الآلية وقال إنَّ السيارة صُنعت في الأيام التي كانت تُصنَع فيها سيارات بحق. أمّا اليوم، فيضع رجلٌ إبزيمًا، ويضع آخرُ إبزيمًا آخر، ويضع ثالثُ إبزيمًا ثالثًا، ورابع يضعُ إبزيمًا رابعًا، فيصير لكلِّ إبزيم رجلٌ خاص به. لهذا يدفع المرءُ ثمن السيارة غاليًا لأنه يدفع لكلِّ أولئك الرجال. لو لم يكن على المرءِ الدفع إلا لرجلٍ واحد اليوم لحصلَ على سيارة أرخص، وقد تلقَّت اهتمامًا شخصيًّا، إضافة إلى كوْنها سيارة أفضل. ووافقته العجوز على أن هذا ما يجْري.

قال السيدُ شيفتليت إنَّ مشكلة العالم هي أن لا أحدَ يهتم، أو يتوقف قليلًا ويكلّف نفسَه بعضَ العناء. قال إنه لم يكن ليقدر على تعليم لوسينيل كلمة لو لم يهتمّ ويتوقف مدةً كافية.

قالتِ العجوز:

- علِّمها أن تقول شيئًا آخر.

- ما الذي تريدينها أن تقوله تاليًا؟

ابتسمتِ العجوزُ ابتسامة عريضة درداء وإيحائية، وقالت:

- علِّمها أن تقول "فطيرة السُّكر".

وكان السيد شيفتليت يعرفُ بالفعل ما يدور في ذهنها.

شرعَ في اليوم التالي بسمْكرة السيارة، وأخبرَها في المساء نفسه أنها إن اشترتْ قشاطًا للمروحة، فسيتمكنُ من تدْويرها.

قالتِ العجوز إنها ستُعطيه المال، ثمَّ سألته مشيرةً إلى لوسينيل الجالسة على الأرض على بُعد قدم منه تراقبه، وعيناها زرقاوان حتى في الظلمة: "أترى تلك الفتاةَ هناك؟ إذا ما أراد رجلٌ أخذها، فسأقول له: "لن يأخذ رجلٌ على وجه البسيطة بنتي العذبة منّي!" لكن إن قال: "سيدتي، لا أريدُ أخذها، بل أريدها هنا"، فسأقول: "لا ألومك ألبتَّة أيها السيد. ما كنتُ لأفوت فرصةَ العيش في مكانٍ مُستدام، والحصول على أعذب بنتٍ في العالم لنفسي. لستَ أحمقَ ألبتَّة".

سألها السيد شيفتليت سؤالًا عابرًا:

- كم عمرُها؟

قالتِ المرأة: "خمس عشرة، ست عشرة". وكانت البنتُ قريبة من الثلاثين، لكن يستحيل تخمينُ ذلك بالنظر إلى براءتها.

علَّق السيد شيفتليت قائلًا:

- ستكون فكرةً جيدةً أن نطْليها كذلك. لا نريدها أن تصدأ.

- سنرى بهذا الشأن لاحقًا.

في اليوم التالي، مشى إلى البلدةِ وعادَ بالقطع التي يحتاج إليها وعلبةٍ من الوقود. ولاحقًا في الظَّهيرة، سُمعت أصواتٌ رهيبة من السقيفة، وخرجت العجوزُ مُسرعة من المنزل ظانَّةً أنَّ لوسينيل تعاني نوبةً في مكان ما، فرأتها جالسة على صحّارة دجاجٍ تدقُّها برجليْها وتصرخ: ""عصفوررررر! عفصرووررر!"، لكن السيارة غطّت ضجتَها، وخرجَت من السقيفة رفقةَ رشقة من الفرقعات، متقدمة تقدُّمًا عنيفًا ومهيبًا، بينما يجلس السيد شيفتليت في مقعد السائق بأشدِ الاستقامة، وعلى وجهه تعبيرُ تواضعٍ رزين كأنه قد أحيا ميتًا للتَّو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في تلك الليلة، وبينما تهزُّ كرسيها على الشرفة، بدأتِ العجوزُ العملَ على خطتها من فوْرها، فسألته بتعاطف:

- تريد امرأةً بسيطة، أليس كذلك؟ لا تريد أيًّا من هذه الحثالة، صحيح؟

- لا يا سيدتي، لا أريدهن.

- امرأةٌ بكماء، لا يمكنها مُجاوبتك بوقاحةٍ أو التكلم بلسانٍ بذيء. هذا هو الصِّنف الذي يناسبك، وها هو هناك. (وأشارت إلى لوسينيل الجالسةِ متربِّعة في كرسيها، ممسكةً كلتا قدميها بيديها).

فاعترف قائلًا:

- هذا صحيح. لن تسبِّب لي أي كَدَر.

- السبت. يمكننا القيادةُ إلى المدينة وتزويجكما.

استراحَ السيد شيفتليت في جلسته على الدَّرجات وقال:

- لا يمكنني الزواجُ الآن. كلُّ شيء يفعله المرءُ يحتاج إلى المال، وأنا لا أملك أيًّا منه.

- ما حاجتُك بالمال؟

- يتطلب الأمرُ مالًا. بعضُ الناس مستعدٌّ لفعل أيّ شيء كيفما اتفق في هذه الأيام، لكنَّ أفكاري تملي عليَّ ألَا أتزوج امرأة لا يمكنني أخذها في رحلة مثلَ الناس. وأعني أخذَها إلى فندق وتسليتها. (ثمَّ قال بحزم) ما كنتُ لأتزوَّج دوقة وندسور إن لم أكنْ قادرًا على أخذها إلى فندق وإطعامها طعامًا طيبًا. لقد تربَّيتُ بهذه الطريقة ولا يوجد شيء يمكنني فعلُه حيالَ ذلك. أمّي العجوز علمتني حسنَ التصرف.

فتمتمتِ العجوز: "لوسينيل لا تعرفُ ما هو الفندق حتى"، ثمَّ قالت بعد أن انزلقتْ إلى الأمام في كرسيها، "اسمعْ يا سيد شيفتليت، ستحصل على منزلٍ دائم وبئر عميقة، وأبسط بنتٍ في العالم. لستَ في حاجة إلى المال. دعني أخبرك شيئًا: لا يوجَد مكان في العالم يستقبل رجلًا فقيرًا هائمًا معاقًا عديم الأصدقاء".

استقرَّت الكلمات القبيحةُ في رأس السيد شيفتليت كمجموعة صقورٍ جثمت على قمَّة شجرة، ولم يجبْ حالًا، بل لفَّ سيجارة وأشعلها ثمَّ قال بصوت هادئ:

- سيدتي، ينقسم الرجلُ إلى جزئين: جسد وروح.

أطبقتِ العجوز لثَّتيها على بعضِهما.

وكرَّر قائلًا:

- جسدُ وروح. الجسد يا سيدتي أشبه بالمنزلِ لا يذهب إلى أيِّ مكان، أمّا الروحُ يا سيدتي فهي كالسيارةِ تتحرك دائمًا، دائمًا...
- اسمعْ يا سيد شيفتليت، بئري لا تنضبُ أبدًا، ومنزلي دافئ في الشتاءات، ولا يوجد رهنٌ على أيِّ شيء في هذا المكان. يمكنك الذهابُ إلى دار القضاء والتأكُّد بنفسك. وتحتَ تلك السقيفة توجد سيارة فاخرة. (ثمَّ رمتْ الطُّعمَ بحذر) يمكنك إنهاءُ طلائها بحلول السبت، وسأدفع ثمنَ الطلاء.

امتدَّت ابتسامة السيد شيفتليت في الظلمة كأفعًى حَذرة تستفيقُ بجوار النار، وبعد ثانيةٍ تذكر نفسَه وقال:

- لستُ أقول إلا إنَّ روحَ الرجل تعني له أكثرَ من أي شيء آخر. أريدُ أن أقدرَ على أخْذ زوجتي إلى مكان ما في عطلة نهاية الأسبوع من دون حسْبان التكلفة على الإطلاق. عليَّ الذهاب إلى حيث تأمرني روحي بالذَّهاب.

قالتِ العجوز بصوت نكِد:

- سأعطيك خمسة عشَر دولارًا لتذهبا في رحلة بنهاية الأسبوع، وهذا أفضلُ ما يمكنني فعله.
- هذا بالكاد يكفي ثمنًا للوقود والفندق. لن يطعمها.
- سبعة عشَر ونصف، وهذا كلُّ ما أملكه، لذا لا جدوى من محاولة اسْتغلالي. يمكنكما أخذُ وجبة الغداء معكما.

جرحتْ كلمة "استغلال" السيد شيفتليت جرحًا عميقًا. لم يكن عنده شكٌّ أن لديها مالًا أكثرَ تخبئه في بطانة فراشها، لكنه أخبرَها بالفعل أنه ليس مهتمًّا بمالها، فقال: "سأجعلُ ذلك يُجدي". ونهضَ فمشى مبتعدًا ولم يزدْ في مفاوضتها.

في يوم السبت، قادَ ثلاثتهم إلى البلدة في السيارة التي بالكاد جفَّ طلاؤها وزُوِّج السيد شيفتليت ولوسينيل في مكتب التزويج وشهدتِ العجوزُ على ذلك. عندما خرجوا من دار القضاء، بدأ السيد شيفتليت يلوّي عنقَه في ياقته، وبدا كالحًا ومتألمًا كأنه قد تعرَّض لإهانة بينما يثبّته أحدٌ ما، وقال: "لم يمنحني ما جرى أيُّ رضًا. ليس إلا شيئًا فعلتْه امرأةٌ تجلس في مكتب، ليس إلّا أوراقًا وفحوص دم. ماذا يعرفون عن دمي؟ لو شقّوا صدري وأخرجوا قلبي لمّا عرفوا عنّي شيئًا. لم يرْضني ذلك ألبتَّة".

قالتِ العجوزُ بحدَّة:

- لقد أرضى القانون.
- القانون. (قالها السيد شيفتليت وبَصَق) إنَّ القانون لا يرضيني.

كان قد طلَى السيارةَ بلون أخضر داكنٍ يتخلله شريطٌ أصفر تحت النوافذ تمامًا. صعدَ ثلاثتهم إلى المقعد الأمامي، وقالت العجوز: "ألا تبدو لوسينيل مَليحة؟ تبدو كدُمى الأطفال". كانتْ لوسينيل مرتدية فستانًا

أبيضَ انتزعته أمُّها من صندوق ثيابٍ، ومعتمرةً قبعة بنميَّة على حافَّتها مجموعة من الكرزات الخشبية. وبين الحينِ والآخر، تتبدَّل سحنتُها الرائقة بفعل فكرةٍ حكيمة نادرة كبقعة خضراء في وسطِ الصحراء. قالت العجوز: "لقد نلتَ جائزة!".

لم ينظرِ السيد شيفتليت إليها حتى.

قادوا عودًا إلى المنزل ليوصلوا العجوزَ ويأخذوا وجبةَ الغداء، وعندما استعدوا للمُغادرة، وقفت تحدِّق في نافذة السيارة، وأصابعُها قابضة على الزجاج، ثمَّ بدأتِ الدموع تسيل جانبيًّا من عينيها، وتجري على امتداد تجاعيد وجهها الوسخَة، وقالت:

- لم أفترقْ عنها ليومين من قبل.

دوَّر السيد شيفتليت المحرِّك.

قالتْ بينما تمسك بكمّ الفستان الأبيض: "وما كنتُ لأسمح لرجلٍ سواك بالحصول عليها لأنَّني رأيتُ أنك صالحُ الأعمال. وداعًا يا ابنتي السُّكّر". نظرت لوسينيل إليها مباشرة وبدَا أنها لم ترَها ألبتَّة، وأطلق السيد شيفتليت السيارة بهدوء حتى اضطُرَّت إلى سحب يديها.

كانت بدايةُ الظهيرة صافية وطَلْقة وتسوّرها السماء الزرقاء الباهتة، ورغم أن سرعةَ السيارة لا تزيد عن ثلاثين ميلًا في الساعة، تصوّر السيد شيفتليت صعودات وهبوطات وتعرُّجات رائعةً أترعت رأسَه زهوًا حتى أنه نسي مرارةَ صباحه. لطالما أرادَ سيارة، لكنه لم يتمكنْ منِ احتمال ثمنِ واحدة من قبل، وراح يقودُ بسرعة شديدة لأنه أرادَ بلوغَ مدينة موبايل قبل هبوط الليل.

بينَ الحين والآخر، كان يقطع حبلَ أفكاره مدة كافية لينظرَ إلى لوسينيل في المقعد المُجاور له، وكانت قد تناولتِ الغداء حالما خرجَا من الفناء وراحت تنتزع حباتِ الكرْز عنِ القبعة واحدةً واحدة وترْميها من النافذة، فاكتأب على الرغم من فرحته بالسيارة. كانا قد قطعَا مسافة مائة ميل تقريبًا وقتما قرَّر أنها لا بدَّ جاعت ثانية، فتوقَّف في البلدة الصغيرة التالية على طريقِهما أمام مطعم مطليّ بالألومنيوم اسمُه "ذا هَت سبَت" وأدخلها ثمَّ طلبَ لها طبقًا من لحم الخِنزير والقمح المطحون. بدَا أنَّ الرحلة قد نعَّستها، ذلك أنها حالما جلستْ على المقعد أراحت رأسَها على طاولة البيع وأغمضتْ عينيها. لم يكنْ في "ذا هَت سبَت" إلا السيد شيفتليت والصبيُّ الجالس خلفَ طاولة البيع، وهو شابٌّ شاحب تتدلى عن كتفِه مِمْسحة متَّسخة، وقبل أن يسكب الطعامَ في الأطباق كانت تشخَّر بهدوء.

قال السيد شيفتليت:

- قدِّمْه لها عندما تفيق، سأدفع ثمنَه الآن.

انحنَى الصبي فوقَها وحدَّق إلى الشعر الطويل الذهبي والعينين النائمتين نصفِ المُغمضتين، ثمَّ رفع نظرَه وحدَّق إلى السيد شيفتليت مغمغمًا:

- تبدو كملاكٍ من ملائكة الله.

ففسَّر له السيد شيفتليت قائلًا:

- إنَّها مسافرة مُتطفِّلة، ولا يمكنني الانتظار. عليَّ بلوغ توسكالوسا.

انحنى الصبيُّ ثانية، ولمسَ بأصبعٍ شديدةِ الحذر خصلةً من شَعرها الذهبي، وغادر السيدُ شيفتليت.

كان أكثرَ اكتئابًا من أي وقتٍ مضى عندما قاد السيارة وحدَه، فقد صارتِ الظهيرة في نهايتها حارَّة وخانقة، وانبسطَ الريفُ من أمامه. وفي

عمق السماء، بدأت عاصفةٌ تتجهَّز ببطء شديدٍ من غير برْق كأنها تنوي إفراغَ الأرض من كلِّ ذرة هواءٍ قبل أن تندلع. مرَّت أوقاتٌ فضَّل فيها السيد شيفتليت ألا يكون وحيدًا، وشعر أيضًا أنَّ الرجل الذي يملك سيارةً يحمل مسئوليةً تجاه الآخرين، فظلَّ موليًا انتباهَه للمسافرين المتطفلين. وبينَ وقت وآخر، يرى يافطةً تحذِّره قائلة: "قُد بحَذر. قد تكون الحياةُ التي تنقذها حياتَك".

انخفضَ الطريق الضيق من كلا جانبيْه إلى حقولٍ جافة، وبين الفينة والأخرى، يظهر كوخٌ أو محطة وقودٍ في أحد فسحاتها. بدأتِ الشمس تغرب أمام السيارة مباشرة، وكانت كرةٌ محمرَّة بدتْ من خلال الزجاج الأمامي مسطحة قليلًا في أعْلاها وأسفلها، ثمَّ رأى صبيًّا يلبس مَيْدعةً وقبعة رمادية واقفًا على جانب الطريق، فأبطأ السيارةَ وتوقَّف أمامه. لم يكنِ الصبيُّ رافعًا أصبعه ليوقف وسيلة نقل، بل كان يقفُ مكانه وحسب، لكنْ معه حقيبة كرتونية صغيرة، وقبعته موضوعةٌ على رأسه بطريقة تشيرُ إلى أنه قد غادرَ مكانًا ما للأبد. قال السيد شيفتليت:

- أرى أنَّك في حاجة إلى توصيلة يا بني.

لم يقلِ الصبيُّ ما إن كان في حاجةٍ أم لا، بل فتحَ باب السيارة وصعد، وتابع السيد شيفتليت القيادة. وضعَ الصبيُّ حقيبته في حجْره وشبَّك ذراعيه فوقها، ثمَّ أدار رأسَه وراح ينظر من النافذة مُعرضًا عن السيد شيفتليت. شعر السيد شيفتليت بالانقباض، وقال بعد دقيقة:

- بُني، لقد حظيتُ بأفضل أمٍّ في العالم؛ لذا أحسبُ أنك لم تنلْ إلا ثاني أفضَلهن.

ألقى الصبيُّ ناحيته نظرةً سريعة سوداء، وأعادَ وجهه إلى النافذة.

تابعَ السيد شيفتليت:

- لا يوجد شيء بعذوبةِ أمّ الطفل؛ تعلّمه صلواته الأولى على ركبتيها، وتمنحه الحبَّ وقتما لاَ يمنحُه إيّاه غيرها، وتعلّمه ما الصواب وما الخطأ، وتحرصُ على أن يفعلَ الصواب. بُني، لم أندمْ على يومٍ في حياتي بقدر ما ندمتُ على يوم هجْري أمّي العجوز تلك.

بدَّل الصبيُّ جلستَه في مقعده لكنه لم ينظرْ إلى السيد شيفتليت، وأرخى ذراعيه ثمَّ وضعَ إحداهما على مقبض الباب.

قال السيد شيفتليت بصوتٍ شديدِ التوتر: "كانت أمي ملاكًا من ملائكة الله. أخرجَها من الجنة وأعطانيها وأنا هجرْتها"، ثمَّ تغبَّشت عيناه من فورهما بغشاوةِ الدموع، وبالكاد كانت السيارةُ تتحرك.

استدار الصبيُّ بغضب في مقعدِه وصاح: "فلتذهب إلى الجحيم! أمي العجوز كيسُ قذارة وأمُّك ظَربان نَتِن!" وبقوله ذلك فتحَ الباب وقفز رفقةَ حقيبته إلى القناة.

صُدم السيد شيفتليت حتى إنَّه قاد لنحْو مائة قدم ببطء والبابُ ما يزال مفتوحًا، وهبطتْ غيمة لها نفسُ لون قبعة الصبيِّ وشكلٌ يشبه اللفت، فحجبتِ الشمس، وجثمتْ أخرى أسوأ شكلًا، خلفَ السيارة. شعرَ السيد شيفتليت أن نتانة العالم موشكةٌ على ابتلاعه، فرفع ذراعَه وتركها تسقطُ على صدره وصلّى:

- إلهي! اغسلِ القذارةَ من هذا العالم!

استمرَّت حبةُ اللفت بالهبوط على مَهل، وبعد بضع دقائق، سُمع دويُّ رعدٍ مُغرقٌ في القهقهة من خلفِه، وارتطمت حبّاتُ مطر هائلة، بحجم أغطية العبوات الصَّفيحية، بمؤخّر سيارة السيد شيفتليت، فداسَ على دوّاسة الوقود بأقصى سرعة، وسابقَ الحمّام المتسارع وذراعُه المبتور ممدودٌ من النافذة إلى مدينة موبايل.

# أُناسٌ ريفيون طيّبون

إلى جانب وجْه الحياد الذي تلبسه السيدة فريمان عندما تكون وحدَها، لها وجهان آخران: التقدم والتراجع، وتستخدمُهما في جميع تعاملاتها مع الناس. وجهُ التقدم مَتين ومندفع كتحرُّك شاحنةٍ ثقيلة، لا تزيغ عيناها يمْنة ولا يسْرة أبدًا، بل تنعطف معَ انعطاف القصة كأنها تتبعُ خطًّا أصفرَ في منتصفها، ونادرًا ما تستخدم الوجهيْن الآخرين لأنَّها في الغالب لم ترَ التراجعَ عن قولٍ ما أمرًا ضروريًّا، لكن عندما تفعل ذلك يتوقفُ وجهها في مكانه، وتدبُّ في عينيها السوداوين حركة تكاد لا تلحَظ، فتبدوان في خلالها تتقلَّصان، ثمَّ يلاحظ الرائي أن السيدة فريمان -وإن كانت واقفةً أمامه ملموسة كبضعة أكياس حُبوب كوِّمت فوق بعضها- لم تعدْ حاضرةً بذهنها. أمّا عن تفهيمها أي شيء في هذه الحالة، فقد فقدت السيدة هوبويل الأملَ، ذلك أنها قد تتكلمُ وتتكلم حتى يؤلمها رأسُها بلا جدوى. لا يُمكن حمل السيدة فريمان على الاعتراف بأنها مُخطئة أبدًا. كانت لتقف في مكانها وحسب، وإن حُملت على قولِ شيء ما فيكون من قبيل: "حسنًا، ما كنتُ لأقول كان ذلك وما كنتُ لأقول لم يكن"، أو تطلق نظرتَها لتجوب رفَّ المطبخ العلوي حيث تصطفُّ تشكيلة من القناني المُغبرة، وربما تعقِّب قائلة: "أرى أنك لم تأكلي الكثيرَ من التّين الذي يبّستِه الصيف الماضي".

كانتا تنْجزان أهمَّ أعمالهما في المطبخ على الفطور. في كلِّ صباح، تستيقظ السيدة هوبويل في السابعة تمامًا وتشعل مدفأةَ الغاز الخاصَّة بها

ومدفأة جوي. جوي ابنتها، فتاة شقراءُ ضخمة لها ساقٌ اصطناعية تراها السيدة هوبويل طفلة رغم أنَّها في الثانية والثلاثين من عمرها وتلقَّت تعليمًا عاليًا. تستيقظ جوي في أثناء تناول أمِّها الطعام، فتتثاقل المشي إلى الحمام وتصفق الباب وراءها، وسرعان ما تصلُ السيدة فريمان إلى الباب الخلفي، وتسمع أمَّها تنادي "ادخلي"، فتتكلمان لبعض الوقت بأصواتٍ خفيضة لا يمكن تمييزها من الحمام. عندما تدخل جوي عليهما تكونان في العادة قد أنهتا تقرير الطقس، وبات الحديثُ يدور حول إحدى بناتِ السيدة فريمان، غلينيس أو كاراماي، اللتيْن تناديهما جوي غلسرين وكراميل. غلينيس صهباءُ في الثامنة عشرة ولها معجبون كثر، أما كاراماي، ففي الخامسة عشرة فقط لكنَّها متزوجة وحُبلى بالفعل، ولا تأكل شيئًا إلا تستفرغه. في كلِّ صباح، تخبر السيدة فريمان السيدة هوبويل بعددِ استفراغاتها منذ آخر تقرير.

أحبَّت السيدة هوبويل إخبارَ الناس بأن غلينيس وكاراماي من أحسن البنات اللاتي تعرفهن، وأنَّ السيدة فريمان "سيدة راقية" ولا تستحي أبدًا من أخذها إلى أي مكانٍ وتقديمها لأيِّ شخص قد تلتقيانه. ثمَّ تحكي عنْ توظيفها آل فريمان في المقام الأوَّل، وأنَّهم هبةٌ سماوية أُرسلت إليها، وأنَّهم عندها منذ أربع سنوات. كان سببُ إبقائها إياهم طيلةَ هذه المدة هو أنهم ليسوا رعاعًا، بل أناسٌ ريفيون طيبون. كانت قد اتصلتْ بالرجل الذي أعطوها اسمَه مرجعًا وقال لها إنَّ السيد فريمان مزارع جيد لكنَّ زوجته أشدُّ النساء تطفلًا في التاريخ. قال الرجل: "عليها أن تتدخل بكلِّ ما يجري، وإن لم تصلْ قبل أن يستقرَّ الغبار فيمكنك المراهنة بأنها ميتة بلا شك. سترغبُ بمعرفة كلِّ شئونك. يمكنني احتماله بصدر رحْب، لكن لم أقدر ولم تقدر زوجتي على احتمال تلك المرأة لدقيقةٍ أخرى في بيتنا"، وأخّر ذلك السيدة هوبويل لبضعة أيام.

وظَّفتهم في آخر الأمر لغياب أيّ متقدمين غيرهم، وقرَّرت سلفًا الطريقة التي ستعامل بها المرأة بالضبط. بما أنَّها من صنف الذين يحبون التدخلَ بكل ما يجري، فلنْ تسمح لها بالتدخل بكلِّ ما يجري وحسب، بل ستحرص على أنْ تتدخلَ بكل ما يجري؛ ستمنحها مسئولية كلِّ شيء، وتسلّمها زمامَ القيادة. لم تكن للسيدة هوبويل صفاتٌ سيئة خاصة بها، لكنها قادرةٌ على استخدام الآخرين بطريقة بنّاءة جعلتها لا تشعر بالنقص أبدًا.

"لا شيء كامل". كانت هذه إحدى المقولات المفضَّلة لدى السيدة هوبويل، ومن مفضَّلاتها أيضًا: "هذه سنة الحياة" وثمَّة أخرى، هي الأهم، تقول: "حسنًا، للآخرين آراؤهم أيضًا". جرتِ العادة على أن تقول هذه المقولات على طاولة الفطور، بلهجةِ إصرار رقيقٍ كأنما لا أحد يعرفها إلّاها. أما جوي الضخمة، التي طمسَ غضبها المستمرُّ جميعَ تعابير وجهها، فتحدّق إلى جوارها بعض الشيء بعينين زرقاوين ثلجيَّتين، وعلى وجهها هيئة شخصٍ حقَّق العمى بكامل إرادته وينوي الحفاظ عليه.

عندما تقول السيدة هوبويل للسيدة فريمان إنَّ هذه سنة الحياة، تردُّ السيدة فريمان: "لطالما قلتُ ذلك أيضًا". لم يحضر أحدٌ أيَّ شيء قبلها؛ كانت أسرع من السيد فريمان. عندما قالت لها السيدة هوبويل بعد أن قضوا فترةً في منزلها: "أتعلمين، أنتِ العجلة التي توجّه العجلة"، وغمزتها، قالت السيدة فريمان:

- أعرف ذلك. لطالما كنتُ سريعة. بعضُ الناس أسرع من بعضهم.
- الجميع مختلفون.
- صحيح، معظمُ الناس مختلفون.
- يحتاج العالمُ إلى جميع الأصناف ليقوم.
- لطالما قلتُ ذلك أيضًا.

اعتادتِ الفتاة سماعَ هذا النمط من الحوار على الفطور، والمزيد منه على العشاء، وفي بعض الأحيان على العشاء المتأخر أيضًا. كانتا عندما لا يأتيهما ضيوف تأكلان في المطبخ لأنَّ ذلك أسهل، ودائمًا ما تتمكن السيدة فريمان من الوصول في وقتٍ ما خلال الوجبة فتشاهدهما تنْهيانها. كانت تقف في مدخل الباب صيفًا، أمّا في الشتاء فتقف متَّكئة بمرفقها على قمَّة البراد تنظر إليهما، أو تقف بجوار مدْفأة الغاز رافعةً ظهرَ تنّورتها بعض الشيء، وبين الحين والآخر، تستند إلى الحائط وتقلّب رأسَها من جانب إلى جانب، من دون أن تستعجل المغادرة ألبتَّة. وكلُّ هذا مرهقٌ للسيدة هوبويل، لكنها امرأةٌ رحيبةُ الصدر. كانت مدركة أن لا شيء يبلغ الكمال، وأنها وجدَت في آل فريمان أناسًا ريفيّين طيبين، وأن من خير المرء -إذا ما التقى بأناس ريفيّين طيبين في هذا الزمان- أن يتمسَّك بهم.

خاضتِ السيدة هوبويل تجاربَ كثيرة مع الرعاع، فقبل آل فريمان، كان معدَّل المستأجرين عندها عائلةً في العام، لكن زوجات أولئك المزارعين لم تكنَّ من النوع الذي ترغب بقضاء وقتٍ طويل معه، ذلك أنها -وقد طلقت زوجها منذ وقت طويل- في حاجةٍ إلى مَن يمشي معها في الحقول، وعندما تؤدي جوي هذه الخدمات كرْهًا، تعلقُ تعليقاتٍ بَشعة في العادة، ويتجهَّم وجهها إلى درجة تحمل السيدة هوبويل على قول: "إن لم يكُن بمقدورك القدوم بسرور، فلا أريدك بالمرَّة"، ما تجيب عليه الفتاة، مواجهة إيّاها تمامًا بكتفين متصلّبين وعنق مدفوع إلى الأمام بعضَ الشيء: "إن كنتِ ترغبين بوجودي هنا، فها أنا ذي، على سجيَّتي"

غفرتْ لها السيدة هوبويل هذا السلوكَ بسبب ساقها (التي أُصيبت بطلق ناريّ أدى إلى بتْرها في حادثة صيدٍ عندما كانت في العاشرة). شقَّ على السيدة هوبويل استيعاب أنَّ ابنتها في الثانية والثلاثين الآن، وأنها لا تملك إلا ساقًا واحدة منذ أكثرَ من عشرين سنة، وظلت تنظر إليها على

أنها ما تزال طفلة لأنَّ قلبها يتمزق عندما تفكّر بأنها بنتٌ ضخمة مسكينة بلغت ثلاثيناتها من دون أن تحرك قدمَها في رقصة، أو تحظى بأيّ متعة "طبيعية". كان اسمُها الحقيقي جوي، لكن حالما بلغتِ الحادية والعشرين وابتعدت عن المنزل غيَّرته قانونيًّا، وكانت السيدة هوبويل متأكدةً من أنها فكرت وفكرتْ حتى وقعتْ على أقبح الأسماء في جميع اللُّغات، ثمَّ ذهبت وغيرت اسمَها الجميل، جوي، من دون أن تخبر أمَّها بذلك حتى انقضى الأمر، وصار اسمُها القانوني: هولغا.

كلَّما فكرتِ السيدة هوبويل باسم هولغا مرَّ في رأسها هيكلٌ عريض أجوف لسفينة حربيَّة ما، وأبَت استخدامَه. ظلت تناديها باسْم جوي، وظلت الفتاة تستجيب إليه، لكنْ استجابة آليَّة بحتة.

تعلَّمت هولغا احتمالَ السيدة فريمان التي أنقذتها من المشي مع أمها، وحتى غلينيس وكاراماي كانتا نافعتين بتولِّيهما اهتمامًا ربما كان ليُصبَّ عليها لولاهما. ظنَّت في البداية أنها غيرُ قادرة على تحمُّل السيدة فريمان لأنها وجدت أن معاملتَها بوقاحة غيرُ مُمكنة، إذ أنَّ السيدة فريمان تدخل في حالات استياء غريبة وتظلُّ كئيبة لأيام، لكن مصدرُ انزعاجها غامضٌ دائمًا، أما عن التطاول المباشر والنظرات الشزراء القاطعة والوقاحة الصارخة؛ فلم تمسَّها قط. وفي أحد الأيام، بدأتْ تناديها بهولغا من دون سابق إنذار.

لم تنادِها بهذا الاسم أمامَ السيدة هوبويل التي كانت لتستشيط غضبًا، لكن عندما يصادفُ أن تكون خارجَ المنزل رفقة الفتاة، كانت تقول عبارةً ما ثمَّ تضيف اسم هولغا إلى نهايتها، فتعبسُ جوي- هولغا لابسة نظارتها وتحمرُّ كأنها تطفلت على خصوصيَّتها، إذ إنها تعتبر الاسمَ شأنَها الخاص. استقرَّت عليه في البداية بناء على قباحة وقْعه فقط، ثمَّ داهمتْها عبقريَّة ملائمته إياها، فقد تراءى لها الاسمُ يعمل مثلَ الإله فولكان البشع

المتعرّق بجوار فرنه، والذي -كما يُفترض- لا بدَّ للإلهة من تلبيةِ ندائه عندما يناديها. رأته أكثرَ أعمالها إبداعًا، ومن أهمّ انتصاراتها عجزُ أمّها عن تحويل جثتها إلى جوي، لكن الأهم هو تمكنَها من تحويلها بنفسها إلى هولغا. غير أنَّ استمتاع السيدة فريمان باستخدام الاسم لم يُفِد إلّا إغاظتها، كأنَّ عينيها الخرزيَّتين الحفَّارتين قد اخترقتا وجهَها إلى عمق كافٍ لتبلغا حقيقةً سريَّة ما. بدَا أن فيها شيئًا ما يسحر السيدة فريمان، ثمَّ ذات يوم، أدركت هولغا أنه الساقُ الاصطناعية. كانت السيدة فريمان تستهوي تفاصيل الإصابات السريَّة، والعاهات المخبأة، والاعتداءات على الأطفال، وتفضل من الأمراض المُزمنَ والعُضال، وسمعت هولغا السيدة هوبويل تصفُ لها بالتفصيل حادثةَ الصيد، وكيف تفجرت ساقُها حرفيًّا من دون أن تغيبَ عن الوعي لحظة. كان بمقدور السيدة فريمان سماعُ القصة في أي وقت، كأنها حدثت منذ ساعة.

عندما تدخل هولغا المطبخَ وهي تخبط الأرض في الصباح (وبمقدورها المشي من دون إحداث هذه الضوضاء الشنيعة، لكنَّ السيدة هوبويل واثقة من أنها تُحدثها لأنَّ وقعَها بَشع)، تلقي نظرةً إليهما ولا تتكلم. جرتِ العادة على أن تكون السيدة هوبويل لابسة الكيمونو الأحمر وشعرُها مربوط في خِرَق حول رأسها، وأن تكونَ جالسة إلى الطاولة تنهي فطورَها بينما تقف السيدة فريمان معلقة من مرْفقها على البرّاد تنظر إلى الطاولة. دائمًا ما تضع هولغا بيضها على الموقد ليُسلَق، ثمَّ تقف فوقَه شابكة ذراعيها، فترمقها السيدة هوبويل بنظرة -مواربة إلى حدٍّ ما ومقسومة بينها وبين السيدة فريمان- وتفكر بأنها لو اعتنتْ بنفسها بعض الشيء فقط لمَا كانت بهذا القبح. لم يكُن في وجهها عيبٌ لا تصلحه التعابير الهنيَّة. كانتِ السيدة هوبويل تقول إنَّ الناس الذين ينظرونَ إلى الجانب المشرق من الأمور يصيرون جَميلين حتى لو لم يكونوا كذلك.

كلَّما حدجتْ جوي بهذه النظرة لا يسعُها إلا التفكير بأنه كان من الأفضل لو لم تنَلِ الطفلةُ الدكتوراة، ذلك أنها لم تخرجها من المنزل ألبتَّة، والآن بعد أن حازتها، لم يعدْ يوجد ما يبرِّر ذهابها إلى المدرسة من جديد. كانت السيدة هوبويل ترى أنه من الجيِّد للبنات أن تذهبنَ إلى المدرسة وتقضين وقتًا مسليًا، لكن جوي قد "اجتازت ذلك". على أيّ حال، لم يعُد فيها من الطاقة ما يكفي لتذهب مرة ثانية، فقدْ أخبر الأطباءُ السيدة هوبويل بأنَّ جوي -إذا ما حظيت بأفضل العناية- ربما تعيش حتَّى الخامسة والأربعين، إذ أنَّ لها قلبًا ضعيفًا، وقد أوضحت جوي أنها لولا حالتُها هذه لكانتِ الآن بعيدة جدًّا عن هذه التلال الحمر والناس الريفيين الطيبين، في جامعة ما تحاضر بأناس يفهمونَ ما تتكلم عنه، وكان بمقدور السيدة هوبويل تصورُها هناك خيرَ تصور وهي تبدو مثلَ فزاعة تحاضر بمزيد من الفزاعات. أما هنا، فتقضي اليومَ بطوله مرتدية تنّورة عمرُها ستُّ سنوات وكنزة صفراءَ عليها راعي بقر باهت اللون على صهوةِ حصان ناتئ منها، وترى ذلك فَكِهًا، أمّا السيدة هوبويل فتراه أحمقَ ويُظهر ببساطة أنها ما تزال طفلة. كانت نَبيهة، لكن ليس فيها مثقالُ ذرَّة من الذوق، وبدا للسيدة هوبويل أنها في كلِّ عام تزداد بُعدًا عن طباع الناس وقربًا من طباعها: منتفخة ووقحة وخازِرَة العينين. وكانت تقول أقوالًا غريبة! إذ قالت مرَّة لأمها -من دون سابق إنذار، ومن دون مبرِّر، بعد أنْ وقفت في منتصف الوجبة بوجهٍ بنفسجي وفم ملآن توقف عن المضغ-: "يا امرأة، أتنظرين داخلك أبدًا؟ أتنظرين داخلك أبدًا وترين ما لستِ عليه؟ ربّاه". صاحت وخرَّت جالسة تحدِّق في طبقها، "كان مالبرانشْ* محقًّا: لسْنا نورنا الخاص! لسنا نورنا الخاص!" ولا فكرة لدى

* نيكولا مالبرانش: كاهنٌ وفيلسوف عقلاني فرنسي (1638 - 1715). (المترجم).

السيدة هوبويل حتى اليوم عما استحضرَ كلامها، ذلك أنها لم تفعل شيئًا إلا التعليق بأنَّ الابتسامة لا تضرُّ أحدًا ألبتَّة، آملة أن تستوعب جوي ذلك.

حازتِ الفتاة شهادة الدكتوراة في الفسلفة، ما أوقع السيدة هوبويل في حَيْصَ بَيْصَ، إذ يمكن للمرء قول: "ابنتي ممرِّضة"، أو "ابنتي مدرِّسة" أو حتى "ابنتي مهندسة كيميائية"، لكن لا يمكنه قول "ابنتي فيلسوفة"، فذلك شيء انتهى معَ الإغريق والرومان. كانت جوي تضيّع نهارَها كله جالسة في كرسيّ عميقٍ تقرأ. وفي بعض الأحيان تخرج لتتمشَّى، لكنها لم تحبّ الكلابَ أو القطط أو الطيور أو الأزهار أو الطبيعة أو الشبان اللطيفين، وكانت تنظر إلى الشبان اللَّطيفين كأنَّ بوسعها شمَّ غبائهم.

ذاتَ يوم، أمسكتِ السيدة هوبويل أحدَ الكتب التي تركتها الفتاة من توّها وفتحته على صفحة عشوائية، فقرأت: "على العلم، من ناحية أخرى، تأكيد وقاره وجديَّته ثانيةً وإعلان أنه لا يهتمُّ إلا بما هو موجود. أمّا العدم، فكيف تراه يكون إلا رعبًا وشبحًا في نظر العلم؟ إن كان العلم محقًّا، إذًا فثمَّة شيء واحد ثابت، وهو أن العلمَ لا يرغب بمعرفة أيّ شيء عن العدم. فبالنهاية، هذا هو التصورُ العلمي الحازم للعدم: نعرفُه من خلال الرغبة بعدم معرفة شيء عنه*". كانت هذه الكلمات مسطَّرة بقلم أزرق، وأثَّرت بالسيدة هوبويل كأنها تعويذةٌ شريرة ما مكتوبةٌ بلغة غيرِ مفهومة، فأغلقتِ الكتاب بسرعة وخرجتْ من الغرفة كأنما سرتْ بها القشعريرة.

عندما دخلتِ الفتاة هذا الصباح، كان حديثُ السيدة فريمان يدور حول كاراماي. قالت:

- استفرغت أربعَ مرات بعد العشاء، واستيقظت مرتين بعد الثالثة صباحًا. لم تفعل شيئًا البارحة إلا النَّبش في درج الصوان. ظلّت واقفة فوقه تبحث عما تسدُّ به رمقها.

* من مقالة "ما الميتافيزيقا؟" للفيلسوف الألماني مارتن هايدغر. (المترجم).

غمغمتِ السيدة هوبويل بينما ترتشفُ قهوتها وتراقب ظهرَ جوي الواقفة إلى الموْقد: "عليها أن تأكل". كانت تتساءل عمّا قالته الطفلة لبائع الأناجيل. لم يسعْها تصورُ أيّ صنف من الحوارات يمكن أن تجريه معه.

كان شابٌّ طويلٌ حاسرُ الرأس زارَهما البارحة ليبيعهما إنجيلًا. ظهر في المدخل حاملًا حقيبةً سوداء ضخمة أثقلت أحدَ جانبيه إثقالًا أجبره على الاستناد إلى الباب، فبدَا على شفير الانهيار، لكنه قال بصوت مرِح: "صباح الخير يا سيدة سيدرز" ووضعَ الحقيبة على البساط. لم يكُن دميمَ الخِلقة، رغم أنه يلبس بِذْلة زرقاء فاقعة وجواربَ صفراء لم يرفعها كما ينبغي، وله عظامُ وجْه بارزةٌ وشعر بنّي مسترسل لزجُ المظهر يغطي جبهته. قالت:

- أنا السيدة هوبويل.

فقال -متظاهرًا بالحيرة لكنَّ عينيه تتلألآن-: "أوه! رأيتُ مكتوبًا على صندوق البريد "آل سيدرز" لذا ظننتُك السيدة سيدرز" ثمَّ انفجر بضحكة عذبة. التقط بعد ذلك الحقيبة، وبحجَّة اللهاثِ وقع قُدمًا في ردْهتها، وبدَا الأمر كأن الحقيبة تحرّكت أولًا جارَّةً إياه خلفها. قال: "سيدة هوبويل" وأمسك بيدها، "آمل أنك بخير" وضحكَ ثانية، ثمَّ تَرزَّن وجهُه دفعة واحدة، فسكت ورمقها بنظرةٍ مستقيمة جدية وقال: "سيدتي، لقد جئتُ لأتكلم في أمور جدية".

فقالت: "حسنًا، تفضل"، ولم تُسرّ بذلك لأنَّ عشاءها يكاد يجهز. دخل إلى البهو وجلسَ على حافَّة كرسيّ مستقيم واضعًا حقيبته بين رجليه، ثمَّ جال بنظره في الغرفة كأنه يقيّمها من خلالها. لمعَت قطعُها الفضية في كلا الصوانين، وخلصت السيدة هوبويل إلى أنه لم يدخل غرفةً بهذه الأناقة من قبل.

قال: "سيدة هوبويل"، ناطقًا اسمَها بلهجة تكاد تكون حميميَّة، "أعرف أنك تؤمنين بالخدمة المسيحية".

فدمدمَت: "بالطبع".

قال: "أعرف"، ثمَّ سكَت، وبدَا في غاية الحكمة ورأسه مائل إلى أحد الجانبين، "إنَّك امرأة صالحة. أخبرني الأصدقاء بذلك".

كانت السيدة هوبويل تكرهُ الاستغباء، فسألته: "ماذا تبيع؟"

أجابَ الشاب: "أناجيل"، ثمَّ دارت عيناه حول الغرفة بسرعة قبل أن يضيف: "أرى أنك لا تملكين إنجيلًا عائليًّا في ردهتك، وأرى أن ذلك نقص تعانينه".

لم يكُن بوسْع السيدة هوبويل قول: "إنَّ ابنتي ملحدة ولا تسمح لي بإبقاء الإنجيل في الرّدهة"؛ لذا قالت، وقد تخشَّبت بعضَ الشيء: "إنني أبقي إنجيلي بجوار سَريري"، وهذا غيرُ صحيح، إذ إنه في مكانٍ ما من العلية.

فقال:

- سيدتي، ينبغي أن يكون كلامُ الرب في الردهة.

همَّت تقول:

- حسنًا، أظنُّ أن هذه مسألة أذواق، أظن...

فقاطعها:

- سيدتي، في حياة المسيحي، ينبغي أن يكون كلامُ الرب في كلِّ غرف المنزل، وفي قلبه كذلك. وأعرف أنك مسيحية لأنَّ بوسعي رؤية ذلك في كلِّ خطٍّ من خطوط وجهك.

وقفتْ قائلة:

- حسنًا أيها الشاب، لا أريد شراءَ إنجيل، وإنني أشمُّ رائحة عشائي يحترق.

لم يتحرَّك، بل أخذ يلوي يديه وينظر إليها، ثمَّ قال برفق: "حسنًا يا سيدتي، سأخبرك بالحقيقة: لا يريد أناسٌ كثر شراءها في هذه الأيام، وأيضًا، أعرف أنني بسيط حقًّا، ولا أجيد تنميقَ الكلام، أقوله وحسب، فلستُ إلا فتًى ريفيًّا"، ثمَّ ألقى نظرةً إلى وجهها الفظ، "وأمثالك لا يعجبهم التعاملُ مع الريفيّين أمثالي".

فصاحت:

- وَيْلك! إنَّ أهل الريف الطيبين خِيارُ الناس. وأيضًا، لكل منّا طريقته في الحياة، يحتاج العالمُ إلى جميع الأصناف ليقوم. هذه سنة الحياة!

- لقد قلتِ حقًّا.

فقالت وقد اضطربت عواطفُها:

- ربّاه، أظن أنَّ العالم ليس فيه ما يكفي من أهل الريف الطيبين! وأظن أنَّ هذه هي مشكلته.

تهلَّل وجهُه إثرَ ذلك وقال:

- لم أعرِّف عن نفسي، أنا مانلي بوينتر من الريف المحيط بويلوهوبي، لستُ من مكانٍ معروف حتى، بل من جوار مكان معروف.

قالت: "انتظر دقيقة، عليَّ النظرُ في شأن عشائي"، وذهبت إلى المطبخ لتجدَ جوي واقفةً بجوار الباب تنصت إليهما.

قالت:

- تخلَّصي من خِيار الناس، ودعينا نأكل.

رمقتْها السيدة هوبويل بنظرةٍ متألمة، وأشعلتِ الموقد تحت الخضراوات بينما تغمغم: "أنا لا يمكنني معاملةُ أيّ كان بوقاحة"، ثمَّ عادت إلى الردهة.

وجدتْه قد فتح الحقيبة وجلسَ واضعًا إنجيلًا على كلٍّ من ركبتيه.

قالت له:

- يُفضَّل أن تدَّخرها، فلستُ أريد واحدًا.

- أقدِّر صراحتك. لم يعدِ المرء يرى أناسًا صريحين بحقٍّ إلا إن خرج إلى الريف.

فقالت: "بالضبط، قوم صادقون حقًّا". وسمعت أنَّة عبرَ شق الباب.

قال: "أحسب أنَّ كثيرًا من الفتيان يأتون ويخبرونك بأنهم يعيلون أنفسهم في أثناء الدراسة الجامعية، لكنني لن أقول لك ذلك. فبطريقة أو بأخرى، لا أريد الذهاب إلى الجامعة، إنما أريد تكريسَ حياتي للخدمة المسيحية"، ثمَّ أردف مخفضًا صوتَه: "انظري، إنني أعاني مشكلةً في القلب، وربما لن أعيش طويلًا، وعندما يعرف المرءُ أنَّ به خطبًا ما وقد لا يعيش طويلًا يا سيدتي..." ثمَّ سكت، فاتحًا فمَه، وأخذ يحدق بها.

كان وجوي يعانيان المشكلةَ نفسها! عرِفتَ أنَّ عينيها تمتلئان دموعًا، لكنها تمالكت نفسَها بسرعة ودمدمت: "ما رأيك أن تتعشى معنا؟ يسعدنا أن نستضيفَك". وندمتْ في لحظة قولها ذلك.

فقال بصوت مُستحٍ:

- أجل يا سيدتي، يسعدني ذلك بالطبع!

نظرتْ إليه جوي مرَّة واحدة عندما عرَّفتها أمُّها عليه، ثمَّ لم تُعِره أي نظرة أخرى طيلةَ الوجبة، رغم أنه وجَّه لها عدةَ تعليقات تظاهرت بعدم سماعها. لم يكن بمقدور السيدة هوبويل فهمُ الوقاحة المتعمدة، رغم أنها تعايشت معها، وشعرت دائمًا أنها مضطرَّة إلى أن تفيضَ ضيافةً لتعوِّض عن قلة تهذيب جوي. حثتْه على التكلم عن نفسه، وفعلَ ذلك. قال إنه الطفلُ السابع بين اثني عشر، وإن شجرةً سحقتْ والده عندما كان في الثامنة. سُحق سحقًا بالغًا، وفي الحقيقة، قُص نصفين تقريبًا، وشَقَّ عمليًّا التعرُّفُ عليه. تدبَّرت أمُّه أمرهم بأفضل ما في وسعها بالعمل الشاق، وحرصت دائمًا على أن يذهب الأطفال إلى مدرسة يوم الأحد، وأن يقرؤوا في الإنجيل كلَّ مساء. كان في التاسعة عشرة، ويبيع الأناجيل منذ أربعة أشْهر. باع حتى هذا الوقت سبعة وسبعين إنجيلًا، ووُعد ببيع اثنين آخرين. أراد أن يصيرَ مبشِّرًا لأنه ظنَّ أنها الطريقة التي تمكن المرء من مساعدة الناس أكثر. قالَ ببساطة: "مَن أضاع حياته من أجلي يجدها*"، وكان صادقًا وصافيًا ومخلصًا إلى درجة أنَّ السيدة هوبويل ما كانت لتبتسم مهما كان الثمن. منع حبات البازلاء في صحنِه من الانزلاق إلى الطاولة بقطعة من الخبز، نظَّف صحنه بها لاحقًا. رأتْ جوي تراقب بطرفِ عينها تعامله مع السكين والشوكة، ورأت أيضًا أنَّ الصبي، كلَّ بضع دقائق، يرمي نظرةً حادَّة تقييمية إلى الفتاة كأنه يحاول جذبَ انتباهها.

بعدَ العشاء، أزالت جوي الصحونَ عن الطاولة واختفت وبقيت السيدة هوبويل تكلِّمه، فحدثها ثانيةً عن طفولته وعن حادثةِ أبيه وعن أمور عدَّة حدثت له، وكل خمس دقائق أو نحو ذلك، تكبتُ تثاؤبًا. ظلَّ جالسًا لساعتين حتى قالت له أخيرًا إنَّ عليها المغادرة لأنَّ عندها موعدًا في

* من إنجيل متى (مت 10:39). (المترجم).

البلدة، فوضَّب أناجيله وشكرها وتجهز للرَّحيل، لكنه توقفَ في المدخل واعتصر يدَها وقال إنه لم يلتقِ في أي من رحلاته سيدةً على هذا القدر من اللطف، وسألها عمّا إن كان بمقدوره المجيء ثانية، فقالت له إنها ستسعدُ دائمًا برؤيته.

كانت جوي واقفةً في الشارع، يظهر أنها تنظر إلى شيء ما في المسافة، عندما نزل الدرجات باتجاهها وقد قوَّسته الحقيبة الثقيلة، ثمَّ توقف حيث تقف وواجهها مباشرة. لم تتمكنِ السيدة هوبويل من سماع ما قاله، لكنها ارتعدت إزاء تفكيرها بما قد تقولُه جوي له. رأت بعدَ دقيقة أنَّ جوي قالت شيئًا ما ثمَّ بدأ الفتى بالكلام ثانية، مومئًا بيدِه الطليقة إيماءً متحمسًا. وبعد قليل، قالت جوي شيئًا آخر ردَّ عليه الفتى مرة أخرى. وما أذهلها هو أنَّها رأت الاثنين يمشيان معًا بعد ذلك، باتجاه البوابة. مشتْ جوي الطريقَ كله إلى البوابة معه ولم تتمكنِ السيدة هوبويل من تصوُّر ما قاله أحدُهما للآخر، وما زالت لم تجرؤ على السؤال.

أصرَّت السيدة فريمان على جذبِ انتباهها، وانتقلت من البراد إلى المدفأة حتى تضطرَّ السيدة هوبويل إلى تدوير رأسها ناحيتها ليظهر عليها أنها تنصت، وقالت: "خرجت غلينيس في موعدٍ مع هارفي هيل ثانية البارحة. كانت عينها مُصابة بتورّم واحمرار".

فقالتِ السيدة هوبويل بذهنٍ شارد:

- هيل؟ أهو الذي يعمل في المرأب؟

- لا، هو الذي يرتاد مدرسةَ العلاج اليدوي. كان في عينها شحاذ قد أصابها منذُ يومين. قالت إنه عندما أوصلَها في الليلة الماضية قال لها: "دعيني أخلِّصك من هذا الشّحاذ"، فقالت له: "كيف؟" فقال: "استلقِ على مقعد السيارة وسأريكِ" ففعلت مثلما قال

وفرقَع لها عنقَها. فرقعه عدةَ مرات حتَّى طلبت منه التوقف، وهذا الصباح، لم يعدْ فيها التورّم. لم يبقَ له أثر.

- لم أسمع بذلك من قبْل.
- طلبَ منها أن تتزوَّجه في حضرة الأسقف، وقالت له إنها لن تتزوَّج في أي "مكتب".
- إنَّ غلينيس فتاة رائعة. غلينيس وكاراماي فتاتان رائعتان.
- قالت كاراماي إنها عندما تزوَّجت من ليمان قال لها إنه شعرَ بقدسية الأمر بلا شك، وقالت إنه قال إنَّه لن يقبل بخمسمائة دولار لقاء أن يتزوَّج على يد قسّ.

فقالتِ الفتاة من عند الموقد: "بكم سيقبَل إذًا؟".

كرَّرت السيدة فريمان: "قال إنه لن يقبَل بخمسمائة دولار".

قالت السيدة هوبويل:

- حسنًا، جميعُنا لديه عمل ينجزه.

وقالتِ السيدة فريمان:

- قال ليمان إنَّه أحسَّ الأمر قدسيًّا أكثر. يريد الطبيب لكاراماي أن تأكل البرقوقَ المجفَّف بدلًا من الأدوية. يقول إن التشنُّجات مصدرها الإرهاق. أتعلمين ما أظنُّ مصدرها؟
- ستتحسَّن في بضعة أسابيع.
- أظنُّه القناة*، وإلا لما مرضت إلى هذه الدرجة.

* ترمي الكاتبةُ إلى أنَّ البويضة الملقحة قد استقرَّت في قناة فالوب، وأن ابنتها ستجهض. (المترجم).

فقشتْ هولغا بيضتيْها في صحن وجلبتْهما إلى الطاولة رفقةَ كوب قهوة ملأته أكثرَ ممّا يحتمل، ثمَّ جلست برويَّة وبدأت تأكل، ناوية أن تبقي السيدة فريمان بطرحِ الأسئلة عليها إذا ما أظهرت لأيّ سبب نزوعًا إلى المغادرة. أحسَّت بنظرةَ أمّها إليها، وعرفت أنَّ أولَ سؤالَ موارب سيكون بخصوص بائع الأناجيل ولم تشأ التكلمَ في الأمر، فسألت: "كيف فرقع عنقها؟".

فاستفاضتِ السيدة فريمان في شرح كيفية فرقعتِه عنقها. قالت إنه يملك سيارة ميركوري من طراز 1955، لكن غلينيس قالت إنَّها لا تفضّل الزواج من رجل إلا إذا كان يملك بليموث من طراز 1936 ومستعدّ للزواج على يد قس، فسألت الفتاة عما سيحدثُ إن كان يملك سيارة بليموث من طراز 1932 أعادتْ السيدة فريمان أنَّ غلينيس قالت بليموث من طراز 1936.

قالتِ السيدة هوبويل إنَّ الفتيات اللاتي يتمتعنَ بحُسن إدراك غلينيس قليلات، وأضافت أنَّ ما يعجبها في تلكنَّ البنات هو حسنُ إدراكهن، وأن ذلك يذكرها بأن زائرًا لطيفًا زارَهما البارحة؛ شابٌّ يبيع الأناجيل. قالت: "ربّاه، لقد موّتني ضجرًا لكنَّه كان صادقًا وصافيًا حتى إنَّني عجزت عن معاملته بوقاحة. كان من أهل الرّيف الطيبين ببساطة، تفهمين قصدي، من خيار الناس".

قالتِ السيدة فريمان: "لقد رأيته يصعدُ الدرج، ثمَّ لاحقًا رأيته يغادر"، وشعرت هولغا بالتغيُّر الطفيف في صوتها، بالتلميح الطفيف، بأنه لم يغادر وحده، صحيح؟ ظلَّ وجهها خاليًا من التعابير، لكنَّ الاحمرار ارتفع إلى عنقها وبدا أنها تبتلعُه مع ملعقةِ البيض التالية، أمّا السيدة فريمان فكانت تنظر إليها كأنما تشتركان في سِرّ.

قالتِ السيدة هوبويل: "حسنًا، يحتاج العالمُ إلى جميع صنوف الناس ليقوم، أمر جيد جدًّا أننا لسنا متشابهين".

وقالتِ السيدة فريمان: "بعضُ الناس متشابه أكثر من بعضهم".

نهضتْ هولغا وراحت تخبط، بضعف الضوضاء اللازمة تقريبًا، إلى غرفتها وأقفلتِ الباب. كانت على موعدٍ مع بائع الأناجيل في الساعة العاشرة عند البوابة، وقد قضت نصفَ الليل تفكر في ذلك. بدأتِ التفكير بالأمر على أنه مزْحة كبيرة، ثمَّ صارت ترى تضميناتٍ عميقةَ فيه. استلقتْ في سريرها تتصور بينهما حواراتٍ مجنونةً ظاهريًّا لكنها تصل إلى أعماق لا يمكن لأيّ بائع أناجيل أن يعي وجودَها، ومحادثتهما البارحة كانت من هذا النوع.

كان قد توقَّف أمامها وظلَّ واقفًا، ووجهُه بارزُ العظام ومتعرق ومتهلل، يتوسطه أنفٌ مدبَّب صغير، ونظرته مختلفة عما كانت عليه عند طاولة العشاء. كان يحدق بها بفضولٍ صريح، وافتتان، مثل طفلٍ يشاهد حيوانًا عجيبًا جديدًا في حديقة الحيوان، وكان يتنفَّس كأنما ركضَ مسافة ليبلغها. بدت نظرته مألوفة لها بطريقة ما، لكنها عجزت عن تذكر أين رُمقت بها من قبل. لدقيقة تقريبًا، لم يقل شيئًا، ثمَّ همسَ بما يشبه الشَّهيق: "هل سبق أن أكلتِ دجاجة عمرُها يومان؟".

نظرتِ الفتاة إليه نظرةً جامدة، ولا فرق لو أنه طرحَ هذا السؤال للنظر في لقاء جمعيَّة فلسفية، ثمَّ قالت من فوْرها كأنها فكرت بالأمر من جميع زواياه: "أجل".

قال بلهجةٍ منتصرة: "لا بدَّ أنها كانت في غاية الصغر" وأخذ يهتزُّ كله بقهقهة متوتِّرة، وقد احمرَّ وجهُه احمرارًا باديًا، ثمَّ ركن أخيرًا إلى نظرة الإعجاب التام، بينما ظلتْ تعابيرُ الفتاة نفسها تمامًا.

سألها بهدوء: "كم عمرك؟".

انتظرت بعضَ الوقت قبل أن تجيب، ثمَّ قالت بصوت رتيب: "سبعة عشَر".

ارتسمتِ ابتسامته تباعًا مثل موجاتٍ تتكسر على سطح بحيرة صغيرة، وقال: "أرى أنَّ لك ساقًا خشبية. أظن أنك شجاعةٌ بحق. وأظن أنك عذبةٌ بحق".

وقفتِ الفتاة مشدوهةً ومتماسكة وصامتة.

قال:

- امْشي إلى البوابة معي. إنك مخلوقٌ صغير شجاع لطيف، وقد أعجبتُ بك مُذ رأيتك تدخلين من الباب.

بدأتْ هولغا تتحرك قُدُمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألها خافضًا نظرَه بابتسامة إلى قمة رأسها:

- ما اسمك؟

- هولغا.

- هولغا، (قال مغمغمًا) هولغا. هولغا. لم أسمع بأيِّ شخص يحمل اسم هولغا من قبل. إنك خجولة، صحيح يا هولغا؟

أومأتْ برأسها، بينما تراقب يدَه الحمراء الضخمة على مقبض الحقيبة العملاقة.

- تعجبني البناتُ اللاتي تلبسن نظارات، وأظن أنهنَّ تعجبنني كثيرًا. لستُ مثلَ أولئك الناس الذين لا تمرُّ فكرة جديَّة برؤوسهم قط. وذلك لأنني عرضةٌ للموت.

قالت فجأة رافعةً نظرها إليه: "وأنا عُرضة للموت أيضًا". كانت عيناه صغيرتين جدًّا وبنيتين، وتتلألآن تلألئًا محمومًا.

قال: "اسمعي، ألا تعتقدين بأنَّ بعض الناس مقدرٌ لهم أن يلتقوا بسبب ما يتَشابهون فيه؟ كأنْ يكون كلاهما يفكر بأفكار جديَّة وما إلى ذلك؟" ثمَّ نقل الحقيبة إلى يدِه الأخرى حتى تصير يدُه الأقرب إليها حرَّة، فقبض على مرفقها وهزَّه قليلًا قائلًا: "لا أعمل في أيام السبت. أحبُّ أن أتمشى في الغابة لأرى ما تلبسه أمُّنا الطبيعة فوقَ التلال ووراءها، وأحبُّ النزهات وأشياء من هذا القبيل. أيمكننا الذهابُ في نزهةٍ غدًا؟ قولي أجل يا هولغا"، ثمَّ نظرَ إليها نظرة احتضار كأنه شعرَ بأحشائه توشكُ أن تسقط منه، حتى إنَّه بدا يميل قليلًا ناحيتها.

في خلال الليل، تخيَّلت أنها أغرَته. تخيلت أنهما مشيَا في الجوار حتى وصلا إلى المخزن وراء الحقلين الخلفيّين، وهناك، حدث أن أغرتْه بسهولة، ثم، بالطبع، صارَ عليها التصدي لندمِه. العبقري الحقيقي يمكنه إيصالُ فكرة ما حتى إلى عقل أدْنى درجة. تصوَّرت أنها أخذت ندمَه بيدها وحوَّلته إلى فهم أعمق للحياة. أزالت خجلَه كله، وحوَّلته إلى شيء نافع.

انطلقتْ إلى البوابة في تمام الساعة العاشرة، منسلّةً من دون أن تجذب انتباهَ السيدة هوبويل. لم تأخذ شيئًا تأكله، إذ نسيت أنَّ الطعام عادةً ما يؤخذ إلى النزهات، وارتدَت سروالًا فضفاضًا وقميصًا أبيضَ متسخًا، ثمَّ راودتها فكرة متأخرةٌ أن تضع بعضًا من كريم فيبيكس* على ياقته نظرًا لأنها لا تملك أيَّ عطر، وعندما وصلت إلى البوابة، لم تجد أحدًا.

نظرتْ أعلى الطريق السريع الخاوي وأسفله، وانتابَها شعورٌ حانق أنها خُدعت، وأنه لم يقصِد إلا حملَها على المشي إلى البوابة وراء فكرة وجوده. ثمَّ فجأة، وقف، بطولِه الفارع، من وراء شجيرة على عند الجرف المقابل، ورفع مبتسمًا قبعتَه الجديدة عريضة الحافة. لم يكن يعتمرُها البارحة،

* مستحضَر طبي. (المترجم).

وتساءلت عما إن كان قد جلبَها خصيصًا لهذه المناسبة. كانت بلون الخبز المحمص، تلتف حولها شريطة حمراءُ وبيضاء، وأكبرُ من مقاس رأسه بقليل. مشى من وراء الشجيرة، وما يزال حاملًا الحقيبةَ السوداء، وكان لابسًا نفسَ البدلة والجوارب الصفراء المرتخيةَ فوق حذائه جرّاء المشي. قطع الطريق السريع وقال: "عرفتُ أنك ستأتين".

تساءلتِ الفتاة ساخرة عن كيفية معرفته ذلك، ثمَّ أشارت إلى الحقيبة وسألته: "لمَ جلبتَ الأناجيل؟".

أمسك بمرفقها، خافضًا نظرَه إليها بابتسامة بدا عاجزًا عن كبتِها، وقال: "لا يعرفُ المرء متى سيحتاج إلى كلام الرب يا هولغا". مرَّت لحظة شكّت فيها بأن هذا يحدثُ بالفعل، ثمَّ بدءا بتسلُّق الجرف. هبطا بعد ذلك إلى المرعى باتجاه الغابة بينما يمشي الفتى بخفَّة بجوارها، متوثّبًا على أصابعه. لم تبدُ الحقيبة ثقيلة اليوم، حتى إنَّه كان يؤرجحُها. عبرَا نصف المرعى من دون أن يقولا شيئًا، ثمَّ سألها بهدوء، واضعًا يدَه برويَّة على أسفل ظهرها: "في أي مَوْضع تتَّصل ساقك الخشبية بك؟".

احمرَّ وجهها احمرارًا بشعًا، وحدَّقت إليه بعينها، وللحظة، بدا الفتى مرتبكًا، ثمَّ قال: "لم أقصدِ الإساءة. لم أعنِ إلا أنَّك شجاعة جدًّا، وأحسب أنَّ الرب يعتني بك".

قالت بينما تنظرُ إلى الأمام وتمشي بسرعة: "لا. لا أؤمن بالرب حتى".

توقَّف عندَ سماعه ذلك وصفّر، ثمَّ صاح مندهشًا: "لا!" كأنَّ ذهوله يمنعه من قول أيِّ شيء آخر.

تابعتْ مشيَها، وفي غضون ثانية عاد يتوثّب بجوارها ويهوّي وجهه بقبعته، ثمَّ علّق بينما يراقبها بطرفِ عينه: "هذا شديدُ النُّدرة في فتاة". عندما بلغا حافة الغابة، وضع يدَه على ظهرها ثانية وشدَّها إليه وقبّلها بقوَّة من دون أي كلام.

قبَّلته قبلةً حملَت ضغطًا أكثر مما حملت مشاعر، وأرسلت في البنت دفقةَ أدرينالين إضافية من ذلك النوع الذي يمكِّن المرء من حمل صندوق ثقيل إلى خارج منزل مشتعل، لكن في حالتها، اتَّجهت الطاقة إلى دماغها فورًا. وحتى قبلَ أنْ يفلتها، كان ذهنُها -الصافي والمنفصل والساخر بأي حال- يراقبه من مسافة بعيدة، بتسلٍّ.. لكن بشفقةٍ كذلك. لم تُقبَّل قبلًا في حياتها، وسرَّها اكتشاف أنها تجربةٌ عادية وليست إلّا مسألة سيطرةٍ عقلية، فبعضُ الناس قد يستمتع بمياه الصَّرف إذا ما قيلَ لهم إنها فودكا. عندما أبعدَها الصبي عنه برقَّة، ووجهُه مُرتقِبٌ لكنه قلِق، استدارتْ وتابعتِ المشي من غير أن تقول شيئًا، كأنَّ أمرًا كهذا عاديٌّ جدًّا في حياتها.

أدركَها وهو يلهث محاولًا مساعدتَها إذ رأى جذرًا قد تتعثر به، فأمسك النصالَ الطويلة المُتمايلة لنبات مُعترش شوكي وظلَّ يشدُّها حتى عبرتها، ثمَّ تقدمَت الطريقَ وجاء من ورائها بأنفاسٍ متعبة. وصلا بعدَ ذلك إلى سفح تلة أضاءته الشمس، وانحدرَا برفقٍ إلى سفح أصغرَ بعض الشيء. وفي البعيد، أمكنهما رؤيةُ سقف الحظيرة القديمة الصَّدئ حيث يُخزن التبن الزائد.

كانتْ على أعشاب ورديَّة صغيرة متناثرة. توقف وسألها فجأة: "لم تُخلَّصي إذًا، صحيح؟".

ابتسمتِ الفتاة، وكانت أول ابتسامة تريَه إيّاها على الإطلاق، ثمَّ قالت: "في حساباتي، أنا مُخلَّصةٌ وأنت هالك، لكنني أخبرتكُ بأنني لا أؤمن بالرب".

بدَا أنْ لا شيء قادر على محْو نظرة الإعجاب عن وجه الصبي، وصار يتفرَّس فيها كأنَّ الحيوان العجيب في الحديقة مدَّ كفَّه من بين القضبان ووكزه وكزةً مُحبَّة. ظنَّت أن مظهره يوحي بأنه يريد تقبيلَها ثانية، فمشَت قبل أن يتسنّى له ذلك.

غمغم: "ألا يوجد مكانٌ حيث يمكننا الجلوس لبعض الوقت؟" ورقَّ صوته في آخر الجملة.

قالت: "في الحظيرة".

اتَّجها إليها بسرعة كأنها قد تنسلَّ مبتعدةً مثل قطار. كانت حظيرة ضخمة من طابقيْن، جوفها بارد وداكن. أشار الفتى إلى السلّم الذي يؤدي إلى العلية وقال: "خسارةٌ أننا لا يمكننا الصعود إلى أعلى".

فسألته: "لم لا يمكننا؟".

أجابها باحترام: "بسبب ساقك".

رمقتْه الفتاة بنظرةٍ مزدرية ثمَّ وضعت كلتا يديها على السلم وراح تتسلَّقه بينما ظلَّ واقفًا تحتها، وتظهر على وجهه المَهابة. سحبت نفسَها باحتراف من خلال فتحة العُلية، ثمَّ خفضت نظرَها إليه وقالت: "حسنًا، تحرك إن كنتَ تنوي الصعود"، وبدأ بتسلق السلم، جالبًا، الحقيبة معه.

علَّقت قائلة: "لن نحتاج إلى الإنجيل".

فقال لاهثًا: "مَن يعلم؟". بعد أن وصل إلى العلية، ظلَّ بضع ثوان يلتقط أنفاسه. كانت جالسة في كوْمة من القش، وقد نزل على وجهها غطاءٌ عريض من نور الشمس تملؤه نثراتُ الغبار. تراجعت مستندةً إلى حُزمة، وأخذت تراقب المدخل الأماميَّ للحظيرة حيث رُمي التبن من عربة إلى العلية، وفي الخلفية، اتكأ سفحا التلة المرقشيْن بالوردي إلى حافة الغابة المظلمة، تحت السماء الرائقة الزرقاء الباهتة. استلقى الفتى بجوارها ووضعَ ذراعًا تحتها والأخرى فوقها وبدأ يقبِّل وجهَها، مصدرًا أصواتًا قصيرةً كالأسماك، ولم يكُن قد نزع قبعته، لكنها دُفعت إلى الخلف بالحدِّ الكافي لئلا تتطفَّل. عندما اعترضت نظارتها طريقَه نزعَها عن عينيها ودسَّها في جيبه.

في البداية، لم تردّ الفتاةُ أيًّا من قبلاته، لكنها سرعان ما بدأت تقبّله، وبعد أن طبعت عدةً على خدّه، بحثت عن شفتيه وظلت عندَهما، تقبّله مرارًا وتكرارًا كأنها تحاول تفريغَه من أنفاسه، وكانت أنفاسُه صافية وعذبة كأنفاس طفل، وقبلاته لزجةً كقُبلات طفل. غمغمَ شيئًا ما عن حبّها وعن أنه عرفَ منذ رآها أنه أحبها، لكنَّ الغمغمة كانت كشكوى طفلٍ نعْسان تهدهده أمُّه لينام. وعلى امتداد ذلك، لم يتوقفْ عقلها أو يفقدِ السيطرةَ لصالح مشاعرها لحظة. همسَ أخيرًا، مبتعدًا بجسمِه فجأة: "لم تقولي إنك تحبينني ولا مرَّة. يجب أن تقوليها".

أشاحت بنظرِها عنه إلى السماء الجوفاء ثمَّ إلى الحافة المظلمة ثمَّ أبعد من ذلك إلى ما بدتْ بحيرتين خضراوين مائجتين. لم تدرك أنه نزع نظارتها، لكن هذا المشهدَ لا يمكن أن يبدو استثنائيًّا في نظرها، ذلك أنها قلَّما أولَت اهتمامًا وثيقًا لما يحيط بها.

كرَّر قوله: "عليكِ قولها، عليك قول إنك تحبينني".

لطالما كانت حذرةً في طريقة تعبيرها عن نفسها، لذا شرعت تقول: "بمعنى ما، إن كنتَ تستخدم الكلمةَ جزافًا، فربما تقولها، لكنها ليست كلمة أستخدمُها، ذلك أنَّني لا أعيش أوهامًا. إنني واحدةٌ من أولئك الذين يدركون حقيقة العدم".

عبسَ الصَّبي وقال: "عليكِ قولها، لقد قُلتُها وعليكِ قولها".

نظرتِ الفتاة إليه بعطف تقريبًا، ودمدمت: "أيها الطفلُ المسكين، من الأفضل ألا تفهَم"، ثمَّ شدتْه من عنقه وقالت: "كلُّنا هالك، لكن بعضنا نزعَ العصابة عن عينيه ليرى أنْ لا شيء جدير بالرؤية. إنه خلاص من نوع ما".

حدَّقت عينا الصبي الذّاهلتين بلا اهتمام من بين أطراف شَعرها، وقال بما يكاد يكون انتحابًا: "حسنًا، لكن أتحبينني أم لا؟".

قالت: "أجل"، ثمَّ أردفت: "بمعنى ما. لكن عليَّ أن أقول لك شيئًا. لا ينبغي أن يكونَ بيننا كذب"، ورفعَت رأسَها فنظرت في عينيه: "عمري ثلاثون عامًا، وأحوزُ عددًا من الشهادات".

بدَا وجهُ الصبي منزعجًا لكنه مُعاند، وقال: "لا يهمني. لا يهمني أي شيء فعلتِه ألبتَّة. لا أريد إلا معرفةَ ما إن كنتِ تحبينني أم لا" ثمَّ أمسك ذراعها وراح يزرع قبلاتٍ جامحة في وجهِها حتى قالت: "أجل، أجل".

فقال بعدَ أن ترك يدها: "حسنًا، إذن أثبتي ذلك".

ابتسمَت، بينما تنظر بعينين حالمتين إلى المشهد المخادع. لقد أغرَته من دون أن تقرِّر المحاولة حتى. سألته: "كيف؟" شاعرةً أن عليها تأخيرَه بعض الشيء.

اقتربَ منها مقربًا شفتيه إلى أذنها، وهمس: "أرني أين تتَّصل ساقك الخشبية بك".

أطلقتِ الفتاة صيحة قصيرةً حادة، وابيضَّ وجهها من فوره. لم تكن بذاءة الاقتراح ما صدمَها، فقد تعرَّضت في طفولتها لمشاعر الاستحياء بين الحين والآخر، لكن التعليم اجتثَّ آخرَ آثارها مثلما يستأصل جراحٌ بارع سرطانًا، ولم يعُد شعورها بها حيالَ ما يطلبه يزيد على إيمانها بالإنجيل. غير أنها حساسةٌ بخصوص ساقها الاصطناعية حساسيةَ طاووسٍ بخصوص ذيله، ولم يلمسها أحدٌ إلاها قط. كانت تحرصُ عليها كما يحرص غيرُها على روحه، في سرِّها، ومن دون أن تنظر إليها حتى. قالت: "لا".

تمتمَ بينما يستقيم في جلستِه: "لقد عرفت ذلك. إنك تتلاعبينَ بي وتحسبينني ساذجًا".

فصرخَت: "لا.. لا، إنها تتَّصل بي عند الركبة. عند الركبة وحسب. لمَ تُريد رؤيتها؟".

رمقَها الفتى بنظرةٍ ثاقبة مديدة وقال: "لأنها ما يجعلك مختلفة. لا تشبهين أحدًا".

جلست تحدّق إليه، ولم يظهر في وجهها أو عينيها المدورتين الزرقاوين الجليديّتين شيء يشير إلى أنَّ كلامه حرَّك مشاعرها، لكنها أحسّت كأن قلبها قد توقفَ وترك وظيفة ضخّ الدم لدماغها، وقررت أنها -وللمرة الأولى في حياتها- تقفُ وجهًا لوجه أمامَ البراءة الحقيقية. لقد لمس هذا الصبي -بغريزته القادمة من وراء الحكمة- حقيقتها، وعندما قالت بعدَ دقيقة، بصوت عالٍ أجش: "حسنًا"، بدا أنَّها استسلمت له بالكامل. كان الأمرُ كأنها فقدت حياتَها ووجدتها من جديد بأعجوبةٍ في حياته.

أخذ يكفُّ ساقَ بنطالها ببالغ الرِّقة. كان الطرف الاصطناعي، في جورب أبيض وحذاء بني مسطح، مغلفًا بمادةٍ ثقيلة كالخَيش وينتهي بمفصل قبيح حيث يتصل بالجَدَعَة. عندما كشَّفها، صار وجهُه وصوته مُبجّلين بالكامل، وقال: "أرني الآن كيف تنزعينها وتلبسينها".

نزعتْها كرمَى له، ثمَّ لبستْها ثانية، ثمَّ نزعها بنفسه، متناولًا إياها برقةٍ كأنها ساقٌ حقيقية، ثمَّ قال بوجْه طفلٍ مغتبط: "انظري! صارَ بإمكاني فعل ذلك بنفسي".

قالت: "أعدْها إلى مكانها". كانت تفكر بأنها ستفرُّ معه، وفي كلِّ ليلة، ينزع ساقَها ويعيدها في كلِّ صباح. قالت: "أعدها إلى مكانها".

غمغم: "ليس الآن"، ثمَّ أوقف الساقَ بعيدًا عن متناولها، "اتركيها منزوعةً لبعضِ الوقت، لديك إيايَ بدلًا منها".

أطلقتْ صيحة ذعرٍ خفيفة، لكنه دفعها أرضًا وعادَ إلى تقبيلها. شعرت، بدون ساقها، أنها خاضعةٌ له تمامًا، وبدَا أنَّ دماغها قد توقف عن التفكير مرة واحدة وهو موشكٌ على أداء وظيفة أخرى لا يبرَع فيها. تناوبت التعابير المختلفة على وجهِها، وبين الحين والآخر، كان الصبي يلقي نظرةً بعينين أشبه بشوكتين فولاذيَّتين خلفه حيث تقف الساق، وأخيرًا، دفعتْه عنها وقالت: "أعدها مكانها الآن".

قال: "انتظري"، ومالَ إلى الجانب الآخر فجذب الحقيبة إليه ثمَّ فتحها. كانت بطانتُها زرقاء باهتة مرقَّطة وليس فيها إلا إنجيلان. أخرج أحدهما وفتح غلافه، وإذا به أجوف يحوي قنينة جيب ملؤها الويسكي، ومجموعة من أوراق اللعب، وصندوقًا أزرق صغيرًا عليه كتابة. وضعَ هذه الأغراض أمامها واحدًا واحدًا بتوزيع متوازٍ كامرئ يقدِّم أضاحٍ في ضريح ربِّه، ثمَّ وضع الصندوق الأزرق في يدِها. قرأت مكتوبًا عليه: "لا ينبغي استخدامُ هذا المنتَج إلا للوقاية من المرض"، وأسقطَتْه. كان الصبي يبرُم الغطاء، ثمَّ توقف وأشار مبتسمًا إلى مجموعة الأوراق، التي لم تكُن شَدة عادية، بل طُبعت صورة خليعة على ظهر كلِّ ورقة. قال: "اكرعي كرعةً"، وقدَّم لها القنينة أولًا حاملًا إياها أمامها، لكنها -كمَن فتنه سحرٌ ما- لم تتحرك.

عندما تكلمت، خرج صوتُها بنغمةٍ تكاد تكون متوسِّلة إذ غمغمت: "ألستَ من أهل الريف الطيبين؟".

أمالَ الفتى رأسه، ونظر إليها كأنه قد بدأ يدرك لتوّه أنها ربما تحاول إهانته، فقال: "بلى"، لاويًا شفتَه بعض الشيء، "لكن ذلك لم يردعْني قط. إنني طيب بقدر ما تكونين في أيِّ من أيام الأسبوع".

قالت: "أعطني ساقي".

دفعَ الساق أكثر وقال بتودُّد: "هيّا بربك، فلنبدأ بالاستمتاع بوقتنا. لم يتسنّ لواحدنا معرفة الآخر كما يجب بعد".

صرخت: "أعطني ساقي" وحاولتِ الاندفاع ناحيتها، لكنه دفعها أرضًا بسهولة.

سألَها عابسًا بينما يعيد برمَ الغطاء ويرجعها بسرعة إلى الإنجيل: "ماذا أصابَك فجأة؟ منذُ بعض الوقت فقط كنتِ لا تؤمنين بشيء. ظننتكِ فتاةً مميزة".

اقتربَ وجهها من البنفسجيّ، وهسَّت قائلة: "أنت مسيحي! أنت مسيحي جيد! لا فرقَ بينك وبينهم جميعًا؛ تقولون شيئًا وتفعلونَ غيره. أنت مسيحي مثالي، أنت...".

تصلَّب فمُ الصبي تصلبًا غاضبًا، ثمَّ قال بنبرةٍ متعجرفة ساخطة: "آمل أنك لا تعتقدينَ أنني أؤمن بذلك الهراء! لعلني أبيعُ الأناجيل، لكنني عاقل ولستُ ابنَ البارحة وأعرف ما أريد".

زعقت: "أعطني ساقي"، فوثب عاليًا بسرعة جعلتها بالكاد تراه يجرف ورق اللعب والصندوق الأزرق معيدًا إيّاهما إلى الإنجيل ويرمي الإنجيل في الحقيبة. رأتْه يمسك الساق ثمَّ رأتها للحظةٍ تستلقي مائلة ومهجورة في الحقيبة وثمة إنجيل إلى كلٍّ مِن جانبيها المتعاكسين. ثمَّ صفق غطاءَ الحقيبة وانتزعها فرماها من الفتحة ثمَّ خرج منها هو.

عندما مرَّ كلُّه إلا رأسه، استدار ورمقَها بنظرة لم يعُد فيها أي إعجاب، وقال: "لقد حصلت على العديدِ من الأشياء المثيرة للاهتمام. مرة حصلت على عين زجاجية لامرأة بهذه الطريقة، ولا تحسبي أنك ستمسكين بي، لأن بوينتر ليس اسْمي الحقيقي. أستخدم اسمًا مختلفًا في كلِّ منزل أزورُه ولا أطيل المكوث في أيِّ مكان"، ثمَّ قال: "ولأعلمنك بشيء آخر يا

هولغا" مستخدمًا الاسمَ كأنه لم يفكر كثيرًا بالأمر، "أنت لستِ ذكية، فأنا لا أؤمن بشيء منذ وُلدت" ثمَّ اختفت القبعةُ خُبزيَّة اللون تحت الفتحة، وتُركت الفتاةُ جالسةً على القش في أشعة الشمس المغبّرة. عندما أدارت وجهَها المُزبد ناحية الفتحة، رأت قوامَه الأزرق يتسلق بنجاحٍ البحيرة الخضراء المرقطة.

رأتْه السيدة هوبويل والسيدة فريمان، اللتان كانتا في المرعى الخلفي ينبشان البَصل، يخرج بعدَ بعض الوقت من الغابة ويتَّجه عبر الحقل ناحية الطريق السريع. قالت السيدة هوبويل خازرةً عينيها: "عجبي، يبدو أنَّ ذلك هو الشاب البليدُ اللطيف الذي حاولَ بيعي إنجيلًا البارحة. لا بدَّ أنه كان يبيعها للزنوج هناك. كم كان بسيطًا. لكنني أحسب أنَّ العالم سيكون مكانًا أفضل لو كنا جميعًا بهذه البساطة".

اندفعت نظرةُ السيدة فريمان قُدُمًا ومسَّته قبل أن يختفي أسفلَ التلة بقليل. ثمَّ عادت بانتباهها لفسيلةِ البَصل المبتسمة ابتسامة شريرة التي كانت تنتزعها من الأرض، وقالت: "بعضنا عاجزٌ عن أن يكون بهذه البساطة. عن نفسي، لا يمكنني أبدًا".

## اشتباكٌ متأخِّر مع العدُو

كان الجنرال ساش يبلغ من العُمر مائة وأربع سنوات، ويعيش مع حفيدته سالي بوكر ساش، التي تبلغ اثنتيْن وستين، وتصلي راكعةً كلَّ ليلة ليعيش حتى تتخرَّج في الكلية. لم يهتمّ الجنرال بتخرجها أيَّ اهتمام، لكنه لم يشك قط في أنه سيعيش لحينِه، فالعيش صارَ عادةً عنده حتى لم يعُد يتصوَّر حالًا آخر. على أن حفل التخرج لا يوافق فكرتَه عن قضاء وقت جيد، وإن كان، كما أخبرَته، يُنتظر منه أن يجلسَ على المنصَّة لابسًا زيَّه الرسمي. قالت إن طابورًا طويلًا من الأساتذة والطلاب لابسي الأرواب سيحضرُ الحفل، لكن لن يكون فيه ما يضاهي زيَّه، وهو يعرف ذلك من دون أن تُخبره. أمّا عن الطابور اللعين، فبإمكانه الزحف إلى الجحيم روْحةً ورجْعةً ولن يهزَّ له جفن. كان يحبُّ المواكب ذات المنصات السيَّارة المليئة بمَلكات جَمال أمريكا ودايتونا بيتش وملكات جمال القطن، أما الطوابيرُ فلا تنفعه في شيء، وطابورٌ مليء بالمدرِّسين في رأيه قاتل كنهرِ ستيكس تقريبًا ، إلا أنَّه مستعدٌّ للجلوس على المنصة بزيِّه الرسمي حتى يرونه.

لم تكُن سالي بوكر واثقة بقدره مِن أنه سيعيش حتى تخرُّجها. لم يطرأ عليه أي تغيرٍ ملْموس في السنوات الخمْس الأخيرة، لكنها أحسَّت أنها قد تُحرم ظُلمًا من نصْرها، فقد حُرمَت منه مراتٍ كثيرة قبلًا. ذهبتْ إلى المدرسة الصيفية كلَّ عام في الأعوام العشْرين الأخيرةِ لأنَّها عندما بدأتْ بالتدريس، لم يكن نظام الدرجات موجودًا. قالت إنَّ كلَّ شيء كان

طبيعيًّا في تلك الأيام، لكن منذ بلغت السادسة عشرة لم يعد أيُّ شيء طبيعيًّا، وفي الأصياف العشرين الماضية، وقتما كان ينبغي أن ترتاح، اضطرَّت إلى حمل حقيبة في القيظ الحارق إلى كلية مدرّسي الولاية، ورغم أنها تُدرِّس بعد أن ترجعَ في الخريف بنفس الطريقة التي عُلّمت ألا تدرِّس بها، رأتْ ذلك انتقامًا مُتلطفًا لم يُرضِ حسَّها بالعدالة. أرادت أن يحضر الجنرال التخرجَ لأنها ترغب بإظهار ما تمثله، أو مثلما قالت: "مَن يقف وراءها" وليس يقف وراءهم. وضمير "هُم" هذا لا يعود على أحدٍ بعينه، بل على جميع حديثي النِّعمة الذين قلبوا العالمَ رأسًا على عقب، وعكّروا سبلَ العيش الكريم.

كانت تنوي أن تقفَ على تلك المنصة في أغسطس والجنرال جالس في كرسيه المتحرك وراءها، ثمَّ ترفع رأسَها عاليًا جدًّا كأنها تقول: "انظرو إليه! انظروا إليه! إنه لحْمي ودمي يا حديثي النعمة. عجوزٌ مستقيم مهيب يمثل التقاليد القديمة.. الكرامة، الشرف، الشجاعة، انظروا إليه". وذاتَ ليلة صاحت في نومها: "انظروا إليه.. انظروا إليه" ثمَّ أدارت رأسَها ورأته جالسًا في كرسيه من خلفها بوجْه يعلوه تعبيرٌ فظيع وقد نزع جميعَ ملابسه باستثناء قبعة الجنرال، ثمَّ أفاقت ولم تجرؤ على النوم ثانيةً تلك الليلة.

أمّا عن نفسه، فما كان الجنرال ليوافق على حضور الحفل لو لم تعدْه بمكان على المنصَّة، ذلك أنه يحبُّ الجلوس على المنصات، ويرى أنه ما يزال رجلًا في غاية الوسامة. كان يبلغ -عندما يتمكّن من الوقوف- خمسة أقدام وأربع بوصات من الغطْرسة الخالصة، وله شعرٌ أبيض يصل إلى مستوى كتفيه، ولا يلبس طقمَ أسنانه لأنه يرى مظهرَه الجانبي أشدَّ جاذبية بدونه. وعندما يرتدي زيَّه العسكري الرَّسمي الكامل يعرف تمامَ المعرفة أنْ لا شيء يضاهيه في أي مكان.

لم يكن هذا الزيُّ الزيَّ الذي لبسَه في الحرب بين الولايات، وفي واقع الأمر، لم يكنْ جنرالًا في تلك الحرب. كان على الأرجح جنديًّ مشاة، إذ إنه لا يتذكر ما كان. وفي الحقيقة، لا يتذكر الحربَ على الإطلاق. كان الأمرُ مثل قدميه، اللتيْن باتتا تتدلَّيان ذابلتين في أسفله، معْدومتي الإحساس ومغطّاتين ببطانية زرقاء رمادية حاكتها سالي بوكر عندما كانتْ بنتًا صغيرة. لم يتذكر الحربَ الأمريكية الإسبانية التي فقدَ فيها ابنًا، ولم يتذكر ابنَه حتى. لم يعنِه التاريخُ لأنه لا يتوقع أنْ يلتقيه ثانية، ففي رأيه، التاريخُ مرتبط بالطوابير وحياةِ المواكب، وقد أحبَّ المواكب. دائمًا ما كان الناسُ يسألونه عما إن كان يتذكرُ هذا الأمر أو ذاك، مُهيلين عليه طابورًا أسودَ مُغِمًّا من الأسئلة عن الماضي، لكن ليس في الماضي إلّا حدثٌ واحد يحمل في نظره أهميةً تجعله مستحقًّا أن يتكلم عنه، وكان ذلك منذ اثنتي عشرة سنة، عندما تلقَّى زيَّ الجنرال وحضر العرضَ الأول.

قال للزوّار وهو جالس في شرفته الأمامية:

- كنت في ذلك العرض الأوَّل الذي أقاموه في أتلانتا، محاطًا بالبنات الجميلات. لم يكُن فيه شيء مَحلي. لم يكُن فيه شيء مَحلي. أنصتوا: كانت مناسبةً قومية وقد أشركوني فيها، وأجلسوني على المنصة. لم يكُن فيه شيء عادي. كان على الجميع دفعُ عشْرة دولارات ولبس بَدْلة سهرة ليدخلوه، أمّا أنا فكنتُ لابسًا هذا الزي، الذي أهدتني إيّاه بنتٌ جميلة في غرفة فندقية تلك الظهيرة.

قالتْ لهم سالي بوكر بينما تغمزهم:

- كان ذلك في جناحٍ في الفندق يا جدّي، وكنتُ حاضرة أيضًا. لم تختلِ بأي شابَّة في غرفة.

فقال الجنرالُ وعلى وجهه نظرةٌ حاسمة: "لو حدث لعرفتُ ما ينبغي فعله". فضحكَ الزوار ضحكًا صاخبًا، ثمَّ أردف: "كانت بنتًا هوليودية، من هوليود بكاليفورنيا، ولم تظهرْ في الصورة. لديهم بناتٌ جميلات كثيرات هناك حتى إنَّهم لا يحتاجونَ إلى طلب المزيد، ولا يستخدمونهنَّ إلا لتقديم الهدايا للناس والتقاط صورهم. وقد التقطوا لي صورةً معها. لا، كانتا اثنتين؛ واحدة إلى كلِّ مَن جانبي وأنا في المنتصف وذراعيَّ حول خصريْهما اللَّذين لا يزيد محيطاهما على نصف الدولار".

قاطعتْه سالي بوكر ثانية:

- لقد أعطاكَ السيد غوفيسكي الزيَّ يا جدي، وأعطاني دبوس زهور في غاية الرَّوعة. أتمنى حقًّا لو أمكنكم رؤيته. كان مصنوعًا من أوراق الدلبوث التي انتُزعت ثمَّ طُليت بالذهب، وأُعيد تشكيلها لتبدو مثل زهرة. كان رائعًا. يا ليتَ بمقدوركم رؤيته، كان...

فزمجرَ الجنرال قائلًا:

- كان بحجم رأسها. كنت أقول لكم إنَّهم أعطوني هذا الزي وهذا السيف وقالوا: "والآن أيها الجنرال، لا نريدك أن تشنَّ الحرب علينا، لا نريدك إلا أنْ تسير إلى المنصة عندما يُعرَّف عنك الليلة وتجيب على بضعة أسئلة. أتظن أنك قادرٌ على ذلك؟" فقلت: "أأظن أنني قادر على ذلك! أنْصتوا إليَّ، إنني أقدرُ على الأشياء من قبل أن تُولدوا" وراحوا يتذمَّرون.

قالتْ سالي بوكر: "كان نجمَ العرض"، لكنها كانت تكره تذكُر العرض الأول بسبب ما حدث لقدميْها فيه؛ كانت قد اشترت فستانًا جديدًا لأجل المناسبة -فستان سهرة طويلًا من الكريب الأسود له إبْزيم من الماس الزائف وفوقه بوليرو- وخُفًّا فضيًّا لتنتعلَه مع الفستان لأنها كان

يُفترض بها أن تصعد المنصة معه حتى لا يقع. رُتب لهما كلُّ شيء، إذ جاءتْ سيارة ليموزين في الثامنة إلا عشْر دقائق وأخذتهما إلى المسرح، ثمَّ توقفت تحتَ الخيمة الكبيرة في موعدها تمامًا، وراء بعض النجوم المشهورين والمخرج والكاتب والحاكم والعمدة وبعض النجوم الأدنى شأنًا. كانتِ الشرطة تضبط حركة السير، ومُدَّت حبال لتمنع الناس الذين لا يُسمَح لهم بالدخول، فوقفوا جميعًا يشاهدونَهما بينما يترجلان من الليموزين إلى الأضواء. مشيَا بعد ذلك في ردْهة المدخل الحمراء والذهبية ودلتهما مرشدةٌ ترتدي سيدارةَ الكونفدرالية وتنّورة قصيرة إلى مقعديهما. كان الجمهور حاضرًا بالفعل، وبدأت مجموعةٌ من عضوات منظمةِ بنات الكونفدرالية المتحدات بالتَّصفيق عندما رأين الجنرال بزيّه الرسمي، فأشعل ذلك التصفيق في الجميع. وجاء بعضُ المشاهير الإضافيّين بعدهم ثمَّ أُغلقتِ الأبواب وأُطفئت الأضواء.

صعد شابٌّ ذو شعر أشْقر مموَّج قيل إنه يمثلُ صناعة الأفلام السينمائية وبدأ بتقديم الجميع، وكلما قدَّم شخصًا مشى إلى المنصة وأعرب عن عمق سعادته لحضوره هذا الحدثَ العظيم. كان الجنرال وحفيدته في الترتيب السادس عشر بين المُقدَّمين، وعُرِّف عنه على أنه الجنرال تينيسي فلينتروك ساش من جيش الكونفدرالية، رغم أنَّ سالي بوكر أخبرت السيد غوفيسكي بأن اسمه جورج بوكر ساش، وأنه كان رائدًا وحسب. ساعدتْه على النهوض من مقعده، لكن قلبها كان يخفقُ بشدة حدَّ أنها لم تعرف ما إن كانت قادرةً على أداء المهمة.

مشى العجوز في الممرّ ببطء رافعًا رأسه الأبيض الشرس وحاملًا قبعته فوق قلبه، ثمَّ بدأتِ الأوركسترا تعزف نشيدَ المعركة الكونفدرالي بصوت خفيض، ونهضتْ عضوات بنات الكونفدرالية المتحدة ولم يجلسنَ حتى بلغ الجنرال المنصَّة. عندما وصل إلى منتصف المنصة وسالي بوكر وراءه

تمامًا تسندُ مرفقه، انفجرتِ الأوركسترا في نسخة صاخبة من نشيد المعركة، ونفذ العجوز -بحضورٍ مسرحي حقيقي- تحيةً عسكرية قويّة مرتعشة، ثمَّ وقف باستعداد حتى تلاشتِ النغمة الأخيرة. وكان ثمَّة مرشدتان تعتمران سيدارة الكونفدرالية وترتديان تنّورتين قصيرتين تنشران علم الكونفدرالية وعلم الاتحاد وراءه.

وقفَ الجنرال في منتصف بقعة الضوء تمامًا، وسقط الضوء على شريحة هلالية غريبة من سالي بوكر، فأظهر دبوسَ الزهور والإبزيم وإحدى يديها قابضةً على قفازٍ أبيض ومنديل. ثمَّ أقحم الشابُّ ذو الشعر الأشقر المموج نفسه في دائرة الضوء، وقال إنه سعيد "حقًّا" لاستضافته في هذا الحدث العظيم الليلة رجلًا -كما قال- قاتلَ وبذل الدماءَ في المعارك التي سرعان ما سنراها تُعرَض بجرأة على الشاشة، وسأله:

- قُل لي أيها الجنرال، كم عمرك؟

فصرخ الجنرال:

- اثثثثتان وتسعون سنة!

نظر الشابُّ إليه كأن ذلك أشدّ ما قيل إثارة للإعجاب طيلة المساء، وقال: "سيداتي سادتي، فلنمنح الجنرال أصخبَ تصفيق نقدر عليه" فصفَّقوا من فورهم وأشارَ الشابُّ لسالي بوكر بإبهامه أن تعيدَ العجوز إلى كرسيه حتى يتمكن من تقديم الشخص التالي، لكنَّ الجنرال لم يُنْه كلامه بعد، بل وقف في منتصف الضوء تمامًا، مادًّا عنقه إلى الأمام، وفاتحًا فمَه بعض الشيء، وعيناه الرماديتان النهمتان تتشرَّبان الوهج والتصفيق، ثمَّ دفع حفيدتَه بمرفقه دفعةً قويةً وصاح بصوت صارّ:

- وكيف أظلُّ على هذا القدر من الشباب؟ أقبِّل كلَّ البنات الجميلات!

قوبِل ذلك بتصفيق صاخبٍ عفويّ شديد، وفي تلك اللحظة تمامًا نظرت سالي بوكر إلى قدميها واكتشفت أنها نسيتْ في حماسة استعدادها تبديلَ حذائها، وبرز زوجٌ من أحذية أوكسفورد البنيَّة الخاصة بفتيات الكشافة من أسفل فستانها. شدّت الجنرالَ بقوة وكادت تغادر وإيّاه المنصة ركضًا، فاستشاط غضبًا لأنه لم يتسنَّ له الإعرابُ عن مدى سروره لحضوره هذه المناسبة، وفي طريق العودة إلى كرسيّه ظلَّ يردد بأعلى صوته: "إنني سعيدٌ لحضوري هذا العرض الأول مع كلِّ هذه البنات الجميلات!" لكنَّ شخصية شهيرة أخرى كانت تسير في الممر ولم يُعِره أحدٌ انتباهًا. ثمَّ نام طيلة الفيلم، مغمغمًا بحنقٍ بين الحين والآخر في نومه.

ولم يحدثْ في حياته ما يثير الاهتمامَ منذ ذلك الحين، إذ ماتت قدماه تمامًا، وباتت ركبتاه تعملان مثلما تعمل المُفصّلات القديمة، أما كليتيْه فتؤديان وظيفتهما بحسب مزاجِهما، لكن قلبُه مصرٌّ على الاستمرار بالنبض. صار الماضي والمستقبل واحدًا في نظره، أحدهما منسيٌّ والآخر لا يُذكر، ولا يمرُّ الموت في باله أكثر إلا كما يمرُّ في بال قطة. كلَّ عام في يوم الذكرى الكونفدرالي، يُحزَم ويُعار إلى متحفِ كابيتول المدينة ليُعرض من الواحدة إلى الرابعة في غرفة عفِنة مليئة بالصور القديمة والأزياء القديمة والمدفعية القديمة والوثائق التاريخية، المحفوظة كلها بعناية في صناديق عرضٍ زجاجية حتى لا يمسَّها الأطفال بأيديهم. كان يلبس زيَّ الجنرال الذي مُنح في ذلك العرض الأول، ويجلس بتقطيبة راسخة في منطقة صغيرة مُحاطة بالحبال. لم يكُن فيه ما يوحي بأنه حيٌّ إلا حركة عينيه الرماديتين الحليبيَّتين بين الحين والآخر، لكنه ذاتَ مرة، عندما لمس طفلٌ جريء سيفه، انطلقتْ ذراعه وصفعت يدَه في لحظة. في الصيف، عندما تفتح المنازل التاريخية أبوابَها للحج يتلقَّى دعوة ليلبس زيَّه ويجلس في بقعة بارزة ليثري المشهد. في بعضِ هذه المرات، لم يفعل

شيئًا إلا الصراخَ على الزوار، لكنه في مرات أخرى حكى لهم عن العرضِ الأوَّل والبنات الجميلات.

تظنُّ سالي بوكر أنه لو مات قبل تخرُّجها لماتت في أثره. في بداية كلِّ فصل دراسيّ صيفي، وحتى قبل أن تعرف ما إن كانت ستنجَح أم لا، كانت تخبر العميد إنَّ جدَّها - الجنرال تينيسي فلينتروك ساش من الجيش الكونفدرالي- سيحضر تخرجَها، وإنَّه في عامه الرابع بعد المائة، وإنَّ ذهنه ما يزال في غاية الصفاء، ذلك أنَّ الضيوف المميزين موضع ترحيبٍ على الدوام، ويُحفظ لهم مكان على المنصَّة حتى يُقدَّموا للناس. وكانت ترتبُ مع ابن أخيها، جون ويزلي بوكر ساش، وهو صبيٌّ في الكشافة، أن يأتي ليدفع كرسيَّ الجد. تصوَّرَت عذوبةَ أن ترى العجوزَ بلباسه الرمادي الشجاع والصبي بالكاكيّ النظيف - وفي قرارتها، رأتهما يمثّلان القديم والجديد تمثيلًا ملائمًا- وراءها على المنصة عندما تتلقى درجتها.

وسار كلُّ شيء كما خططت له بالضبط تقريبًا. كان الجنرال يقيم عند أقرباء آخرين له في الصيف عندما تكون في الكليَّة، وقد جلبوه رفقة جون ويزلي -صبي الكشافة- إلى حفل التخرج، وجاء مراسل صحفي إلى الفندق الذي ينزلان فيه فالتقط صورةً للجنرال وسالي بوكر إلى أحد جانبيه، وجون ويزلي إلى الآخر. لم يُعِرِ الجنرال -الذي التُقطت صورتُه رفقة فتيات جميلات- أهميةً لهذه الصورة، وكان قد نسي أيَّ مناسبة بالضبط جاء ليحضر، لكنه تذكر أنه سيرتدي زيَّه ويحمل سيفه.

في صبيحة حفلِ التخرج، كان على سالي بوكر الاصطفاف في طابور التخرج مع الحائزين على بكالوريوس العلوم في التعليم الأوَّلي، لذا لم تتمكن من الإشرافِ على إيصاله إلى المنصة بنفسها، لكن جون يزلي - وهو صبي بدينٌ أشقرُ عمره عشْر سنوات وله وجهٌ يوحي بتحمل

المسئولية- تكفَّل بالاعتناء بكل شيء، ثمَّ جاءت بلباس التخرجِ إلى الفندق وألبستِ العجوزَ زيَّه. كان هشًّا كعنكبوت يابس. سألته:

- ألستَ مبتهجًا يا جدي؟ إنني مبتهجةٌ حتى الموت.

- مدّدي السيف على حجري حيث سيسطع، عليكِ اللعنة.

وضعتْه على حجره ووقفت تنظر إليه:

- تبدو مَهيبًا.

قال العجوز بصوتٍ بطيء رتيب واثق، كأنه يتكلم على إيقاع نبض قلبه:

- اللعنةُ على ذلك. فليذهب كلُّ شيء لعين ملعونًا إلى الجحيم.

فقالت: "هدّئ من روعك"، ثمَّ غادرت بسعادة لتنضمَّ إلى الطابور.

كان الخريجون مصطفّين وراء مبنى العلوم، وعثرت على مكانها مع بدء الصف بالتحرُّك. لم تنمْ كما يجب في الليلة السابقة، وكانت عندما تغفو تحلم بالحفل وتغمغمُ في نومها: "انظروا إليه، أترؤْنه؟"، لكنها تفيق في كلِّ مرة قبل أن تستدير وتنظر خلفها. كان على الخرّيجين المشيُ لثلاثة مربعات سكنية تحت الشمس اللاهبة بأثوابهم الصوفية السوداء، وبينما تتهادى في سيْرها ببلادة فكّرت في نفسها: إن كان ثمَّة مَن يعتبر طابور التخرج هذا شيئًا يُعجب النظر، فليس عليه إلا انتظار أنْ يرى الجنرال العجوز بزيّه الرمادي الشجاع وصبي الكشافة الصغير النظيف يدفع كرسيَّه إلى المنصة بقوة بينما يلتمع شعاع الشمس على سيفه. وتصوَّرت أنَّ جون ويزلي قد أتم تجهيزَ العجوز وراء المنصة.

شقَّ الطابور الأسود طريقَه قاطعًا المربَّعين السكنيين ووصل إلى الممشى الرئيس المؤدّي إلى المُدرَّج. كان الزوار واقفين على العشب يحاولون تمييزَ خريجيهم؛ الرجال يدفعون قبعاتهم خلفًا ليمسحوا جبهاتِهم، والنساء

يرفعنَ فساتينهن قليلًا عن أكتافهنَّ ليمنعنها من الالتصاق بظهورهن. بدا الخريجون في أثوابهم الثقيلة كأن أجسادَهم تطرح آخرَ حبّات الجهل عرَقًا، وانعكس لهيبُ الشمس عن مصدّات السيارات وأعمدة البناء جاذبًا الأعينَ من نقطة متوهّجة إلى أخرى، فشدَّ نظر سالي بوكر إلى آلة الكوكا كولا الحمراء الكبيرة التي نُصبت بجوار المدرّج. رأتْ هناك الجنرال في كرسيّه عابسًا وبدون قبعة تحتَ الشمس اللافحة، وجون ويزلي يقف بكنزة مرْتَخية من الخلف مُلصقًا خدَّه وخصرَه بالآلة يشرب الكوكا كولا، فخرجتْ من الصف وركضتْ إليهما وانتزعتِ القنينة، ثمَّ هزّت الصبي وحشرت كنزتَه ببنطاله ووضعتِ القبعة على رأس العجوز قائلةً: "أدخله من هناك"، بينما تشير بأصبع صارم إلى بوابة البناء الجانبية.

أمّا الجنرال، فشعر بأنَّ فجوةً صغيرة قد بدأت بالاتساع في أعلى رأسه. دفعه الصبيُّ بسرعة عبر الممر، ومن فوق منحدر، وأدخله البناء ثمَّ صدم الكرسي بمدخلِ المنصة ووضعَه حيث قيل له أنْ يضعه، وراح الجنرال يحدق إلى الرؤوس المتدفقةِ معًا من أمامه والعيونِ المتنقّلة بين الوجوه. جاءت عدةُ شخصيات ترتدي أثوابًا سوداء فتلقّفت يده وصافحتها، وانساب من كلِّ ممرٍ طابورٌ أسود حتى شكلت الطوابير على وقع موسيقًى مهيبةٍ بركة أمامه. شعر أن الموسيقى تدخل رأسَه عبرَ الفجوة الصغيرة، وظنَّ للحظة أن الطابور سيحاول دخولها كذلك.

لم يعرف أيَّ طابور هذا، لكنه رأى فيه شيئًا مألوفًا، وينبغي أن يكون مألوفًا له نظرًا لأنه جاءَ ليلتقيه، إلا إنَّه لا يحب الطوابير السوداء. فكّر في قرارته منزعجًا بأن أيَّ طابور قادم ليلتقيه، يجب أن يضمَّ منصات سيارة فيها بنات جميلات مثل المنصّات السيّارة التي سبقت العرضَ الأول. لا بدَّ أن هذه مناسبة لها علاقة بالتاريخ مثل المناسبات التي يحيونها دائمًا،

وليس يهتمّ بذلك. ما كان يجري آنذاك لا قيمةَ له في نظر إنسان يعيش في الحاضر، وهو يعيش في الحاضر.

عندما فاض الطابور كلُّه إلى البركة السوداء، أخذت شخصية سوداء تلقي خطابًا أمامَه. كانت الشخصية تحكي شيئًا ما عن التاريخ، واتخذ الجنرال قرارًا بأنه لن ينصِت، لكنَّ الكلمات ظلّت تتسرَّب من الفتحة الصغيرة في رأسه. سمع اسمَه يُذكَر، ثمَّ دفع صبيٌّ الكشافة كرسيه بشدة وخشونة إلى الأمام وانحنى انحناءة كبيرة. ذكروا اسمَه فانحنى المُزعج البدين! حاول العجوز أن يقول: اللعنة عليك! ابتعدْ عن طريقي، يمكنني الوقوف! لكنه هُزَّ وأُرجع إلى مكانه قبل أن يتمكن من الوقوف والانحناء. افترض أنَّ الصخب الذي أثاروه كان لأجله، ونوى ألا يسمع المزيدَ بعد أن ينتهي دوره، ولولا الفتحةُ الصغيرة في رأسه لما وصل إليه شيء من الكلمات. فكر بسدِّ الفتحة بأصبعه لمنعها، لكنها كانت أوسعَ من أن يسدَّها أصبعه، وشعرَ بأنها تزداد عمقًا.

حلَّ ثوب أسود آخرُ محلَّ الأول وشرع بالكلام، وسمع الجنرال اسمه يُذكر ثانية لكنَّ الحديث لم يكن عنه، بل ما يزال عن التاريخ. كان المتحدث يقول: "إن نسينا ماضينا فلن نتذكرَ مستقبلنا، ولا فرق إن لم يكن لنا مستقبل"، وسمع الجنرال بعضًا من هذه الكلمات تدريجيًّا. كان قد نسيَ التاريخ ولا ينوي تذكره ثانية. نسي اسمَ زوجته ووجهها، وأسماءَ أطفاله ووجوههم، ونسي حتى ما إن كان له زوجة وأطفال، ونسي أسماءَ الأماكن والأماكنَ نفسها وما جرى فيها.

كان متضايقًا أشدَّ ما يكون من الفجْوة في رأسه. لم يتوقع أن تُفتح فجوة في رأسه في هذه المناسبة. كانت الموسيقى البطيئة السوداء ما فتحها، ورغم أن معظم الموسيقى قد توقفَ في الخارج ما يزال ثمة بعضٌ منها في الفجوة يتغلغل ويتحرَّك بين أفكاره، مدخلًا الكلماتِ

التي يسمعها إلى الأجزاء المظلمة من دماغه. سمعَ كلمات: تشيكاماوجا وشايلوه وجونستون ولي، وعرف أنه مصدرُ إلهام جميع هذه الكلمات التي لا تعني له شيئًا. ثمَّ حاول تصورَ نفسه والحصان محْمولين على منصَّة سيارة تعجُّ بالفتيات الجميلات، يُساقان ببطء في وسط أتلانتا، وبدلًا من ذلك، بدأتِ الكلمات القديمة بالاهتزاز في رأسِه كأنها تحاول اقتلاعَ نفسها من مكانها لتخرج ضاجَّة بالحياة.

انتهى المتحدثُ من تلك الحرب، وانتقل إلى الحرب التالية، وصار قريبًا من الثالثة، وجميعُ كلماته -كما الطابور الأسود- مألوفةٌ ألفةً مُبهمة ومزعجة. كان في رأسِ الجنرال أصبع موسيقي طويل، يجسُّ مختلِف البقع التي تمثّل كلمات، سامحًا بدخول بعضِ الضوء إليها ليساعدها على الحياة. بدأتِ الكلمات بالتقدم ناحيتَه وقال: اللعنة! لن أسمح بذلك! وبدأ يتراجع ببطء ليبتعدَ عن طريقها. ثمَّ رأى الشخصيةَ لابسةَ الثوب الأسود تجلس وسمعَ صخبًا، وبدأتِ البركة السوداء أمامه تضجُّ وتفيض ناحيتَه من كلا الجانبين على وقْع الموسيقى السوداء البطيئة، فقال: توقَّفوا عليكم اللعنة! لا يمكنني التعاملُ مع أمريْن في الوقت نفسه! لم يتمكن من حمايةِ نفسه من الكلمات والتفرُّغ للطابور معًا، وصار انقضاضُ الكلمات عليه أسرع. شعر أنه يركضُ رجوعًا والكلماتُ تهجم عليه كنيران المسكيت*، وبالكاد يُفلت منها لكنها تقتربُ أكثر فأكثر. استدار وانطلقَ يركض بأقصى سرعته فوجد نفسَه يركض باتّجاه الكلمات، يركض ناحيةَ وابل منتظم منها ويقابله بشتائم سريعة. عندما ارتفعت موجةُ الموسيقى باتجاهه فتحَ الماضي بابَه عن آخره فجأة، وشعرَ بمائة طعنةٍ أليمة حادَّة تخترق جسمه في مائة موْضع مختلف، ثمَّ سقط على الأرض يردُّ على كلِّ طعنة

* المسكيت: سلاحٌ ناري له تجويفٌ أملس يُلقَم عبرَ الفوَّهة ويُطلق من الكتف. (المترجم).

بشتيمة. رأى وجهَ زوجته النحيل يحدجه بنظرة انتقاديةٍ من وراء نظارتها المدوَّرة ذهبيةِ الإطار، ورأى أحدَ أبنائه الصُّلع خَازِري الأعين، وركضت أمُّه إليه بوجْه قلق، ثمَّ داهمته سلسلة من الأماكن -تشيكاماوجا وشايلوه ومارثاسفيل- كأنَّ الماضي هو المستقبلُ الوحيد الآن وعليه تحمّله. ثمَّ فجأة، رأى أنَّ الطابور الأسود قد صار فوقه تقريبًا، وتعرَّفه، ذلك أنه كان يطارده طيلةَ حياته. بذل جهدًا مستميتًا ليلقي نظرةً وراءه ويرى ما يأتي بعد الماضي إلى درجة أن يدَه أحكمت قبضتَها على السيف حتى بلغ النَّصل العظام.

كان الخريجون يعبرونَ المنصَّة في صفٍّ طويل ليتلقوا لفائفهم ويصافحوا الرئيس، وعندما مرَّت سالي بوكر -التي كانت قريبة من آخر الصف- ألقت نظرةً على الجنرال ورأتْه يجلسُ ثابتًا وشرسًا، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، فأعادت رأسَها إلى الأمام رافعة إيّاه درجة إضافية واضحة وتلقت لفيفتها. حالما انتهى الأمرُ وخرجت من المدرَّج إلى الشمس ثانية، بحثت عن أقربائها وانتظرت وإيّاهم على مقعدٍ في الظل خروجَ جون ويزلي دافعًا كرسي العجوز. صدمه صبيٌّ الكشافة العفريتُ في طريق العودة، ودحرجَه بسرعة عالية على الممرّ المبلَّط، وراح ينتظر في الصفِّ الطويل على آلة الكوكا كولا، برفقة الجثة.

# الزِّنجيُّ الاصطناعيّ

استيقظَ السيد هيد ليرى أنَّ ضوء القمر يملأ غرفته. استوى في جلسته وراح يحدِّق إلى ألواح الأرضية - فضيَّة اللون- ثمَّ إلى قماشةِ مخدَّته، التي ربما كانت من النَّسيج المُقصَّب. وبعدَ لحظة، رأى نصفَ القمر على بُعد خمسِ خطوات في مرآةِ حلاقته، واقفًا كأنه ينتظرُ إذنَه ليدخل، ثمَّ راح يتدحرَج قُدمًا مُلقيًا ضوءًا مُجلِّى على كلِّ شيء. بدا الكرسي المستوي المُسندُ إلى الجدار ثابتًا وواعيًا كأنه ينتظرُ أمرًا، واكتسَى بنطالُ السيد هيد المعلق على ظهره سحنةً نبيلة مثل قطعة ملابس رماها رجلٌ عظيم ما لخادمِه، لكنَّ وجه القمر كان كالحًا، إذ حملق في أرجاءِ الغرفة، ثمَّ أرسل نظرَه من النافذة إلى حيث يطفو فوقَ الإسطبل وبدا أنه يتأمَّل نفسَه بنظرة شابٍّ يرى شيخوخته أمامه.

كان بمقْدور السيد هيد أن يخبرَه بأنَّ العُمر نعمة مُصطفاة، وأنَّ بالسنوات وحدها يبلغ الإنسانُ الفهمَ الرصين للحياة الذي يجعله مرشدًا جديرًا للشبّان، فهذه تجربته الشخصية على الأقل.

جلس قابضًا على القوائم الحديدية للجانب السفلي من سريره، ثمَّ رفع نفسه حتى رأى الوجهَ على ساعة المنبّه المنتصبة فوق سطلٍ مقلوب بجوار الكرسي. كانت الساعةُ الثانية صباحًا، ولم ينطلق المنبه في الوقت المحدد، لكنه لا يعتمد على أيّ وسيلة آليةٍ في إيقاظه، ذلك أنَّ أعوامه الستين لم تُبلّد استجاباته، فردودُ أفعاله البدنية - مثلما نظيرتُها الأخلاقية- تسترشدُ بشخصيته القوية، ويُرى كلُّ ذلك بوضوحٍ في ملامحه. كان له

وجهٌ طويل أنبوبيُّ الشكل فيه فكٌّ واسع مستدير وأنفٌ طويل غائر. ورغم أنَّ عينيه يقظتان، كانتا هادئتين، وتحت نور القمر العجائبي اكتسبتا نظرةَ وقارٍ وحكمة عتيقة كأنهما عينا أحد معلِّمي بني البشر القدماء، كما لو كان فرجيل وقد نوديَ في منتصف الليل ليزور دانتي، أو خيرًا من ذلك، رفائيل وقد أيقظته هبَّةُ نور إلهيّ ليحلق إلى جوار طوبيا. لم يكُن في الغرفة بقعةٌ مظلمة إلا مفرش نيلسون، تحت ظل النافذة.

كان نيلسون متكورًا على جنبه، ركبتاه تحت ذقنه، وكعباه تحت مؤخرته. ظلت بدْلتُه وقبعته الجديدتان في الصناديق التي أُرسلت فيها، وقد وضع الصناديق على الأرض عند أسفل المفرش حيث يمكنه بلوغُها حالما يستيقظ. بدَت جرَّة الفضلات -في ابتعادها عن الظلِّ وسطوعها بلوْن أبيض ناصع تحت ضوء القمر- تحرسُه كأنها ملاك شخصي صغير. عاد السيد هيد إلى استلقائه، شاعرًا بثقةٍ تامة في أنه قادرٌ على أداء المهمَّة الأخلاقية المفروضة في اليوم المُقبل، واعتزمَ الاستيقاظ قبلَ نيلسون لتجهيز طعام الفطور. لطالما انزعج الصبي عندما يستيقظ السيد هيد أولًا. كان عليهما مغادرةُ المنزل في الرابعة ليصلا إلى عقدة السكك الحديدية في الخامسة والنصف، وسيتوقف القطارُ من أجلهما في الخامسة وخمس وأربعين دقيقة؛ لذا عليهما أن يكونا هناك في الوقت المحدد، إذ أنَّ القطار لن يتوقف إلا مجاملةً لهما.

هذه أولى رحلات الصَّبي إلى المدينة، رغم ادعائه أنها الثانية لأنه وُلد هناك. حاولَ السيد هيد إيضاحَ أنه عندما وُلد لم يكن يتمتع بالإدراك الكافي لمعرفة مَكانه، لكن هذا لم يؤثرْ على الطفل ألبتَّة، وظلَّ مُصرًّا أنها رحلته الثانية. أمّا عن السيد هيد، فكانت رحلته الثالثة. قال له نيلسون:

- هذه زيارتي الثانية إليها ولم أتجاوز العاشرة بعد.

عارضَه السيد هيد، فسأله نيلسون:

- إن لم تزُرها في خمسَ عشرة سنة، فما أدراكَ أنك ستعرف طرقاتها؟ ما أدراكَ أنها لم تتغير بعض الشيء؟

- هل رأيتني ضائعًا من قبل؟

لم يرَه نيلسون ضائعًا بلا شك، لكنه طفلٌ لا يقنع حتى يردَّ ردًّا وقحًا، فقال:

- ليس في جوارنا مكانٌ يضيع المرء فيه.

تنبّأ آنذاك السيد هيد قائلًا: "سيأتي اليوم الذي تكتشف فيه أنك لستَ بالذكاء الذي تظنُّه". مرتْ عدةُ شهورٍ وهو يفكر بهذه الرحلة، غير أن تفكيره كان في معظمه متركزًا على الناحية الأخلاقية التي تصوَّرها. ستكون درسًا لن ينساه الصبيّ أبدًا؛ إذْ سيكتشف فيها أن مجردَ ولادته في المدينة ليست مدْعاةَ فخر، وسيرى أن المدينة ليست مكانًا عظيمًا. أرادَه السيد هيد أن يرى كلّ ما يمكن رؤيته في المدينة حتى يقنع بالبقاء في المنزل لبقية حياته، وغطَّ في النوم وهو يفكر في أن الصبي سيعرف أخيرًا أنه ليس بالذكاء الذي يظنه.

أيقظتْه في الثالثة والنصف رائحةُ قَلي قطعة من ظهر الخنزير، فوثبَ من سريره ورأى المفرش خاليًا وصناديقَ الملابس مفتوحة. لبسَ بنطاله وهرع إلى الغرفة الثانية، فوجد الصبي يطهو خبزَ الذرة بعد أن قلى اللحم، وقد جلس إلى الجانب المظلم من الطاولة يحتسي قهوة باردة من صفيحة، لابسًا بَدْلته الجديدة، وقبَّعته الرمادية الجديدة أيضًا مُخفضة فوق عينيه. كانت كبيرةً عليه، لكنهما طلباها بقياس أكبرَ لأنهما توقعا أن ينمو رأسه. لم يقُل شيئًا، لكنْ أوحى شكله بكامله بالرضى لأنَّه استيقظ قبل السيد هيد.

اتَّجه السيد هيد إلى الفرن وجلب بالمقلاة قطعةَ اللحم إلى الطاولة، ثمَّ قال: "لا داعي للعجلة، ستصل إلى هناك في القريب العاجل، ولا شيء يضمن أنها ستروق لك بأيِّ حال"، ثمَّ قعد قبالةَ الصبي الذي تأرجحت قبعتُه خلفًا ببطء لتكشف عن وجهٍ جامد جمودًا بارزًا، ويشبه وجهَ العجوز أيَّما شبه. كانا جدًّا وحفيدًا، لكنهما مُتشابهان تشابه أخويْن، وأخوين ليس بينهما فارقٌ كبير في السن، إذ أنَّ للسيد هيد سحناء تبدو شابَّة في ضوء النهار، في حين بدا الصبي هرِمًا، كأنه عرف كلَّ شيء بالفعل وسيسرُّه أن ينساه.

كان للسيد هيد زوجة وابنة فيما مضى، وعندما توفيت زوجتُه هربت ابنته وعادت بعدَ مدة ومعها نيلسون. ثمَّ ذات صباح -ومن دون مغادرة سريرها- توفّيت تاركةً السيد هيد ليعتني وحدَه بالصبي ابن السنة الواحدة. وقد أخطأ بإخباره نيلسون أنه وُلدَ في أتلانتا، فلو لم يخبرْه بذلك لما أصرَّ الصبي على أنّ هذه ستكون رحلته الثانية.

تابعَ السيد هيد كلامه:

- ربَّما لن تروق لك ألبتَّة؛ فهي ملأى بالزنوج.

فأبدَى الصبي تعبيرًا يوحي بأنه قادرٌ على التعامل مع زنجي، وقال السيد هيد:

- حسن جدًّا، لكنك لم ترَ زنجيًّا قط.
- لم تستيقظ مبكرًا جدًّا.
- لم ترَ زنجيًّا قط. لم نرَ زنجيًّا في هذه المقاطعة منذ دهسنا واحدًا قبل اثنتي عشرة سنة، وحدثَ ذلك قبل ولادتك. (ثمَّ نظر إلى الصبي كأنه يتحداه أن يقولَ إنه رأى زنجيًّا من قبل).
- ما أدراك أنني لم أرَ زنجيًّا عندما عشتُ هناك قبلًا؟ ربما رأيتُ الكثير منهم.

فقال السيد هيد وقد استشاطَ غضبًا:

- حتى لو رأيت زنجيًّا لما عرفتَ أنه زنجي، فصبيٌّ عمرُه ستة أشهر لا يستطيع تمييزَ الزنجي عن أيّ سواه!

- أحسبُ أنني سأعرف الزِّنجي إن رأيته.

ثمَّ نهض الصبي وسوَّى قبعته الملساءَ الرمادية حادَّة الثنيات وذهب إلى المرْحاض.

بلغا العقدة قبلَ موعد وصول القطار بقليل، ووقفا على بُعد قدمين تقريبًا من السكة الأولى. حملَ السيد هيد كيسًا ورقيًّا فيه بعض البسكويت وعلبة من السردين طعامًا لغدائهما، ومن خلفِهما، كانتِ الشمس قاسية المظهر برتقالية اللون ترتفع فوقَ سلسلة الجبال الشرقية وتصبغ السماءَ بلون أحمر شاحب، إلا أنَّ السماء أمامَهما ما تزال رمادية، ويواجهُهما قمرٌ رمادي شفيف بالكاد يزيد بصمة إبهام اليد وضوحًا، وبلا ضوء ألبتَّة. لم يكُن ثمة ما يوضح أنَّ المكان تحويلة سكك إلا صندوق مفاتيح صفيحي وخزان وقودٍ أسود، إذ أنَّ السكك مزدوجة ولا تلتقي ثانية حتى تخفيها اعوجاجاتُ الطريق وراء جانبي الفسحة، ما يجعل القطارات المارَّة تبدو كأنها تخرج من نفق من الأشجار، فتصفعها السماء الباردة لثانية، ثمَّ تختفي مذعورةً في الغابة من جديد. كان السيد هيد قد أجرى ترتيبات خاصة مع وكيلِ التذاكر ليوقف له القطار، وكان في سرِّه خائفًا ألا يتوقف، فهو يعرف أنَّ نيلسون في حال حدثَ ذلك سيقول: "لم أظنّ أنَّ قطارًا سيتوقف من أجلك قط". بدتِ السكة تحت القمر الصباحي العقيم بيضاءَ وهشَّة، وراح العجوز والطفل يحدِّقان قُدمًا كأنهما ينتظران تجليًا شبحيًّا ما.

ثمَّ فجأة - وقبل أن يتَّخذ السيد هيد قرارَه بالعودة- سمعا هديرًا بعيدًا مُحذّرًا ظهر بعدَها القطار ينساب ببطء شديد، ويكاد يكون صامتًا، حولَ حَنيَّة الطريق المكسوَّة بالأشجار على بُعد مائتي ياردة تقريبًا، وفيه ضوءٌ أمامي أصفر ساطع. كان السيد هيد ما يزال غيرَ واثق من أنه سيتوقف، وفكر في أنَّ القطار إذا ما عبرَه ببطء فسيزيدُه ذلك حُمقًا، غير أنَّه كان متجهّزًا، ونيلسون كذلك، لتجاهل القطار إنْ تجاوزهما.

انقضَّ المحرِّك عليهما مالئًا أنفيْهما برائحة المعدن الحامي، ثمَّ توقفت العربةُ الثانية حيث يقفان بالضبط، ووقفَ جابٍ له وجهُ كلبِ بُلدُغ بدين مُسنّ على الدرج وقفةً توحي بأنه يتوقَّع رؤيتهما، رغم أنه بدَا غيرَ مهتم ألبتَّة فيما إنْ صعدا أو لا، ثمَّ قال: "إلى اليمين".

لم يستغرقْ تسجيلهما وقتًا، انطلق بعدها القطار متسارعًا بينما يدخلونَ العربة الهادئة. كان معظمُ المسافرين ما يزال نائمًا، بعضهم يتدلَّى رأسه عنْ ذراع المقعد، وبعضهم متمدِّد على مقعديْن، وبعضهم ناشرٌ ساقيه في الممر. رأى السيد هيد مقعديْن شاغرين، فدفع نيلسون ناحيتَهما قائلًا بصوته الطبيعي، والذي كان صاخبًا أكثرَ ممّا يجب في هذه الساعة من الصباح:

- اجلسْ هناك بجوار الدرجة. لا أحد يهتمُّ لأنَّ المقعد شاغر، فاجلس فيه.

فقالَ الصبي: "سمعتُك. لا داعي للصراخ"، وجلسَ مديرًا رأسه إلى الزجاج، حيث رأى وجهًا شبحيًّا شاحبًا يعبس فيه من تحت حافَّة قبعة شبحية شاحبة، أما جدُّه -الذي نظر بسرعة أيضًا- فرأى شبحًا مختلفًا، شاحب لكنَّه يبتسم ابتسامةً عريضة من تحت قبعة سوداء.

جلسَ السيد هيد واستقرَّ في جلسته، ثمَّ أخرجَ تذكرته وراح يقرأ جهارًا كلَّ ما طُبع عليها، فبدأ الناسُ يهيجون، واستيقظ عدَّةٌ منهم وأخذوا يحدقون به. قال لنيلسون: "اخلعْ قبعتك"، وخلع هو قبعتَه واضعًا إياها على ركبته. لم يحمل رأسُه إلا قدرًا قليلًا من الشَّعر الأبيض الذي حوَّلته السنون إلى لون تبْغيّ، فانبسط جامدًا على مؤخرةِ رأسه، أمّا مقدمتُه فكانتْ صلعاء ومتغضِّنة. خلع نيلسون قبعتَه ووضعَها على ركبته، ثمَّ قعدا ينتظران أنْ يسألهما الجابي عن تذكرتيهما.

كان الرجلُ قبالتهما متمددًا على مقعديْن، قدماه مسْنودتان على حافة النافذة ورأسُه بارزٌ إلى الممر، وكان يرتدي بَدْلة زرقاء فاقعة وقميصًا أصفر غير مزرَّر عند ياقته، وحالما فتحَ عينيه، استعدَّ السيد هيد للتعريف عن نفسه، وقتما جاء الجابي من خلفِه وقال مزمجرًا:

- التذاكر.

عندما غادرَ الجابي، أعطى السيد هيد نيلسونَ نصفَ تذكرته المقطوع قائلًا:

- ضعْه في جيبك ولا تضيّعه وإلّا ستضطرُّ إلى البقاء في المدينة.

قال نيلسون: "إذًا، ربَّما سأضيعه"، كأنه اقتراح عقلاني.

تجاهلَه السيد هيد، ثمَّ شرحَ للرجل في الطرف المقابل، والذي صار جالسًا على حافَّة مقعده:

- هذه أولُ مرَّة يستقلُّ فيها الصبي قطارًا.

فاعتمرَ نيلسون قبعتَه ثانية واستدار غاضبًا إلى النافذة.

تابعَ السيد هيد:

- لم يرَ شيئًا قط. ما يزال جاهلًا بقدْر ما كان عندما وُلد، لكنني أنوي منحَه كفايتَه مرَّة واحدة وأخيرة.

مالَ الصبيُّ إلى الأمام من فوق جدِّه متجهًا إلى الغريب وقال: "لقد وُلدتُّ في المدينة. وُلدت هناك. هذه رحلتي الثانية". قال ذلك بصوت عالٍ واثق، لكن بدَا على الرجل أنَّه لم يفهم. كانت ثمة دوائرُ بنفسجية داكنة تحت عينيه.

قال الرَّجل: "حسنًا"، وراح يحدِّق إلى قدميه المتورِّمتين، ثمَّ رفع اليسرى نحو عشْرِ بوصات عن الأرض، وبعد دقيقة، أنزلها ورفع الثانية. بدأ جميعُ ركاب العربة بالنُّهوض والتحرك والتثاؤب والتمطط، وسُمعت أصوات منفردة هنا وهناك، ثمَّ ساد طنينٌ عامّ. فجأة، تبدَّل وجهُ السيد هيد الهادئ، إذ انغلق فمه تقريبًا، والتمعتْ عيناه بضوءٍ حانق وحذرٍ معًا. كان ينظر إلى الطرف البعيد من العربة، ومن دونِ استدارة، أمسك نيلسون من ذراعه وشدَّه قائلًا:

- انظُر.

دخلَ رجلٌ بلوْن القهوة وراح يتقدَّم على مهلٍ، لابسًا بَدْلة فاقعة، وربطة عنق صفراء من السّاتان عليها دبوس ياقوتيّ. استندتْ إحدى يديه إلى بطنه المسافر بمَهابة تحت معطفِه المُزرَّر، وأمسك بالأخرى رأسَ عصا مشي سوداء يرفعها وينزلُها بحركة خارجية مترويَّة كلما خطا خطوة. أخذ يتقدَّم ببطء شديد، وعيناه البنيَّتان الكبيرتان تحدِّقان في رؤوس المسافرين. كان له شاربٌ دقيق أبيض وشعرٌ أبيض مجعَّد، وتمشي خلفَه شابتان، كلتاهما بلون القهوة، إحداهما في فستانٍ أصفر، والأخرى في أخضر. وظلتا تمْشيان على إيقاع مشيته بينما تتبعانه وتتحادثان بأصواتٍ خفيضة مبحوحة.

أخذتْ قبضة السيد هيد تشتدُّ بإصرار على ذراع نيلسون، وبينما يمرُّ الموكبُ بجواره، انعكس ضوءٌ من الخاتم الياقوتيّ في اليد البنية التي تمسك العصا على عينِ السيد هيد، لكنه لم يرفعْ نظَره، ولا الرجل

العملاق نظر إليه. استمرَّت المجموعة قاطعةً بقية الممرّ ثمَّ خرجت من العربة، وارتختْ قبضة السيد هيد على ذراع نيلسون.

وسأله:

- ما كان ذلك؟

أجابَ الصبي: "رجل". ورمقَه بنظرة ساخطة كأنه سئم إهانة ذكائه.

فأصرَّ السيد هيد بصوتٍ جامد:

- أيُّ نوع من الرجال؟

قال نيلسون: "رجل بدين". وبدأ يشعر أنه يجدر به الحذر.

فقال السيد هيد بنبرةٍ حاسمة:

- ألا تعرف مِن أيّ نوع؟

قال الصبي: "رجل عجوز". وراودَه هاجسٌ مفاجئ بأنه لن يستمتع بهذا اليوم.

فقال السيد هيد بعد أنْ تراخى في جلسته:

- كان الرجل زنجيًّا.

قفزَ نيلسون واقفًا على كرسيه وراح يحدِّق خلفًا إلى مؤخر العربة، لكن الزنجي قد غابَ عن الأنظار.

تابعَ السيد هيد كلامه:

- ظننتُ أنك ستعرفُ الزنجي حالما تراه نظرًا إلى أنَّك رأيت الكثير منهم في زيارتك الأولى للمدينة (ثمَّ قال للرجل عبرَ الممر) هذا أولُ زنجي يراه.

انزلقَ الصبي في كرسيه وقال بصوت غاضب:

- قُلتَ إنَّهم سود، لم تقُل قطّ إنهم سُمر. كيف تتوقع أن أعرفَ أيَّ شيء إن كنت لا تُجيد الوصف؟

قال السيد هيد: "إنك جاهلٌ وحسب، هذا كلُّ ما في الأمر"، وانتقل إلى المقعد الشّاغر بجوار الرجل عبر الممر.

استدارَ نيلسون إلى الخلف ثانية، ونظرَ حيث اختفى الزنجي. شعر أنَّ الزنجي عبرَ المَمر متعمدًا إظهارَه بمظر الأحمق، وأنه يكرهه كرهًا جديدًا وعنيفًا وفجًّا، وأيضًا، بات يفهمُ لم يكرههم جدُّه. نظر ناحية النافذة، وبدَا الوجهُ المنعكس فيها يقترح أنَّه قد يكون غيرَ كفء بما يقتضيه اليوم، وتساءل عمّا إن كان سيعرف المدينةَ عندما يبلغانها.

بعدَ أن حكى عدة حكايا، أدرك السيد هيد أنَّ الرجل الذي يكلّمه نائم، فنهض واقترحَ على نيلسون أن يتمشَّيا ويريا أجزاءَ القطار. أراد أن يريه مرحاض القطار على وجه الخصوص؛ لذا ذهبا أولًا إليه وعاينا السباكة. بيّن السيد هيد طريقةَ عمل مُبرِّد الماء المثلج كأنَّه مُخترعه، وأرى نيلسون المغسلة ذات الصُّنبور المنفرد حيث يفرِّش المسافرون أسنانَهم. ثمَّ ذهبا إلى بضع عربات أخرى ووصَلا إلى مقطورة الطعام.

كانت أفضل عربات القطار، جدرانها مطليَّة بالأصفر الفاقع وأرضيتها مفروشةٌ بسجادة نبيذيَّة. امتدَّت فوقَ الطاولات نوافذ واسعة، وعلى الطاولات، التقطت جوانب أباريق القهوة وأكوابها المساحات الشاسعة من المناظر المتموّجة في رسوم مُنَمْنمة. راح ثلاثة زنوج فاحمي السواد يرتدون بَدْلات بيضاء يذرعون الممرَّ جيئةً وذهابًا بينما يؤرجحون الصواني وينحنون للمسافرين الذين يتناولون فطورهم، ثمَّ هُرِع أحدهم إلى السيد هيد ونيلسون وقال بينما يرفع أصبعيْن: "مقعدان". فأجاب السيد هيد بصوت عال: "لقد أكلنا قبل أنْ نغادر".

كان النادلُ يرتدي نظارات بنيَّةً كبيرة زادت حجمَ بياضي عينيه، وقال ملوّحًا بذراعه تلويحةً متكبّرة كأنه يهش ذبابًا:

- تنحَّيا جانبًا إذًا لو سمحتما.

لم يتحرَّك نيلسون ولا السيد هيد قيدَ أنملة، وقال السيد هيد:

- انظر.

كان ركنُ المقصورة القريب - والمحتوي طاولتين- معزولًا عن البقية بستارة زعفرانيَّة اللون؛ إحدى الطاولتين مُعدّة لكنها خالية، بينما جلس إلى الطاولة الأخرى الزِّنجي العملاق مواجهًا إياهما وظهرُه إلى الستارة. كان يحادث المرأتين بصوتٍ ناعم ويدهن فطيرةً بالزّبدة، وله وجه حزينٌ جادّ، وعنق بارزٌ من فوق جانبيْ ياقته البيضاء. فسَّر السيد هيد قائلًا: "إنهم يفصلونهم عن الآخرين"، ثمَّ قال: "فلنذهبْ إلى المطبخ"، وبدءا المشيَ على طول المقصورة لكن النادل الأسود تبعَهما بسرعة.

وقال بصوتٍ مُتعجرف:

- لا يسمح للمسافرين بدخول المطبخ، لا يُسمح للمسافرين بدخول المطبخ!

توقَّف السيد هيد في مكانه، ثمَّ استدارَ وصرخ في صدر الزنجي:

- وثمَّة سببٌ وجيه لذلك، هو أنَّ الصراصير ستنفِّر المسافرين.

ضحك جميعُ المسافرين، وغادر السيد هيد ونيلسون مبتسمين. كان السيد هيد مشْهورًا في ديارِه بسرعةِ بديهته، وشعرَ نيلسون بفخرٍ عارم مفاجئ به، إذ أدركَ أن العجوز سيكون سندَه الوحيد في المكان الغريب الذي يقتربان منه، وأنه سيكونُ وحيدًا تمامًا في العالم إنْ تاه عن جدِّه. هزَّته حماسة مهولة وأراد أن يمسك بمعطفِ السيد هيد ويتشبَّث به مثل الأطفال.

عندَ عودتهما إلى مقعديهما، شاهدا عبرَ النوافذ العابرة أنَّ الريف قد بدأ يتنقط بمنازل وأكواخ صغيرة، وأنَّ الطريق السريع يحاذي القطار، وأن سيارات صغيرة وسريعة جدًّا صارتْ تعبرهما، فشعرَ نيلسون أن الجوَّ خانق أكثر ممّا كان عليه قبلَ نصف ساعة. كان الرجلُ الجالس عبر الممرّ قد غادر، فلم يبقَ بجوار السيد هيد أحدٌ يحادثه؛ لذا نظرَ من النافذة، عبرَ انعكاسه، وراح يعلنُ جهارًا أسماء الأبنية التي يعبرانها:

- شركة ديكسي للكيماويات، طحين ساذرن مايد، أبواب ديكسي، ساذرن بيل للمنتجات القطنية، زبدة فستق باتي، ساذرن مامي لدبس القصب.

فهسَّ نيلسون:

- صه.

أخذَ المسافرون في جميع أرجاء العربة ينهضون وينزلون متاعَهم عن الرفوف العلوية، وانشغلت النساءُ بلبس المعاطف والقبعات، ثمَّ مدَّ الجابي رأسه في العربة وصاح: "أوّلموقففففيموري*"، فاندفع نيلسون من مقعده، مرتجفًا، لكنَّ السيد هيد أجلسَه بضغطة على كتفه.

وقال بصوتٍ مُفخَّم:

- حافظْ على مقعدك. الموقف الأول على أطراف البلدة، أما الموقف الثاني ففي محطة السكك الحديدية الأساسية.

كان قد حازَ هذه المعرفة في رحلته الأولى، عندما نزلَ في الموقف الأول واضطرَّ إلى دفع خمسين سنتًا لرجلٍ ما كي يوصلَه إلى قلب البلدة. عاد نيلسون إلى جلسته، وقد نال الشحوبُ من وجهه، ذلك أنه فهمَ لأول مرَّة في حياته أن لا غنًى له عن جدِّه.

---

* قصد الكاتبة هنا: "أول موقف: إيموري". (المترجم).

توقَّف القطار وأنزل بضعة مسافرين، ثمَّ تابع انزلاقَه كأنه ما كفَّ عن الحركة قط. في الخارج، انتصب وراءَ صفٍّ من المنازل البنية المتداعية سطرٌ من المَباني الزرقاء، ومن خلفها، تماهتِ السماء الرمادية الوردية الباهتة مع اللاشيء. دخل القطار ساحةَ السكك الحديدية، وبالنظر إلى الأمام، رأى نيلسون خطوطًا كثيرة من السكك الفضيَّة تتضاعف وتتقاطع، وقبل أن يتمكن من إحصائها حدَّق الوجه في النافذة إليه، وكان رماديًّا لكنه واضح، فنظر إلى الجهة الأخرى. توقفَ القطار في المحطة، فقفزَ والسيد هيد وهرعا إلى الباب، ولم يلاحظا أنهما تركا الكيسَ الورقي والغداء بداخله على المقعد.

مشيَا متيبِّسين عبر المحطة الصغيرة، وخرجا من باب ثقيل إلى زحمة حركة المرور. كانت الحشودُ تُسرع إلى أعمالها، ولم يعرف نيلسون إلى أين ينظر، أما السيد هيد فاتَّكأ إلى جانب البناء وراح يحملقُ أمامه.

قال نيلسون أخيرًا:

- حسنًا، كيف للمرء أن يرى كلَّ ما يريد رؤيته؟

لم يجبْه السيد هيد، ثم، كما لو أنَّ منظر الناس المارين أعطاه الفكرة، قال: "يمشي"، وبدأ المشي. تبعَه نيلسون بعد أن ثبَّت قبعته، وغمره فيضٌ من المشاهد والأصوات حتى أنَّه بالكاد عرف ما يرا، حولَ المربع السكني الأول، وعند النّاصية الثانية، استدارَ السيد هيد ونظرَ من خلفه إلى المحطة التي غادراها: محطَّة أخيرة بلوْن الإسمنت فوقَها قبةٌ خرسانية. فكر في أنه إن تمكنَ من إبقاء القبَّة داخل مرمى نظرِه فسيتمكّن من العودة في الظهيرة واللحاق بالقطار.

بينما يمشيان، بدأ نيلسون بتمييزِ التفاصيل والانتباه إلى واجهات المتاجر المحشوَّة بجميع أنواع الحاجيات: أجهزة وأقمشة وعلف دجاج وكحول، ثمَّ عبرَا محلًّا استرعى انتباهَ السيد هيد الشخصي، حيث يدخل المرءُ فيجلس في كرسيّ واضعًا قدميْه على مسْندين ليلمّع زنجيٌّ حذاءه. راحا يمشيان ببطء ويتوقّفان عند كلِّ مدْخل ليريا ما يجري في كلِّ محل، لكنهما لم يدخلا أيًّها، إذ كان السيد هيد عازمًا على ألا يدخل أيَّ متجر في المدينة؛ لأنه في رحلته الأولى، ضاع في متجر كبير ولم يهتدِ إلى طريق الخروج إلا بعد أن تعرَّض لإهانات من أناس كثيرين.

صادفَا متجرًا في منتصف المربع السكني التالي أمامه ميزان، فصعدا عليه كلٌّ في دوره، وتلقى بطاقة بعد أنْ وضع به بِنسًا. قالت بطاقة السيد هيد: "وزنك مائة وعشرون باوندًا. أنت شريف وشجاع وجميع أصدقائك معجبون بك"، فوضعها في جيبه، متفاجئًا من أن الآلة أصابت في أمرِ شخصيته لكنها أخطأت في وزنه، فقد وزَنَ نفسَه على ميزان حبوب منذ مدَّة غير بعيدة ويعرف أنه ليس مائة وعشرين. أمّا بطاقة نيلسون فقالت: "وزنك ثمانية وتسعون باوندًا. ينتظرك قدرٌ عظيم، لكن احذرِ النساء الداكنات". لم يعرف نيلسون أيَّ نساء، ولم يزن إلا ثمانية وستين باوندًا، لكنَّ السيد هيد أوضح له أنَّ الآلة على الأرجح طبعت الرقمَ بالعكس، أي 9 بدلًا من 6.

تابعَا المشي، وعند نهاية المربَّع السكني الخامس، غابت قبة المحطة الأخيرة عن الأنظار وانعطف السيد هيد إلى اليسار. كان بمقدور نيلسون أن يقف ساعة أمام كلِّ متجر لولا أنَّ بجواره متجرًا أكثر تشويقًا منه. قال فجأة: "لقد وُلدتُّ هنا"، فالتفتَ السيد هيد ونظرَ إليه مذعورًا، ورأى في وجهه تألُّقًا متعرّقًا. أردَف الصبي: "هذا مسقط رأسي".

فزعَ السيد هيد، ورأى أنَّ الأوان قد آنَ ليتخذ إجراء حازمًا، فقال: "دعني أريك شيئًا لم ترَه بعد"، وأخذَه إلى ركنٍ فيه فتحة صرف صحي، ثمَّ قال: "اجثُم وأدخِلْ رأسَك هنا"، ممسكًا بمؤخِّر معطف الصبي بينما نزل وأدخل رأسه في المصرَف. أخرج رأسَه بسرعة بعد أن سمع غرغرة في الأعماق تحت الرصيف، ثمَّ شرح له السيد هيد شبكةَ الصرف الصحي؛ كيف تمتدُّ تحت المدينة كلها، وتحْوي كلَّ المجاري وتعجُّ بالجرذان، وكيف يمكن لرجل الانزلاق داخلَها فتمتصُّه الأنفاق الحالكة اللامنتهية. قد يقع أيُّ رجل في أي لحظة في مصارف المدينة ولا يُسمع خبرُه ثانية. وصف ذلك وصفًا دقيقًا حتى إنَّ نيلسون ارتجفَ للحظة، وربط ممرّات الصرف الصحي بمدخل الجحيم. فهمَ للمرَّة الأولى كيف تتركبُ الأجزاء السفلى من العالم، ثمَّ ابتعد عن الحافة.

قال بعدَ ذلك: "أجل، لكن يمكنُك الابتعاد عن هذه الفتحات"، واتخذ وجهه تلك النظرةَ العنيدة التي تسخط جدَّه أيَّما سخط، "هذا مسقط رأسي".

ارتبكَ السيد هيد، لكنه اكتفى بغمغمة: "ستنالُ كفايتك"، وتابعَا المشي. بعد مربَّعين سكنيَّين آخرين، انعطف يسارًا، شاعرًا أنه يدور حول القبة، وكان محقًّا، ذلك أنَّهما في غضون نصف ساعة مرَّا أمام المحطة ثانية. في البداية، لم يلحظ نيلسون أنه يرى المتاجرَ نفسَها مرة أخرى، لكن عندما مرَّا أمام المحل حيث يجلس المرءُ واضعًا قدميه على المسْندين ويلمّع الزنجيُّ حذاءه، استوعب أنهما يدوران في دائرة، فصرخ:

- لقد مررْنا من هنا بالفعل! لا أحسب أنك تعلم أين أنت!

قال السيد هيد: "لقد سهوتُ عن الاتجاه للحظة"، وانعطفا إلى شارع آخر. كان ما يزال ينوي ألا يبتعدَ كثيرًا عن القبة؛ لذا انعطفا يسارًا بعد مربعين سكنيين في الاتّجاه الجديد. ضمَّ الشارع مساكنَ خشبية ثنائية وثلاثية الطوابق يمكن لأي عابر أمامَها رؤية دواخل غرفها. ألقى السيد هيد نظرةً عبرَ إحدى النوافذ، ورأى امرأة مستلقيةً على سرير معْدني، تحدّق إلى الخارج وتغطي نفسَها بملاءة، وهزَّته سيماؤها العارفة. ثمَّ ظهرَ صبيٌّ غاضب المنظر يقود دراجة هوائية من اللامكان أجبرَه على القفز جانبًا حتى لا يُصدم، فقال ويلسون:

- لا يَرون صدمَك شيئًا يُذكر، من الأفضل أن تبقى قريبًا منّي.

تابعَا المشيَ في الشوارع لبعض الوقت قبل أن يتذكر الانعطاف من جديد. صارت جميعُ المنازل التي يعبرانِها غيرَ مطليَّة، وخشبها يبدو متعفنًا، وتفصل بينها شوارعُ أضيق. رأى نيلسون رجلًا ملوّنًا، ثمَّ آخر، ثمَّ ثالث، فعلّق قائلًا:

- إن سكانَ هذه المنازل زنوج.

فقال السيد هيد:

- فلنذهب إذًا إلى مكانٍ آخر. لم نأتِ لنرى الزنوج.

دخلَا بعد ذلك شارعًا آخر، لكنهما ظلّا يريان الزنوجَ في كلِّ مكان. بدأ نيلسون يشعرُ بالوخْز في جلده، وحثَّا خطاهما ليغادرا الحيَّ بأقصى سرعة ممكنة. رأيَا رجالًا ملوَّنين يقفونَ على الأبواب بقُمصانهم الداخلية، ونساء ملوّنات يتهزْهَزن في كراسيهنَّ في الشرفات المُتراخية، وأطفالًا ملوّنين يلعبون في المجاري توقفوا عمّا يفعلونه لينظروا إليهما. وسرعانَ ما صارا يعبران متاجرَ فيها زبائنُ ملوَّنون، لكنهما لم يتوقفَا عندَ مداخلها. كانتِ العيون السوداء في الوجوه السوداء تراقبُهما من كلِّ صوب.

قال السيد هيد:

- أجل، هذا مسقطُ رأسك. هنا رفقة كلِّ هؤلاء الزنوج.

فردَّ نيلسون مقطّبًا:

- أظنُّ أنك ضيَّعتنا.

استدارَ السيد هيد بعنف باحثًا عن القبَّة، فلم يرها، وقال:

- لا لم نضِع. إنك متعَبٌ من المشي وحسب.

- لستُ متعَبًا، بل أشعر بالجوع. أعطني بسكويتة.

اكتشفَا حينها أنهما نسيَا الغداء. قال نيلسون:

- أنتَ مَن كان يحمل الكيس. لو كان معي لحافظتُ عليه.

قال السيد هيد: "إن كنتَ تريد قيادةَ هذه الرحلة، فسأكمل وحدي وأتركك هنا"، وسرَّه أن رأى وجهَ الصبيّ يبيضُّ، لكنَّه أدرك أنهما ضائعان ويزدادان ابتعادًا عن المحطة في كلِّ لحظة. كان جائعًا أيضًا، وبدأ يشعر بالظمأ، ونظرًا إلى أنهما في حيّ للملوّنين أخذَ العرق يقطرُ منهما. كان نيلسون يلبس حذاءً غير مُعتاد عليه، والأرصفة الإسمنتية شديدةُ الصلابة. أراد كلاهما إيجادَ مكان ليجلسا فيه، لكنَّ ذلك محال، فاستمرَّا بالمشي، وتمتم الصبي هامسًا: "ضيّعتَ في البداية الكيسَ ثمَّ ضيعتَ الطريق"، وراح السيد هيد يتذمَّر بين الحين والآخر قائلًا: "أي شخصٍ يرغب بأن يكون مِن جنة الزنوج هذه يمكنه تحقيق رغبته".

بحلول هذا الوقت، كانت الشمسُ قد قطعت شوطًا كبيرًا في السماء، وحمل الهواء إليهما روائحَ طهي وجبات العشاء، ووقف جميعُ الزنوج في أبوابهم ليشاهدونهما يعبران. قال نيلسون:

- لمَ لا تسأل أحدَ الزنوج أولاء عن الطريق؟ لقد ضيّعتَنا.

- هذا مسقطُ رأسك، يمكنك أن تسأل بنفسك إن أردتَّ.

كان نيلسون خائفًا من الرجال الملوَّنين، ولم يرغب بأن يضحك عليه الأطفال الملوَّنون. رأيَا أمامهما امرأةً ملونة ضخمة تتكئ على مدخل ينفتح بابه على الرَّصيف، شعرُها منتصب بارتفاع أربع بوصات في جميع الاتجاهات، وتقف على قدميْن بُنّيتين استحالت أطرافُهما ورديَّة، وتلبس ثوبًا ورديًّا يظهر شكل قوامِها بدقة. عندما صارَا بحذائها، رفعَت إحدى يديها بكسلٍ إلى رأسها واختفت أصابعُها في شعرها.

توقَّف نيلسون، شاعرًا أن عينيِ المرأة الدّاكنتين تقطعان أنفاسَه، وقال بصوتٍ لا يشبهُ صوته:

- كيف أرجعُ إلى البلدة؟

قالت بعدَ دقيقة: "أنت في البلدة الآن"، بصوت خفيض رخيم أشعرَ نيلسون بأنَّ رذاذًا باردًا رُشَّ عليه.

فقال بنفْس الصوت المزْماري:

- كيف أرجعُ إلى القطار؟

- يمكنك أن تستقلَّ عربة.

فهمَ أنها تسخرُ منه، لكن كان مشلولًا عنْ تقطيب حاجبيه حتى، فوقف يتشرَّب جميعَ تفاصيلها، وطافت عيناه من ركبتيها الضخمتين صعودًا إلى جبهتها، ثمَّ اتَّخذتا طريقًا مثلثًا من العرَق المتلألئ على عنقها نزولًا إلى صدرها العملاق ثمَّ ذراعها العارية عودًا إلى أصابعها حيث اختبأتْ في شعرها. شعر فجأة بأنه يريدُها أن تحمله وتشدَّه إليها، ثمَّ رغب بأن يشعرَ بأنفاسها على وجهه. أراد أن ينظرَ في أعماق عينيها بينما تحكم عناقَه أكثر أكثر. لم ينتَبْه إحساسٌ مشابِه من قبل. أحسَّ أنه يترنَّح ساقطًا في نفق حالك.

قالت:

- يمكنك أن تقطعَ مربعًا سكنيًا آخر بهذا الاتجاه، ثمَّ تستقل عربة تأخذك إلى محطة القطار يا حُلو.

كان نيلسون لينهارَ على قدميها لو لم يشدَّه السيد هيد بعنف متذمرًا:

- إنَّك تتصرفُ كأن لا عقل لك!

أسرعَا في عبور الشارع ولم ينظرْ نيلسون إلى المرأة من خلفه، ثمَّ أنزل قبعتَه بعنفٍ على وجهه الذي كان يشتعل خجلًا بالفعل. عاد إليه الشبحُ الساخر الذي رآه في نافذةِ القطار رفقةَ جميع هواجسه، وتذكر أنَّ بطاقة الميزان قد أخبرته بأن يحذرَ النساء الداكنات، وأنَّ بطاقة جدِّه قالت إنه شريفٌ وشجاع، فأمسك بيدِ العجوز في إشارة ثقةٍ قلَّما أظهرها.

اتَّجها بعد ذلك إلى آخر الشارع ناحية مسار العربات حيث كانت تقترب عربة صفراءُ مجلجلة. لم يكنِ السيد هيد قد ركب عربة شوارع قط، فتركها تمرّ. ظلَّ نيلسون صامتًا، وبينَ الحين والآخر، يرتعش فمُه بعض الارتعاش، لكن جدَّه -لانشغاله بمشكلاته الخاصة- لم يُعرْه اهتمامًا. وقفَا على الناصية من دون أن ينظرا إلى الزنوج الذين يمرّون ويتَّجهون إلى أشغالهم، إلا إنَّ معظمهم توقفَ لينظر إلى السيد هيد ونيلسون. خطرَ في بال السيد هيد أن بإمكانهما تتبع مسارِ العربة ببساطة بما أنها تمشي على سكة، فدفع نيسلون دفعةً بسيطة وشرح له أنهما سيتبعان المسارَ إلى محطة السكك الحديدية سيرًا على الأقدام، ثمَّ انطلقا.

أراحَهما أنهما سرعانَ ما بدءا يرَيان أناسًا بيضًا من جديد، وقعد نيلسون على الرَّصيف متكئًا إلى جدار مبنى قائلًا:

- لقد ضيَّعت الكيس والاتجاه؛ لذا يمكنك الانتظار قليلًا لأستريح.

قال السيد هيد: "ها هو المسارُ أمامنا، ما علينا إلا إبقاؤه تحت ناظرينا. وكان بمقْدورك تذكُّر الكيس مثلما بمقدوري؛ هذا مسقطُ رأسك، هذه ديارك القديمة، هذه رحلتُك الثانية، ينبغي أن تعرف ما يجب فعله"، ثمَّ قعد وتابع الكلام بنفس الأسلوب، لكنَّ الصبي -الذي خلع حذاءه ليريح قدميه- لم يُجبه.

- وفوقَ هذا، تقف هناك بينما تدلُّك امرأةٌ زنجية على الطريق. عفوك يا رب!

قال الصبيُّ بصوت مهزوز:

- لم أقُل قطُّ إنني لست إلا صبيًّا مولودًا هنا. لم أقل قطُّ إنني سأحبها أو لن أحبَّها. لم أقل قطُّ إنني أرغب بالقدوم. لم أقُل إلّا إنني وُلدت هنا ولا علاقة لي بذلك. أريد الذهابَ إلى المنزل. لم أرغبْ بالمجيء إلى هنا أصلًا. هذه الرحلةُ كلها فكرتُك العظيمة. وما أدراك أنك لستَ تتبعُ المسار في الاتجاه الخاطئ؟

مرَّت هذه الفكرة الأخيرة في رأس السيد هيد أيضًا، وقال:

- كلُّ هؤلاء الناس بيض.

- لكنَّنا لم نمرّ من هنا قبلًا.

كان حيًّا من المباني الطوبيَّة التي ربما يعيش فيها أناس وربما لا. رُكنت على امتداد حافَّة رصيفه بضعُ سيارات خالية، وبينَ الحين والآخر يمرُّ فيه عابر سبيل. تصاعدتْ حرارة الرصيف عبرَ بَدْلة نيلسون الرقيقة، فبدأ جفناه بالارتخاء. وبعد بضع دقائق، مال رأسُه إلى الأمام، وارتعش كتفاه مرة أو اثنتين، ثمَّ سقط على جنبه ورقدَ ناشرًا أطرافه في نوبة نوم مُرهَقًا.

راقبَه السيد هيد بصمت. كان مُنهكًا كذلك، لكن لا يمكن لكليْهما النوم في الآن نفسه، ولا يمكنه النوم بأيِّ حال لأنه لا يعرف في أيِّ مكان

هو. في غضون بضع دقائق سيستيقظ نيسلون، وقد نشَّطه نومه وعاد بالغَ الاعتداد بنفسه، ثمَّ سيبدأ بالتذمُّر من أنه ضيَّع الكيس والطريق. قال السيد هيد في قرارته: "كُنت لتحظى بوقتٍ في غاية البؤس لو لم أكُن معك"، ثمَّ راودتْه فكرة أخرى، فنظر إلى القوام المتمدِّد لبضع دقائق، ونهض من توّه. برَّر لنفسه ما يوشك على فعله بأنه من الضَّروري في بعض الأحيان تلقينُ الطفل درسًا لن ينساه، لا سيَّما عندما يصرُّ الطفل دائمًا على تأكيد مكانته ببعض الوقاحة الجديدة، ثمَّ مشى من دون صوتٍ إلى الرُّكن البعيد نحوَ عشرين قدمًا، وجلسَ على سلَّة قمامة محتجبة في الزقاق حيث يمكنه مراقبةُ نيلسون يستيقظ بمفرده.

غفَا الصبي غفوًا متقطعًا كان فيه نصفَ واعٍ بالضجيج المُبهم من حوله والأشكال السوداء التي تخرج من بعض أجزائه المُعتمة إلى النور. اضطرب وجهه في أثناءِ نومه، وجذبَ ركبتيه رافعًا إياهما أسفلَ ذقنه، وكانت الشمس قد ألقت ضوءًا باهتًا ذاويًا على الشارع الضيق، فبدا كلُّ شيء على حقيقته بالضبط. قرر السيد هيد -المتكوّر مثل قرد عجوز فوق غطاء سلة القمامة- أنه سيخبط السلة بقدمِه مُصدرًا صوتًا قويًّا إن لم يستيقظْ نيلسون قريبًا. نظرَ إلى ساعته ووجد أنها الثانية. يغادرُ قطارهما في الساعة السادسة، وكان احتمال أن يفوّته أفظعَ مما يمكنه التَّفكير فيه حتى، فركلَ السلة بكعبِه ودوَّى صدًى أجوفُ في الزقاق.

أطلقَ نيلسون صرخة، ووثبَ واقفًا على قدميه، ثمَّ حدَّق حيث ينبغي أن يكون جدُّه، ودار حولَ نفسه عدَّة دورات، وأطلق ساقيه للريح ملقيًا رأسه خلفًا في عرضِ الشارع مثل مُهر بريّ أصابه الجنون. قفز السيد هيد عن السلة وركض في أثرِه، لكنَّ الصبيَّ قد غابَ عن الأنظار تقريبًا. رأى مسحة رمادية تختفي على خطِّ قطري منه وراءَ مربع سكني، فانطلق بأقصى سرعة يستطيعها بينما ينظرُ في كلا الاتجاهين عند كلِّ تقاطع،

لكنه لم يرَه. ثمَّ -وبينما يعبر التقاطع الثالث مُنقطع النفس تمامًا- رأى على بُعد نصف مُجمَّع سكني تقريبًا مشهدًا جعله يتجمَّد في مكانه، فجثمَ وراء حاوية قمامة ليراقبَ ويستجمع قواه.

كان نيلسون جالسًا باسطًا كلتا قدميْه بينما ترقد بجواره امرأةٌ عجوز تصرخ وقد تناثرتْ بقالتها على الرصيف، واجتمع حشدٌ من النساء ليرين العدالة تأخذ مجْراها. سمع السيد هيد العجوزَ تقول بوضوح: "لقد كسرتَ كاحلي وسيدفع أبوك تكاليفَ علاجه. سيدفع كلَّ نِكلة. أيها الشرطة.. أيها الشرطة!"، وكانت بضع نساء قابضاتٍ على كتف نيلسون، لكنَّ الصبي بدا دائخًا إلى درجة تمنعه من النهوض.مكتبة سُر مَن قرأ

أجبرَ شيء ما السيد هيد على التقدم من خلف الحاوية، لكن بخطوٍ لا يجاوز الزَّحف، إذ لم يوبخْه شرطي في حياته كلها. كانت النساءُ تتزاحمن حول نيلسون كأنهنَّ قد تنقضين عليه دفعةً واحدة في أيّ لحظة وتمزّقنَه إربًا إربًا، وظلت العجوز تطلب الشرطة وتصرخ بأنَّ كاحلها مكسور. اقترب السيد هيد ببطء شديدٍ يوحي بأنه ربما كان يتراجَع خطوة كلما تقدمَ خطوة، لكن عندما اقترب نحو عشْر أقدام، رآه نيلسون ووثبَ إليه من فوره فلفَّ ذراعيه حول وركيْه وتشبث فيه لاهثًا.

التفتتِ النساء جميعًا إلى السيد هيد، وجلستِ المصابةُ صارخةً:

- أنتَ يا سيدي ستدفع كلَّ بنس من فاتورة طبيبي جراء ما تسبب به ابنُك. إنه مُجرم حَدَث! أين الشرطي؟ فليسجلْ أحدُكم اسمَ هذا الرجل وعنوانه.

كان السيد هيد يحاول فصلَ أصابع نيلسون عن لحم فخذيْه، وقد أخفض رأسه حتى ياقته مثلَ السلحفاة، والتمعت عيناه خوفًا وحذرًا.

صرختِ العجوز:

- لقد كسرَ ابنُك كاحلي، أين الشرطة!

شعرَ السيد هيد بدنوِّ شرطيّ من خلفه، فحدَّق مباشرة إلى النساء المتكتلات في حنقهنَّ مثل جدارٍ أصمّ مانعات إياه من الفرار، وقال:

- إنه ليس ابني، لم أرَه من قبل.

وشعرَ بأصابع نيلسون تخرج من جلده.

تراجعتِ النساء خلفًا بينما تحدّقن إليه في ذعر، كأنهنَّ قد اشمئزَّين لرؤية رجلٍ ينكر صورتَه وشبَهَه حتى إنَّهن لا يحتملن لمسَه. وتابع السيد هيد مشيه عبر مساحةٍ أخليْنها له بصمت، تاركًا نيلسون وراءه، ولا يرى أمامه إلا نفقًا عميقًا كان شارعًا فيما مضى.

ظلَّ الصبي واقفًا مكانه، عنقه ممدودٌ إلى الأمام ويداه تتدلَّيان على جنبيه. كان رأسُه محشورًا في قبعته، لذا لم يعدْ فيها أيُّ ثنيات. نهضتِ المرأة المصابة وهزَّت قبضتها في وجهه، بينما رمقتْه الأخريات بنظرات مشفقة، لكنه لم يلاحظْ أيَّهن. ولم يكن ثمَّة شرطي بالقرب.

في غضون دقيقة، بدأ يتحرك حركةً آلية، من دون بذل أي جهدٍ للحاق بجدِّه، غير أنه يتبعه على بُعد عشرين خطوة تقريبًا. ظلّا على حالهما لنحو خمسة مربعات سكنيَّة. كان كتفا السيد هيد مرتخيَين، وعنقه مُدلًّى أمامه في زاوية لا تُلحظ من الخلف، وكان خائفًا من الاستدارة، وأخيرًا، ألقى نظرةً قصيرة مُرتجية من فوق كتفِه، ورأى على بُعد عشرينَ قدمًا خلفه عينيْن صغيرتين تثقبان قفاه مثل شعاب مِذراة الحنطة.

لم يكُن الصبيُّ مسامحًا في طبيعته، لكن هذه أولُ مرَّة يكون عنده ما يسامح عليه، إذْ لم يُخزِ السيد هيد نفسَه من قبل. وبعد مربَّعين آخرين، استدار وصاح بصوتٍ عالٍ ومرحٍ على نحْو يائس:

- فلنذهب ونشتري بعض الكوكا كولا من مكان ما!

لكنَّ نيلسون -وبكرامةٍ لم يُظهرها من قبل- استدار وولّى جدَّه ظهره.

بدأ السيد هيد يعي عُمقَ إنكاره إياه، وأخذ وجهُه يستحيل تجاويف وحافات جرداء بينما يتابعان مشيَهما. لم يرَ شيئًا ممّا يعبرانه، لكنه أدرك أنهما ضيعا مسارَ العربة، ولا قبة تُرى في أيّ مكان، والظهيرة تحثُّ سيْرها. كان يعرف أنهما إن داهمَهما الظلام في المدينة فسيتعرضان للضرب والسرقة، ولم يتوقع لنفسه شيئًا إلّا سرعة نزول العدالة الإلهية به، لكنه عجزَ عن احتمال فكرة أن تنعكس خطاياه على نيلسون، وأنه يقود الصبيَّ إلى هلاكه حتى في هذه اللحظة.

استمرّا في المشي مربعًا يتلو المربع عبرَ حيّ من المنازل الطوبيّة الصغيرة حتى تعثَّر السيد هيد بصنبور ماءٍ يرتفع نحو ستِّ بوصات وكاد يقع. لم يحظَ بشربة ماءٍ منذ الصباح الباكر، لكنه شعر بأنه لا يستحقها الآن، ثمَّ فكّر في أنَّ نيلسون لا بدَّ أن يكون عطشانًا، فيشرب كلاهما ويُرأب صدعهما. قرفص ووضعَ فمه على الفتحة موجهًا جدولًا باردًا من الماء إلى حلقه، ثمَّ نادى بصوتٍ يائس مرتفع:

- تعال واشربْ بعض الماء.

وهذه المرَّة، حدَّق الصبي فيه لستين ثانية تقريبًا، فنهضَ السيد هيد وتابع المشي كأنَّما قد شرب سُمًّا، أما نيلسون -ورغم أنَّه لم يشرب الماء منذ حظي ببعضه في كأس ورقي على القطار- فمرّ بجوار الصنبور آبيًا الشربَ من حيث شرب جدُّه. عندما أدرك السيد هيد ذلك فقدَ الأمل تمامًا، وبدا وجهه في ضوء الظهيرة الآخذ بالانحسار مُهدّمًا ومهجورًا. شعر بكُرْه الصبي الراسخ له يطوف وراءه بوتيرة ثابتة، وعرف أنه (إنْ نجيَا بمعجزة ما من القتل في المدينة) سيظلُّ على حاله هذا لبقيَّة حياته.

عرف أنه باتَ يخوض منطقةً سوداء غريبة حيث لا شيء يشبه ما كانَ في الماضي، شيخوخة طويلة من دون احترام، ونهاية سيُرحب بها لأنها النهاية.

أمّا عن نيلسون، فتجمد مخُّه عند خيانة جدِّه كأنه يحاول الحفاظ عليها سليمةً ليعرضَها يوم القيامة، وظلَّ ماشيًا من دون أن ينظر يمنةً ولا يسرة، غير أن فمَه كان يرتعشُ بين الحين والآخر، وكان ذلك يحدث عندما يشعر بكيان أسود غامضٍ يرتفع من مكان بعيدٍ بداخله، كأنما قد يذيبُ بصرَه المتجمد بعناق دافئ واحد.

غابتِ الشمس وراء صفٍّ من المنازل، ومرّا، وهما بالكاد يلحظان ذلك، في حيٍّ أنيق حيث تفصلِ المروجُ ذات أحواض الطيور بين القصور والشارع. في هذا الحي، كان كلُّ شيء مهجورًا تمامًا، فعبرَا مربعات سكنية لم يلمحا فيها كلبًا حتى، وبدَتِ البيوت البيضاء الضخمة مثل جبال جليدية نصف مغمورة. لم يكُن في الحي أرصفة، بل ممرّات سيارات فقط، تلتف وتلتف في دوائرَ سخيفة لا تنتهي. لم يقترب نيلسون من السيد هيد، وشعرَ العجوز أنه، إذا ما رأى فتحةَ مصرَف، فسيلقي نفسَه فيها لتحمله بعيدًا، وتصوّر الصبي واقفًا بجوارها، يراقبه باهتمام تافهٍ بينما يختفي.

خضَّه نباحٌ صاخبٌ جذبَ انتباهه، فرفع رأسه ليرى رجلًا ضخمًا يقتربُ رفقة كلْبَين بُلدُغ، ولوَّح بكلتا ذراعيه كشخصٍ تحطمتْ سفينته تاركةً إياه على جزيرة مهجورةٍ بينما ينادي:

- لقد ضللتُ الطريق! ضللتُ الطريق وأعجزُ عن الاهتداء إليه. ينبغي لهذا الصبيّ اللّحاق بالقطار ولا يمكنني العثورُ على المحطة. لقد ضعتُ يا الله.. ساعدني يا الله إنني ضائع!

سأله الرجل -وكان أصلعَ يرتدي سروالَ غولف- عن القطار الذي يحاول اللحاق به، فراحَ السيد هيد يخرج بطاقتيه بينما يرتجفُ ارتجافًا عنيفًا جعله بالكاد قادرًا على الإمساك بهما، واقترب نيلسون حتى صار ضمنَ مسافة خمسَ عشْرة قدمًا ثمَّ وقف يتفرج.

قالَ الرجل البدين بعدما أعاد له البطاقتين: "حسنًا، لا وقتَ أمامك لترجع إلى البلدة وتلحق به، لكن يمكنك ملاقاتُه عند محطة الضاحية، وهذه تبعد ثلاثة مربَّعات سكنية من هنا". ثمَّ دلَّه على طريقها.

حدَّق السيد هيد كأنه يرجع على مَهل من عالم الأموات، وعندما أنهى الرجل كلامَه، انطلق والكلابُ تقفز في أثره، ثمَّ استدارَ ناحية نيلسون وقال بنفس منقطع:

- سوف نذهب إلى المنزل!

كان الطفلُ واقفًا على بُعد عشْرة أقدام تقريبًا، وجهُه ممتقع تحت قبعته الرمادية، وعيناه باردتان برودًا انتصاريًّا وخاليتان من أيّ ضوء أو شعور أو اهتمام. كان حاضرًا جسدًا فقط، قوامًا صغيرًا ينتظر. لم يعدِ المنزل يعنيه في شيء.

استدارَ السيد هيد ببطء. شعرَ أنه بات يدرك كيف سيكون الزمانُ بدون الفصول، وكيف ستكون الحرارةُ بدون الضوء، وكيف سيكون الرجل بدون الخلاص. صار في نظره اللحاقُ بالقطار وعدمه سواءً، ولولا أن جذبَ انتباهه شيء ما فجأة، شيء مثل صيحةٍ من قلب الظُّلمة الآخذة بالاجتماع؛ لربَّما نسي أن ثمَّة محطةً ينبغي الذهاب إليها.

لم يكن قد عبرَ خمسمائة ياردة من الطريق وقتما رأى -في متناول يده- تمثالًا جصيًّا لزنجي يجلس منحنيًا على سور منخفض من طوب أصفر يلتفُّ حول مرج فسيح. كان الزنجيُّ بحجم نيلسون تقريبًا، وكان

مائلًا إلى الأمام بزاوية غير مستقرَّة؛ لأنَّ الإسمنت الذي يثبته على الجدار قد تصدَّع، واستحالت إحدى عينيه بيضاء بالكامل، ويحمل قطعة من بطيخة بُنّية.

وقفَ السيد هيد ينظر إليه بصمت حتى توقفَ نيلسون على مسافة قريبة، ثمَّ وقف كلاهما هناك، وقال السيد هيد لاهثًا:

- زنجيٌّ اصطناعيّ!

لم يكن ممكنًا معرفةُ ما إن كان الزنجيُّ المُصطنع صبيًا أم بالغًا، إذ بدا أشدَّ بؤسًا من الاحتمالين. قصدَ صانعه أن يظهرَه سعيدًا، ذلك أن فمَه ممطوط عند زاويتيه، لكنَّ العين المتقشّرة والزاوية منَحَتاه منظرَ تعاسة مفرطة بدلًا من ذلك.

كرَّر نيلسون مستخدمًا لهجة السيد هيد نفسها:

- زنجيٌّ اصطناعيّ!

وقفَ الاثنان ماطّين رقبتيهما بالزاوية نفسها تقريبًا، وأكتافهما محنيَّة بالطريقة نفسِها تقريبًا، وأيديهما ترتعشُ ارتعاشًا متطابقًا في جيوبهما. بدا السيد هيد طفلًا عتيقًا، وبدا نيلسون عجوزًا مُصغرًا. وقفا يحدِّقان في الزنجي الاصطناعي كأنما يواجِههما لغزٌ عظيم، نُصب تذكاريٌّ لانتصار شخص آخر جمع شملهما في هزيمتِهما المشتركة. شعرَ كلاهما بأنه يذيب اختلافاتهما مثلما تفعل أعمال الرَّحمة*، ولم يعرفِ السيد هيد قطُّ الشعورَ الذي تثيره أعمال الرحمة، لأنه كان أفضلَ من أن يستحقَّ أيها، لكنه شعر أنه باتَ يعرف. نظر إلى نيلسون وفهم أن عليه قولَ شيء ما للطفل ليريه أنه

* أعمال الرحمة: مذكورة في التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ومستنبطة من مقاطع كتابية في العهد الجديد والقديم، وتقسم إلى أعمالِ الرحمة الجسدية وأعمال الرحمة الروحية. (المترجم).

ما يزال حكيمًا، ورأى في نظرةِ الصبي حاجة متعطِّشة إلى هذه الطمأنينة. بدتْ عينا نيلسون تتضرَّعان إليه أن يشرح سرَّ الوجود شرحًا واحدًا وأخيرًا.

فتحَ السيد هيد شفتيه ليقول قولًا متشامخًا ما، ثمَّ سمع نفسه يقول:

- لم ينالوا كفايتَهم من الزنوج الحقيقين هنا. اضطروا إلى جلب واحدٍ اصطناعي.

وبعدَ ثانية، أومأ الصبيُّ بينما تعلو فمَه ارتعاشة غريبة، وقال:

- فلنذهبْ إلى المنزل قبل أن نضيع ثانية.

انسلَّ القطارُ إلى موقف الضاحية توَّ وصولهما إلى المحطة، واستقلاه معًا، وقبل أن يحينَ موعدُ وصوله إلى التحويلة بعشْر دقائق، نهضا ووقفا على الباب مستعدّين للقفز عنه إن لم يتوقف، لكنه توقف، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها القمر، وقد استردَّ بهاءه المثالي، من قلب غيمة وأفاض الفسحة بنوره. وعندما مشيَا ارتعش العشبُ الناعم برفقٍ في تدرجات فضية، والتمع الآجر المُقسّى تحت أقدامهما بإشعاع عذب، وكانت قممُ الأشجار التي تسوّر العقدة كأسوار الحدائق أدكنَ من السماء التي تتدلَّى منها سحب بيضاء هائلة منيرة كالفوانيس.

وقفَ السيد هيد جامدًا تمامًا، وشعر بعمل الرَّحمة يلمسه ثانية، لكنه عرف أن هذه المرةَ لا توجد كلماتٌ في العالم يمكنها تسميته. عرف أنَّه مُنبعث من الألم، الذي لا يُمنَع عن أنسيّ، والذي يناله الأطفال بطرائق غريبة، وفهم أنه جُلُّ ما يمكن للإنسان حملُه إلى قبره وتقديمه لخالقه، واستعر الخزي فيه فجأة لأنه لا يملك إلا قليلًا منه يأخذُه معه. وقف مذعورًا، يحكم على نفسه بالشمولية التي يحكم بها الرَّب، بينما غطى عملُ الرحمة كبرياءه كألسنة اللهب وأتى عليها. لم يرَ نفسه غزيرَ الخطايا من قبل، لكنه باتَ يرى أن خِسَّته الحقيقية كانت محتجبة عنه لئلا تصيبه

باليأس. أدرك أنَّ خطاياه جميعها -منذ بدء الزمان، منذ حمل في قلبه خطيئة آدم، حتى الوقت الحاضر، عندما أنكر نيلسون المسكين- قد غُفرت، ورأى أنَّه لا توجد خطيئة أفحشُ من أن يعدَّها خطيئته، وبما أن الرب يحب بقدر ما يسامح، شعرَ في تلك اللحظة أنه جاهزٌ لدخول الفردوس.

راقبَه نيلسون، بينما يرتِّب تعابيره تحت ظلِّ حافة قبعته، بمزيج من الإعياء والرّيبة، لكن عندما انسلَّ القطار متخطِّيًا إياهما واختفى كثعبان خائفٍ في الغابة، تهلَّل وجهُه بعض الشيء ودمدم:

- سرَّني أن ذهبتُ مرَّة، لكنني لن أعيدها ثانية.

# النَّهر

وقف الطفلُ عابسًا ومُرتخيًا في منتصفِ غرفة الجلوس المعتمة بينما يُلبِسه أبوه معطفًا. كانت ذراعُه اليمنى عالقةً في الكُم، لكن أباه زرَّر المعطف بأيِّ حال ودفعه قُدمًا ناحية يدٍ شاحبة مُرقَّطة مُدَّت من الباب نصفِ المفتوح.

قال صوتٌ عالٍ من الردهة:

- ليس مُسوَّى كما يجب.

فغمغمَ الأب: "سوِّه إذًا بحقِّ المسيح، إنَّ الساعة السادسة صباحًا". كان حافيًا ولابسًا بُرنسَه، وعندما أوصل الطفلَ إلى الباب وحاول إغلاقه وجدها تلوح فيه؛ هيكلٌ عظميّ أرقطُ في معطف أخضرَ فاتحٍ وخوذة من اللباد. قالت:

- وأجرةُ المواصلات لي وله. سنحتاج إلى ضعفِ ما نملك لنستقلَّ العربة.

عادَ إلى غرفة النوم ليجلب المال، وعندما رجعَ وجدها والصبيَّ واقفين في منتصف الغرفة. كانت تتفحّص ما في الغرفة، وقالت بينما تهزُّه ليستقرَّ في معطفه:

- لا يمكنني أن أشمَّ أعقابَ السجائر المطفأة هذه طويلًا إن كنتُ سآتي لأجالسَك يومًا.

قال الأب: "هاكِ الفكة". وذهبَ إلى الباب ففتحه عن آخرِه ووقف ينتظر.

بعدَ أن أحصَتِ المال، أزلقتْه في مكان ما داخلَ معطفها ومشتْ إلى لوحة مائية معلَّقة بجوار الفونوغراف، ثمَّ قالت وهي تنظرُ إلى الخطوط السوداء التي تعبرُ إلى سهول خربةٍ صارخةِ اللون: "أعرفُ كم الساعة، ينبغي لي ذلك، فنوْبتي تبدأ في العاشرة مساء، ولا تنتهي حتَّى الخامسة، وأستغرق ساعةً لأستقلَّ عربة فاين ستريت".

فقال:

- أوه، فهمت. حسنًا، سنرتقبُ عودتَه الليلةَ نحو الثامنة أو التاسعة، ما رأيُك؟

- قد نتأخَّر، ذلك أننا سنذهبُ إلى النهر لجلسة علاج بالإيمان، فهذا المبشرُ بالتحديد لا يأتي إلى هذه الأنحاء كثيرًا. ثمَّ قالت، مشيرةً إلى اللوحة "ما كنتُ لأدفع مالًا مقابلَ هذه، بل كنت لأرسمها بنفسي".

فقال وهو ينقرُ على الباب:

- حسنٌ يا سيدة كونين، سنراك حينها.

جاء صوتٌ رتيبٌ من غرفة النوم:

- أحضرْ لي كيسَ ثلج.

فقالتِ السيدة كونين:

- يؤسفني جدًّا أنَّ أمَّه مريضة، ما خطبُها؟

ودمدمَ قائلًا:

- لا نعرف.

- سأطلب من المبشِّر أن يصلي لأجلها. لقد عالج أناسًا كثيرين.. المبجلُ بيفيل سمرز.. ربما يجب عليها أن تراه في وقتٍ ما.

فقال: "ربما. نراك الليلة". واختفى في غرفة النوم تاركًا إيّاهما ليذهبَا.

حدَّق الصبي الصغيرُ إليها بصمت، وأنفُه وعيناه يسيلان. كان في الرابعة أو الخامسة، وله وجهٌ طويل وذقن ناتئةٌ وعينان متباعدتان نصفُ مُغمضتيْن. بدا هادئًا وصبورًا، كخروفٍ عجوز ينتظر أن يُسمَح له بالخروج.

- سيروقُ لك هذا المبشِّر.. المبجل بيفيل سمرز.. عليك أن تسمعه يغني.

انفتح بابُ غرفة النوم فجأة، ومدَّ الأبُ رأسه قائلًا:

- إلى اللقاء أيها العجوز، فلتحظَ بوقتٍ ممتع.

فقال الصغيرُ قافزًا كأنه أُصيبَ برصاصة:

- إلى اللقاء.

نظرتِ السيدة كونين إلى اللوحةِ المائية مرةً ثانية، ثمَّ خرجَا إلى الردهة، وضغطت زرَّ المصعد. قالت:

- ما كنتُ لأرسمها.

في الخارج، كان الصباحُ الرمادي محتجبًا في الجانبين بالأبنية الخاوية المعتمة. قالت:

- سيصْحو الجوُّ لاحقًا، لكن هذه آخرُ مرَّة نحظى فيها بأيِّ تبشير عند النهر هذا العام. امسحْ أنفَك أيها الصبي الجميل.

فبدأ يفرُك أنفه بكُمّه لكنها أوقفته قائلة:

- هذا ليس مهذَّبًا. أين منديلك؟

أخذ يدسُّ يديه في جيوبه ويتظاهرُ بالبحث عنه بينما تنتظره، فغمغمت وهي تنظر لانعكاسها على نافذةِ المقهى: "بعضُ الناس لا يهمهم كيف يرسلون ابنَهم إلى الخارج. انظر إليّ". وأخرجت منديلًا مورّدًا أحمرَ وأزرق من جيبها، وانحنتْ تعمل على أنفه، وقالت: "نُفَّ الآن". فنفَّ، "يمكنك استعارتُه. ضعْه في جيبك".

طَواه ووضعَه في جيبه بعناية، ثمَّ مشيَا حتى الناصية، واتَّكئا إلى جانب صيدلية مُغلقة لينتظرا العربة. رفعتِ السيدة كونين ياقة معطفِها حتى التقت بقبَّعتها من الخلف، وبدأ جفناها بالتراخي لتبدو كأنها قد تغطُّ في النوم على الجدار، فضغطَ الصبي ضغطًا خفيفًا على يدها.

سألتْه بصوت ناعس:

- ما اسمُك؟ لا أعرف إلا اسمَ عائلتك. كان ينبغي لي استنتاجُ اسمك.

كان اسمُه هاري آشفيلد، ولم يفكرْ قبلًا بتغييره. لكنه هذه المرة أجاب:

- بيفيل.

رفعتِ السيدة كونين نفسَها عن الجدار وقالت:

- يا لَها من صدفة! لقد أخبرتك أنَّ هذا اسمُ المبشر! وردَّدَت "بيفيل!".

وقفتْ تنظر إليه كأنه صارَ معجزة بنظرها، وقالت:

- سأحرصُ على أن تقابلَه اليوم. ليس مبشرًا عاديًّا؛ إنَّه معالج، لكنه لم يستطعْ مساعدةَ السيد كونين. لم يتحلَّ السيد كونين بالإيمان لكنَّه أعرب ذاتَ مرةٍ عن استعداده لتجربة أيِّ شيء. إنه يعاني مغصًا في أحشائه.

ثمَّ ظهرتِ العربة مثل نقطةٍ صفراء في نهاية الطريق المقفر.

- ذهبَ إلى المشفى الحكومي بعد ذلك، واستأصلوا ثلثَ معدته. أقول له إنه مِن الأفضل أن يشكرَ يسوع على ما بقيَ لكنه يقول إنه لن يشكرَ أحدًا. يا للْعَجب وتمتمَت "بيفيل!".

ثمَّ مشيا إلى السكةِ لينتظرا، فسألها بيفيل:

- هل سيَشفيني؟

- ما خطبُك؟

صمت قليلًا ثم قال:

- أنا جائع.

- ألم تفطر؟

- لم أكُن قد جعتُ بعد آنذاك.

- حسنًا، سيأكل كلانا شيئًا ما عندما نصلُ إلى المنزل.

ركبَا العربة وقعدا خلفَ السائق ببضعة مقاعد، وأجلست السيدة كونين بيفيل على ركبتيْها، ثمَّ قالت: "والآن كُن فتًى خليقًا ودَعْني أنمْ قليلًا، لكن لا تنزل عن حجْري". وأرخَت رأسَها بينما يراقبها. أُغمضتْ عينيها تدريجيًّا، وانفتَح فمُها كاشفًا عن عدةِ أسنان طويلة متناثرة، بعضُها ذهبي وبعضها أدكنُ من وجهها، وبدأتْ تصفِّر وتنفخ مثلَ هيكل عظمي موسيقي. لم يكنْ في العربة غيرهما والسائق، وعندما رأى أنَّها نامت، أخرج المنديلَ المورّد ففردَه وراح يعاينه بدقة، ثمَّ طواه ثانيةً وفتح سحّابًا في بطانةِ معطفه الداخلية أخفاه فيه، وغطَّ في النوم بعد ذلك بقليل.

يبعدُ منزلها نصفَ ميل عن نهاية خط العربة، ويبتعد قليلًا عن الطريق، وهو مبنيٌّ من طوب حنطيّ اللون بشرفة تمتدُّ على واجهته، وسقف من الصفيح. كان في الشرفة ثلاثةُ صِبية مُختلفو الأحجام، لهم وجوه رقْطاء متطابقة، وبنتٌ طويلة ترفع شَعرَها بكثير من بَكَرات الألُمنيوم حتى صار يسطع. تبعهما الصبيةُ الثلاثة إلى الداخل وأحاطوا ببيفيل، وراحوا ينظرون إليه بصمت، من دونِ ابتسام.

قالتِ السيدة كونين بينما تخلعُ معطفها:

- هذا بيفيل. شاءتِ الصدفة أن يكون اسمُه كاسْم المبشر، والصِّبية هم: جيه. سي، وسبايفي، وسينكلير، وتلك سارا ميلدريد على الشرفة. اخلعْ معطفَك وعلقْه على قائمة السرير يا بيفيل.

راقبَه الصبيةُ الثلاثة بينما يفكُّ أزرارَ معطفه ويخلعه، ثمَّ راقبوه يعلقه على قائمة السَّرير، ثمَّ وقفوا يراقبونَ المعطف. استداروا فجأة بعدَ ذلك وذهبوا باتجاه الباب وعقَدوا اجتماعًا في الشرفة.

وقفَ بيفيل يقلّب نظرَه في الغرفة مِن حوله. كانت نصفَ مطبخ ونصف غرفة، وكان المنزل بأسْره مكوَّنًا من غرفتين وشرفتين. بالقرب من قدمه، تحرك ذيلُ كلبٍ فاتح اللون صعودًا ونزولًا بينَ لوْحين من ألواح الأرضية بينما يحكُّ ظهره بالجانب التحتيّ من المنزل، فقفزَ بيفيل عليه لكنَّ الكلب كان خبيرًا وسحبَ ذيله قبلَ أنَ تطأه قدماه.

كانتِ الجدران تعجُّ بالصور والتقاويم، وبينها صورتان مدوَّرتان لرجل وامرأة عجوزيْن بفميْن مُتداعيين، وصورةٌ أخرى لرجلٍ له حاجبان كثّان يتشابكان على نتوءٍ فوق أنفه، أمّا بقيةُ وجهه فتبرز مثلَ جرفٍ مكشوف يسقط المرءُ عنه. قالت السيدة كونين بعد أن تراجعتْ لحظة عنِ الموقد وكأنها تستكشف وجهَه: "هذا السيد كونين، لكنَّني ما عدتُّ أميلُ إليه". أعرضَ بيفيل عن السيد كونين لينظر إلى صورةٍ ملوَّنة فوق السرير لرجل يرتدي ملاءةً بيضاء. كان له شعرٌ طويل ودائرة ذهبية تلفُّ رأسه، وكان ينشرُ لوحًا خشبيًّا بينما يراقبه بعضُ الأطفال. أوشك بيفيل على سؤالها عنه وقتَما عاد الصبيةُ الثلاثة وأشاروا إليه ليتبعَهم. فكّر بالزحفِ تحت السرير والتشبُّث بإحدى أرجله لكنَّ الصبيةَ الثلاثة وقفوا وحسب، صامتينَ ينتظرونه، وتبعَهم بعدَ لحظة على مسافة قصيرة إلى الشرفة ثمَّ إلى وراء

زاويةِ المنزل. انطلقوا عبرَ حقلٍ من الحشائش الصفراء الجافة إلى حظيرة الخنازير، وهي مربعٌ مسوَّر بألواحٍ يبلغ ارتفاعها خمسَ أقدام ويعجُّ بالخنازير الصغيرة كانوا ينْوون طمأنتَه بالحيلة ليدخلها. وعندما وصلوا استداروا وانتظروا صامتين، مُتكئين إلى جانبها.

راحَ يتقدَّم ببطء، ويضرب رجليْه ببعضهما عمدًا كأنما يُعاني مشكلة في المشي. كان قد تعرَّض للضرب ذات مرةٍ في الحديقة على أيدي بعض الصِّبية الغرباء وقتما نسيتْه جليستُه، لكنه لم يعرف آنذاك أنَّ شيئًا ما سيحدث حتى انتهى كلُّ شيء. بدأ يشمُّ رائحة قمامةٍ قوية، ويسمع ضجيجَ حيوان برّي، فتوقف على بُعد بضعةِ أقدام من الحظيرة وانتظر، شاحبًا لكنه مُعاند.

لم يتحركِ الصبيةُ الثلاثة، وبدا أنَّ شيئًا ما قد أصابهم؛ إذ حدَّقوا فوقه كأنهم رأوا شيئًا قادمًا من خلفه، لكنه خافَ أن يدير رأسَه وينظر. كان نمشُهم باهتًا وعيونهم جامدةً ورمادية كالزجاج، إلا إنَّ آذانهم ارتعشت بعضَ الارتعاش. لم يحدث شيء. وأخيرًا، قال الواقفُ في المنتصف: "سوف تقتلنا"، واستدارَ منقبضًا ومغتاظًا، فتسلَّق جدارَ الحظيرة وتدلَّى يحدق داخلها.

قعدَ بيفيل على الأرض، وقد خدَّره الارتياح، وابتسم لهم.

نظرَ إليه الجالسُ على سور الحظيرة نظرةً حادَّة وقال بعد لحظة: "هيه أنت، إن كنتَ عاجزًا عن التسلق ورؤية هذه الخنازير، فيمكنك رفعُ ذاك اللوح في الأسفل والنَّظر من خلاله". وبدا أنه يعرض ذلك تلطّفًا.

لم يكنْ بيفيل قد رأى خنزيرًا حقيقيًّا قط، لكنه رأى واحدًا في كتاب، وما يعرفه هو أنَّها حيوانات صغيرةٌ بدينة ورديَّةُ اللون، لها أذيالٌ ملتفَّة، ووجوه بسّامة مدوَّرة، وربطاتُ عنق فراشيَّة الشكل، فانحنى إلى الأمام وشدَّ اللوح بتلهُّف.

قال أصغرُ الفتيان:

- شُدَّه بقوة أكبر؛ إنَّه رديء ومتعفِّن، ما عليك إلا نزعُ المسمار.

فهزْهَز مسمارًا طويلًا محمرًّا حتى خرجَ من الخشب الهشّ.

ثمَّ همَّ صوتٌ هادئ يقول:

- والآن، يمكنك رفعُ اللوح وحشرُ وجهِك في الـ...

كان قد فعلَ ذلك بالفعل، وراح وجهٌ آخر رماديٌّ ورطبٌ وكريه، يقحمُ نفسَه في وجهه، فطرحَه أرضًا بينما يشقُّ طريقه من تحت اللوح، ثمَّ نخرَ فوقه وانقضَّ ثانية، وراح يدحرجه ويدفعُه من خلفه مرسلًا إيّاه يصرخ عبر الحقل الأصفر بينما يقفز وراءه.

راقبَ الإخوة كونين الثلاثة من حيث وقفوا، وثبتَ الجالس على سور الحظيرة اللّوح الرَّخو في مكانه بقدمِه المُتدلية. لم تتهللْ وجوهُهم الكالحة ألبتَّة لكنهم بدوْا أقلَّ توترًا، كأنَّ حاجةً عظيمة ما لديهم قد لُبِّيت جزئيًّا. قال أصغرهم:

- ستنزعج ماو من أنَّه أخرجَ الخنزير، لن يعجبها ذلك.

كانتِ السيدة كونين على الشرفةِ الخلفية وأدركتْ بيفيل عندما وصل إلى الدَّرجات. وصل الخنزيرُ إلى أسفل المنزل ثمَّ هدأ وأخذ يلهث، لكن الطفل ظلَّ يصرخُ لخمس دقائق، وعندما هدّأته أخيرًا أعطتْه فطورَه وأجلسته في حجرها بينما يأكلُه. صعدَ الخنزير الصغير الدرجتيْن إلى الشرفة ووقف أمام الباب الشَّبكي يحدِّق في الداخل ورأسُه مُخفَض بحزن، وكان طويلَ الساقيْن ومسنَّم الظهر، وجزءٌ من إحدى أذنيه مقطوع.

صرختِ السيدة كونين:

- ابتعد! ثمَّ قالت "هذا الواقف هناك يحبُّ السيد بارادايس صاحبَ محطة الوقود. ستراه اليومَ في المعالجة. إنه مصابٌ بسرطان في أذنه، ودائمًا ما يأتي ليُظهِر أنه لم يَشفَ".

وقفَ الخنزير يحدّق لبضع ثوانٍ إضافية ثمَّ ابتعدَ على مَهل، فقال بيفيل:

- لا أريدُ أن أراه.

مشى الجميع باتّجاه النهر، هو والسيدة كونين في المقدمة، والصبيةُ الثلاثة مُتَسلسلين خلفهما، وسارا ميلدريد -البنت الطويلة- في المؤخرةِ لتصيح إن تقاعسَ أحدُهم على الطريق. بدوْا أشبهَ بهيكل قاربٍ قديم برأسيْن مدبَّبين يُبحر على مهَل على جانب الطريق السريع. تبعتهم شمسُ يوم الأحد على مسافةٍ قريبة، متسلقة بسرعةٍ زبدًا من السَّحاب الرمادي كأنها تنْوي تجاوزهم. مشى بيفيل على الطرف الخارجي مُمسكًا بيدِ السيدة كونين، وخافضًا نظرَه إلى مجرى الماء البرتقالي والأرجواني المنْحدر من الإسمنت.

مرَّ في باله أن الحظَّ حالفه هذه المرةَ لأنهم وجدوا السيدة كونين التي تأخذه يومًا بدلًا من جليسةٍ عادية تجالسه حيث يعيشُ أو تأخذه إلى المتنزَّه وحسب. يكتشف المرءُ أشياء أكثرَ عندما يغادر مكانَ معيشته، وقد اكتشف هذا الصباح أن من جاء به نجارٌ اسمُه يسوع المسيح. كان يظنُّ قبلًا أنه طبيبٌ اسمه سليدوول، وهو رجل بَدين بشاربٍ أصفر يعطيه حقنات، ويظنُّ أنَّ اسمه هيربرت، لكن لا بدَّ أن هذه مزْحة، فالناس يمزحون كثيرًا حيث يعيش. لو أنَّه فكر في الأمر من قبلُ لظنَّ أنَّ المسيح كلمة مثل "أوه" أو "اللعنة" أو "رباه"، أو ربما شخصًا نصب عليهم بطريقةٍ ما في وقت ما. عندما سألَ السيدة كونين عن الرجل لابسِ الملاءة في الصورة المعلَّقة فوق سريرها، نظرتْ إليه لبعض الوقت وفمُها مفتوح، ثمَّ قالت: "إنَّه يسوع المسيح"، وظلت تنظر إليه.

وفي غضون بضع دقائق، كانت قد نهضتْ وجلبت كتابًا من الغرفة الثانية، وقالت بينما تقلبُ الغلاف: "انظر، كان هذا ملكًا لجدَّتي، وما كنتُ لأفارقه كرمى لشيء على وجْه البسيطة"، ثمَّ مرَّرت أصابعَها تحت بعض الكتابة البُنية على صفحة مبقَّعة، وقالت: "إيما ستيفنز أوكلي، 1832. أليس شيئًا جديرًا بالامتلاك؟ وكل كلمةٍ فيه حقيقة رسوليَّة"، ثمَّ قلبتِ الصفحة الأولى وقرأتِ الاسم: "حياة يسوع المسيح للقرّاء تحت سنِّ الثانية عشرة"، وقرأتْ عليه الكتاب.

كان كتابًا صغيرًا، لونُه بني باهتٌ من الخارج، له حوافُّ ذهبية ورائحة كرائحة المَعجون القديم، ويعجُّ بالصور. صوَّرت إحداها النجّار يُخرج حشدًا من الخنازير من رجل. كانت خنازيرَ حقيقية، رمادية وكريهة المنظر، وقالت السيدة كونين إنَّ يسوع أخرجَها كلَّها من هذا الرجلِ وحدَه، وعندما أنهتِ القراءةَ تركته جالسًا على الأرض لينظرَ إلى الصور ثانية.

قبلَ أن يغادروا إلى المعالجة، تمكنَ من إخفاء الكتاب في بطانةِ معطفه من دون أنْ تراه، ما أدَّى إلى تدلي أحد جانبي المعطف أكثرَ من الآخر. كان ذهنه حالمًا ومطمئنًا بينما يمشون، وعندما انعطفوا عنِ الطريق السريعة إلى ممرٍّ طيني أحمرَ طويلٍ يتعرَّج بين ضفتين، بدأ يقفز قفزاتٍ عالية ويشدُّ يدها إلى الأمام كأنه يريد الارتفاعَ واختطافَ الشمس التي صارت تتدحرج أمامهم.

مشوا على الطريق التّرابية لبعض الوقت ثمَّ عبروا حقلًا منقطًا بحشائش أرجوانية، ودخلوا ظلالَ غابة مفروشة بإبر الصنوبر السميكة. لم يدخل غابة من قبْل، فراح يمشي بحذرٍ وينقّل نظرَه من جانب لآخر كأنه يدخل بلادًا غريبة. تقدَّموا على معبر خيولٍ يتعرَّج هابطًا بين الأوراق الحمراء المطقطقة، ومرةً بينما كان ممسكًا بغصنٍ ليحمي نفسه من الانزلاق، نظرَ في عينين خضراوين ذهبيَّتين متجمدتين تطوّقهما الظلمةُ في ثقب شجرة.

وفي سفح التلة، انفتحت الغابةُ فجأةً على مرج مرقط بأبقار سوداء وبيضاء متناثرة، وينحدر طبقة تلوَ الطبقة إلى جدولٍ برتقالي واسع حيث استوى انعكاسُ أشعة الشمس كألماسة.

وقفَ أناسٌ على الضفة القريبة يغنون، ومن خلفهم مُدَّت طاولاتٌ طويلة ورُكنت بضعُ سيارات وشاحنات في الطريق الصّاعدة بجوار النهر. عبروا المرجَ مُسرعين لأنَّ السيدة كونين رأت عندما ظللت عينيها بيدِها المبشّرَ واقفًا بالفعل في الماء، فألقت سلتَها على إحدى الطاولات ودفعتِ الصبيةَ الثلاثة أمامها إلى زمرةِ الناس حتى لا يؤخّرهم الطعام، وأبقتْ بيفيل في يدها بينما تعبرُ بالتدريج إلى المقدمة.

كان المبشرُ واقفًا على بُعد عشْرِ خطوات تقريبًا في الجدول حيث يصل الماء إلى ركبتيْه، كان شابًّا طويلًا يلبس بنطالًا كاكيًّا كَفَّه حتى فاقَ مستوى الماء، وقميصًا أزرق، ويلفُّ عنقَه بوشاح أحمرَ، ولا يعتمرُ قبعة، وشعرُه الفاتح مقصوصة سوالفُه لتلتفَّ إلى تجويفي خدَّيْه، وعظامُ وجهه بارزة ينعكس عليها اللون الأحمرُ عنِ النهر، فبدا كأنه ربَّما في التاسعة عشرة من عمره. كان يغني بصوت عالٍ أخنّ، أعلى من صوتِ الغناء على الضفة، مبقيًا يديْه وراءه، ورأسه مائلًا إلى الخلف.

اختتمَ الترنيمة بنغمةٍ عالية ووقف صامتًا يحدّق إلى الماء وينقّل قدميه فيه، ثمَّ رفعَ نظره إلى الناس على الضفة. كانوا واقفين متلاصقين، ينتظرون، وجوهُهم جديَّة لكنها مترقّبة، وكلُّ العيون عليه. نقّل قدميه ثانية، وقال بالصوتِ الأخنّ:

- ربَّما أعرف لمَ أتيتم، وربما لا أعرف. إنْ لم تكونوا قادمين من أجل يَسوع فلستم بقادمين من أجلي، وإن جئتم لا لشيء إلا لتروا ما إن كان بإمكانكم طرحُ آلامكم في النهر، فلم تأتوا من أجل

يسوع. لا يمكنكم طرحُ آلامِكم في النهر. لم أقُل ذلك لأحدٍ من قبْل. وسكت ثمَّ راح يحدق أسفلَ ركبتيْه.

صاحَ صوت عالٍ مفاجئ من كتلة الناس:

- رأيتُك مرةً تشْفي امرأة! رأيت المرأةَ تنهض وتخرجُ باستقامة من حيث دخلتْ تعرج!

رفعَ المبشرُ إحدى قدميه ثمَّ رفعَ الثانية، وبدا أنه يكادُ يبتسم، وقال:

- يفضَّل أن تذهب إلى منزلك إن كانَ هذا ما جئتَ من أجله.

ثمَّ رفع رأسَه وذراعيه وصرخ:

- أنصتوا لمَا أقول أيها الناس! لا يوجد إلا نهرٌ واحد هو نهرُ الحياة، والمخلوقُ من دماء يسوع. هذا هو النهرُ الذي يجب أن تطرحوا آلامَكم فيه؛ نهر الإيمان، نهر الحياة، نهر الحب، نهرُ دماء يسوع الأحمر النَّفيس يا أيها الناس!

وصارَ صوتُه بعد ذلك ناعمًا وموسيقيًّا:

- كلُّ الأنهار تتفرَّع من ذاك النهر الواحدِ وتصبُّ فيه كأنه المحيط، وإن تؤمنوا يمكنكم طرحُ ألمِكم فيه والتخلصُ منه لأنه النهرُ المخلوق ليحمل الخطيئة. إنه نهرٌ يزخر بالألم نفسه. الألمُ نفسُه يسير إلى مملكة المسيح ليُغسَل، ببطء أيها الناس، ببطء، كنهرِ الماء الأحمر القديم هذا حول قدميّ.

ثمَّ راح يغنّي:

- أنصتوا، أقرأ في إنجيل مرقس عنْ رجل وسخ، وأقرأ في لوقا عن رجل أعْمى، وأقرأ في يوحنا عن رجلٍ ميت! اسمعوا أيها الناس! إن الدماءَ نفسَها التي حمّرت هذا النهر برّأت الأبرص، وفتحتْ عيني الأعمى، وأوثبَت الميّت! (وصاح) يا أيها المكْروبون، ألقوا

كروبَكم في نهر الدم، ألقوها في نهرِ الألم، وراقبوها ترحلُ إلى مملكة المسيح.

وبينما يبشّر، تبعتْ عينا بيفيل بخمولٍ الدوراتِ البطيئةَ لطائرين صامتين يحومان عاليًا، وفي الطرفِ الآخر من النهر امتدَّ بستان خفيضٌ من أشجار الساسافراس الحمراء والذهبية، من خلفِه تلالٌ من أشجار زرقاء داكنة تبرز فيها شجرةُ صَنوبر بين الحينِ والآخر فوق خطِّ الأفق. وفي المسافة وراء ذلك، نهضتِ المدينةُ مثل عنقودٍ من الثآليل على خاصرة الجبل. حوّم الطائران نزولًا وحطّا بخفَّة على قمةِ أعلى شجرات الصَّنوبر، وجثمَا محدبيْن أكتافهما كأنَّهما يسندان السماء.

قال المبشِّر:

- إن كان نهرُ الحياة هذا هو ما تنشدونَ طرحَ آلامكم فيه فتعالوا، وألْقوا ضرّاءَكم هنا، لكن لا تحسبوا أنَّ هذه نهايتُه لأنَّ هذا النهرَ الأحمر القديم لا ينتهي هنا. إنَّ هذا الجدول الأحمر العتيق المتألّم يمضي قُدُمًا يا أيُّها الناس، يمضي بأناةٍ إلى مملكة المسيح. هذا النهرُ الأحمر القديم ملائم ليتعمَّد المرءُ فيه، ملائمٌ ليلقي إيمانَه فيه، ملائمٌ ليطرح ألمَه فيه، لكن ليستْ هذه المياه الموحِلة ما يخلّصُكم. لقد قضيتُ هذا الأسبوع أصعد النَّهر وأهبطه، كنتُ الثلاثاء في فورتشن ليك، واليوم التالي في آيديال، والجمعة ذهبتُ بالسيارة رفقةَ زوجتي إلى لولاويلو لأعاين مريضًا هناك. لم يرَ أولئك الناس أيَّ معالجة، (قالها وتأجَّج وجهه أحمرَ للَحظة) لم أقُلْ قط إنَّهم سيرؤن.

وبينما يتكلم، بدأ جسمٌ مرفرف بالتقدُّم في حركة تشبه حركةَ الفراشة، وكانت عجوزًا بذراعيْن مرفرفتين يتقلقلُ رأسُها كأنه قد يسقط في أيِّ ثانية. تمكنَّت من الانخفاض عندَ حافَّة الضفة، وترك الماء يخضُّ ذراعيها، ثمَّ انحنتْ أكثر وأقحمتْ وجهَها فيه ونهضتْ أخيرًا مبلَّلة يجري الماءُ عليها، وما تزال ترفرف، دارَت بعدَ ذلك مرةً أو اثنتيْن في دائرةٍ طائشة حتى مدَّ شخصٌ ما يدَه وأعادها إلى المجموعة.

صرخَ صوت أجشّ: "إنَّها على هذي الحال منذ ثلاثين سنة، مرِّروا القبعة فيما بينَكم وامْنحوا هذا الصبيَّ ماله، فهذا ما جاء من أجله". كانتِ الصرخةُ الموجهة إلى الصَّبي في النهرِ صادرةً عن رجلٍ عجوز ضخم يجلس كصخرةٍ محْدودبة على مِصدِّ سيارة رمادية طويلةٍ وعتيقة. كان معتمرًا قبعةً رمادية أخفضها على إحدى أذنيه ورفعَها فوق الثانيةِ لتكشفَ عن تورُّم أرجواني على صدغه الأيسر، ويجلسُ منحنيًا إلى الأمام، وذراعاه تتدلَّيان بين ركبتيه، وعيناه الصغيرتان نصف مُغمضتين.

حدَّق بيفيل إليه مرةً واحدة ثمَّ خبأ نفسَه بين طيّات معطفِ السيدة كونين.

ألقى الصبيُّ الواقفُ في النهر نظرةً سريعة إلى الرجل العجوز ورفع قبضته ثمَّ صاح:

- آمِن بيسوع أو بالشيطان! اشهدْ لواحدٍ منهما!

ثمَّ نادى صوتُ امرأة مستترٌ من زمرة الناس:

- أعرف مِن تجربتي الخاصة، أعرفُ منها أنَّ هذا المبشرَ قادرٌ على الشفاء. لقد فُتحَت عينيّ! أشهدُ ليسوع!

رفعَ القسُّ ذراعيه بسرعة وراحَ يعيد كلَّ ما قاله عن النهر ومملكة المسيح، وجلسَ الرجل العجوز على المصدِّ يحدجه بنظرةٍ شَزْراء، بينما ينظر إليه بيفيل بينَ الحين والآخر من خلفِ السيدة كونين.

انحنى رجلٌ يلبس مَيْدعةً ومعطفًا بنيًّا، وغمسَ يدَه في الماء بسرعة، ثمَّ هزَّها وعادَ إلى وقفته، وحملتِ امرأةٌ طفلًا فوق حافَّة الضفة، وبلَّلت قدميه بالماء. ابتعد رجلٌ بعضَ الشيء وجلسَ على الضفَّة، ثمَّ نزعَ حذاءه وخاضَ في الجدول، فوقف هناك لبضع دقائق ووجهُه مائلٌ بقدر استطاعته، ثمَّ خاض عائدًا وانتعلَ حذاءه. وفي خلال هذا الوقت كلِّه كان المبشرُ يغني ويبدو عليه أنه لا يراقب ما يجري.

حالما كفَّ عن الغناء، رفعتِ السيدة كونين بيفيل وقالت:

- أيها المبشِّر، عندي اليوم صبيٌّ من البلدة أرْعاه. أمُّه مريضة ويريدك أن تصلِّي لأجلها. ومِن المصادفة أنَّ اسمه بيفيل! بيفيل (واستدارت لتنظرَ إلى الناس من خلفها) كمثلِ اسمك. أليستْ مصادفة عجيبة؟

تبادلَ الناس بعضَ الغمغمة والتفتَ بيفيل مبتسمًا من فوق كتفِها للوجوه المحدقة إليه، ثمَّ قال بصوتٍ جذل عالٍ: "بيفيل".

قالتِ السيدة كونين:

- اسمع، هل عُمدتَّ من قبْل يا بيفيل؟

فابتسمَ وحسب.

فقالتِ السيدة، رافعةً حاجبيها للمبشِّر:

- لقد شككتُ في أنه لم يُعمَّد قط.

قال المبشِّر: "مرِّريه لي"، وخطا خطوةً والتقطه.

حملَه في حنية ذراعه ونظرَ إلى الوجْه المبتسم، فقلبَ بيفيل عينيْه بطريقةٍ هزلية ومدَّ رأسه إلى الأمام قريبًا من وجْه المبشِّر وقال: "اسمي بيفففيييييل"، بصوت عالٍ عميق، وترك رأسَ لسانه ينزلق على فمه.

لم يبتسم المبشِّر. كان وجهُه بارزَ العظام، متجهمًا، وعيناه الرماديتان الضيقتان تعكسانِ السماء عديمةَ اللون تقريبًا. أطلق الرجلُ الجالس على مصدِّ السيارة ضحكةً مُجلجلة، وقبضَ بيفيل على مؤخرةِ ياقة المبشِّر بإحكام. كانت الضحكة قد زالتْ عن وجهِه بالفعل، وانتابه شعورٌ مفاجئ بأنَّ ما يجري ليس مزحة؛ حيث يعيش كان كلُّ شيء مزْحة. ومن وجه المبشِّر، عرف فورًا أنْ لا شيء مما قاله أو فعلَه مزْحة، فقال بسرعة: "سمَّتني أمّي بهذا الاسم".

سأله المبشِّر:

- هل عُمِّدتَّ من قبْل؟

فغمْغم:

- وماذا يعني ذلك؟

- إنْ عمدتَّك؛ فستتمكنُ من الذهاب إلى مملكةِ المسيح. ستُغسل في نهرِ العذاب يا بني، وستمضي في نهرِ الحياة العميق. أتريد ذلك؟

فقالَ الطفل: "أجل". وفكَّر في خلده: لن أرجعَ إلى الشقة بعد ذلك، بل سأنزل تحتَ النهر.

قال المبشِّر: "لن تعود الشخصَ نفسه، بل ستؤخَذ في الحسبان"، ثمَّ أدار وجهَه إلى الناس وبدأ بالتَّبشير، ونظرَ بيفيل من وراء كتفِه إلى قطع الشمس البيضاء المُتناثرة في النهر. قال المبشِّر فجأة: "حسنٌ، سأعمدُك الآن"، ومن دون أيِّ تنبيه إضافيٍّ أحكمَ قبضته وقلبَه رأسًا على عقب

غاطًّا رأسه في الماء، وأبقاه في الأسفل بينما ينطقُ بكلماتِ العمادة ثمَّ جذبَه ثانية ونظرَ بصرامة إلى الطفل اللّاهث، وكانتْ عينا بيفيل داكنتين ومتوسّعتين، وقال: "صرت مُحتسبًا الآن، وقبلًا ما كنت تُحتسب".

منعتِ الصدمةُ الطفلَ الصغير من البكاء، فبصقَ الماء الموحل ومسح بكمَّيه المبلَّلين عينيه ووجهَه.

نادَتِ السيدة كونين:

- لا تنسَ أمَّه؛ يريدك أن تصلّي لأجلها، فهي مريضة.

فقال المبشِّر:

- يا رب، نصلي إليكَ من أجل شخص مُبتلًى وليس حاضرًا ليشهَد. (وسأله) هل أمُّك مريضةٌ في المشفى؟ هل تتألم؟

حدَّق الطفلُ إليه، وقال بصوتٍ عالٍ مذْهول: "لم تنهض بعد. إنها تعاني الخُمار". وهدأ الجوُّ حتى صار بوسْعه سماع قطع الشَّمس المتكسّرة تدقّ الماء.

بدَا المبشِّر غاضبًا ومشدوهًا. تلاشى اللونُ الأحمر من وجهه، واكفهرَّت السماء في عينيه، ثمَّ سُمعت قهقهةٌ صاخبة من الضفة، وصرخَ السيد بارادايس: "هاه! اشفِ المرأةَ المصابة بالخُمار!" وراح يضرب ركبتَه بقبضته.

قالتِ السيدة كونين، بينما تقفُ معه في باب الشقة وتنظر بحدَّة إلى داخل الغرفة التي تدخلُها الجماعة: "لقد كان يومُه طويلًا، وأحسبُ أنه تجاوز ميعادَ نومه المعتاد". كانت إحدى عيني بيفيل مُغْمضة والأخرى نصفُ مغمضة، وكان أنفُه يسيل فأبقى فمَه مفتوحًا ليتنفَّس منه، ومعطفه المنقوش الرطب يجرُّ خلفه من جانبٍ واحد.

استقرَّ رأيُ السيدة كونين على أنَّ هذه لا بدَّ هي، تلك التي ترتدي بنطالًا أسود؛ بنطالًا أسود من الساتان وصندلًا، وأظافرُ قدميها مطليَّة بالأحمر. كانت مستلقيةً على نصف الكنبة، وركبتاها مُتصلّبتان في الجو، ورأسُها مستندٌ إلى ذراعها، ولم تنهَض.

قالت: "أهلًا يا هاري، أكان نهارُك حافلًا؟" كان لها وجهٌ طويل شاحب، أملس، وخالٍ من التَّعابير، وشعرُ مسْتَرسل بلون البطاطا الحلوة، مشدودٌ إلى الخلف.

ذهبَ الأب ليجلب المال، تاركًا في الغرفةِ زوجين آخرين. انحنى أحدُ الرجلين -وكان أشقرَ بعينين زرقاوين بنفسجيَّتين- من كرسيه وقال:

- حسنًا أيها العجوز هاري، هل كان نهارُك حافلًا؟

قالتِ السيدة كونين:

- اسمُه ليس هاري، بل بيفيل.

فقالتْ "هي" من الكنبة:

- اسمُه هاري، مَن سمع من قبْل بشخص اسمه بيفيل؟

كان الصبيُّ الصغير يبدو كأنه سيغفو واقفًا، ورأسُه يتدلى أكثرَ فأكثر، لكنه شدَّه إلى الخلف فجأةً وفتح إحدى عينيه، أمّا الأخرى فظلَّت ملتصقة.

قالتِ السيدة كونين بصوتٍ مصدوم:

- لقد أخبرني هذا الصباح أنَّ اسمه بيفيل، كاسْم مبشِّرنا. قضيْنا النهارَ كله في جلسةِ تبشيرٍ ومُعالجة عند النهر. قال إنَّ اسمَه بيفيل، مثل اسم المبشِّر. هذا ما أخبرَني به.

قالت أمُّه:

- بيفيل! رباه! يا له من اسْم.

فقالتِ السيدة كونين: "اسمُ المبشِّر بيفيل، ولا يوجَد مبشِّر خيرٌ منه في الجوار"، ثمَّ أردفَت بصوتٍ مُتَحدٍّ: "وعلاوةً على ذلك، فقد عمَّد الصبيّ في هذا الصباح".

استقامتْ أمُّه في جلستها فورًا وغمغمت:

- يا لوقاحَتك!

- إنه مُعالج أيضًا، وصلَّى من أجلك لتشفي.

كادتْ تصرخ:

- أشفى! أشفى ممّاذا بحقِّ المسيح؟

فقالتِ السيدة كونين ببرود:

- مِن ابتلائك.

كانَ الأب قد عادَ بالمال ووقفَ بجوار السيدة كونين منتظرًا ليعطيها إياه، وصارت عيناه مبطنة بخيوط حمراء. قال: "تابعي، تابعي، أريد سماع المزيد عن ابتلائها، فقد أفلتت طبيعته الدقيقة من..." ثمَّ لوَّح بالورقة النقدية وخفَت صوتُه إلى دمْدمة: "العلاجُ بالصلاة في منتهى الرُّخْص".

وقفتِ السيدة كونين لثانيةٍ تحدِّق في الغرفة، ولها مظهرُ هيكلٍ عظمي يرى كلَّ شيء. ثمَّ -ومن دون أن تأخذ المال- استدارتْ وأغلقتِ الباب من خلفها. دار الأبُ حول نفسِه مبتسمًا ابتسامةً مُبهمة، وهزَّ كتفيه، وكان البقيةُ يحدِّقون إلى هاري، فبدأ الصبيُّ يمشي متثاقلًا إلى غرفة النوم.

قالتِ الأم: "تعال إليَّ يا هاري". فبدَّل اتجاهَه إليها آليًّا من دون أن يفتح عينه أكثر، وقالت عندما وصلَ إليها: "أخبرني بما حدثَ اليوم"، وبدأت تنزعُ عنه معطفَه.

فتمتم:

- لا أعرف.

قالت: "بلى تعْرف". وشعرت بأنَّ أحدَ جانبي المعطف أثقل من الآخر، ففتحت سحّاب البطانةِ وأمسكت الكتابَ والمنديل القَذر عندما سقطَا: "مِن أين لك هذه؟".

فقال: "لا أعرف". ومدَّ يده يمسكهما: "إنَّهما لي؛ لقد أعطتني إياهما".

رمَتِ المنديل ورفعتِ الكتاب فما عادَ يصل إليه، وراحت تقرؤه، ثمَّ اكتسَا وجهُها بعدَ ثانية تعبيرًا هزليًّا متطرِّفًا. التفَّ البقية ونظروا إليه من فوق كتفها، وقال أحدُهم: "ربّاه".

تمعَّن أحدُ الرجال فيه بشدةٍ من وراء نظاراتٍ سميكة، وقال: "هذا كتاب ثمين، مِن الأغراض التي يثمِّنها هواةُ التَّجميع"، ثمَّ أخذَه من بقيَّتهم وتراجع إلى كرسي آخر.

وقالتْ فتاتُه:

- لا تتركوا جورج يستولي عليه.

فقال جورج:

- أقول لك إنَّه ثمين، من عام 1832.

بدَّل بيفيل اتجاهَه ثانية إلى الغرفة التي ينام فيها، فأغلق البابَ من خلفه ومشى ببطءٍ في الظلام إلى السرير، وقعدَ ليخلع حذاءه، ثمَّ نزلَ تحت الغطاء. وبعد دقيقة، أدخلَ عمودٌ من الضوء ظلَّ أمَه الطويل. مشَت على رؤوس أصابعها بخفَّة عبرَ الغرفة، وقعدتْ على حافَّة سريره وهمست:

- ماذا قال ذلك المبشِّر المخبولُ عنّي؟ أيّ كذباتٍ حكاها اليوم يا حبيبي؟

أغمضَ عينه وسمع صوتًا قادمًا من بعيد، كأنه تحتَ النهر وهي فوقه، فهزَّت كتفَه وقالت بعد أنِ انْحنت وقرَّبت فمَها من أذنه: "أخبرني بما

قاله يا هاري"، ثمَّ شدَّته مُجلسةً إياه، وشعرَ بأنه سُحبَ من تحت النهر، وهمست: "أخبرني"، وغطَّت أنفاسُها اللاذعة وجهَه.

رأى الوجهَ البيْضويّ الشاحبَ قريبًا منه في الظلمة، فتمتم:

- قال إنَّني لم أعُد مثلما كُنت. صرت أُحتسب.

بعدَ لحظة، أنزلته من مقدمةِ قميصِه على الوسادة، وتدلَّت فوقه قليلًا ولمسَت جبهتَه بشفتيها، ثمَّ نهضتْ وابتعدت، مُهَزْهزة وَركيْها بعضَ الشيء في عمود الضَّوء.

لم يستيقظْ مبكرًا، لكنَّ الشقة كانت ما تزال مُعتمةً ومُطبقة عندما فعل، فاستلقى مكانَه لبعض الوقت، ينكش أنفَه وعينيه، ثمَّ جلسَ في سريره ونظر من النافذة. دخلتِ الشمسُ شاحبة، وبقَّعها الزجاج بالرمادي، وفي فندق إمباير على الطرف الآخر من الشارع، وقفتْ عاملة تنظيف ملوّنة تنظر من نافذةٍ علوية إلى الأسفل، مُسندَة وجهَها إلى ذراعيها المطويَّتين. نهض وانتعلَ حذاءه وذهب إلى الحمام ثمَّ إلى غرفة الجلوس. أكل بسكويتَتين عليهما معجونُ الأنشوجة وجدَهما على طاولة القهوة، وشرب بعضَ جعَّة الزنجبيل المتبقّية في قنّينة، وبحثَ عن كتابه لكنه لم يجدْه.

كانتِ الشقةُ هادئة لا تُسمَع فيها إلا همهمةُ البراد الضعيفة. ذهب إلى المطبخ ووجدَ بعضَ أعقاب خبز الزبيب، فنشرَ بينها نصفَ برطمان من زبدة الفول السوداني وتسلَّق مقعدَ المطبخ الطويل وقعدَ يمضغ شطيرتَه ببطء، ويمسح أنفَه بينَ الحين والآخر بكتفِه. عندما أنهاها، وجد بعضَ الحليب بالشوكولاتة وشربه. كان يفضِّل أن يشرب جعَّة الزنجبيل التي رآها لكنَّهم وضعوا فتاحاتِ القناني حيث لا يصلُ إليها. فحصَ ما بقيَ في البرّاد لبُرهة: بعض الخضار الذابلة التي نسيَت أنها موجودة، والكثيرُ من البرتقال البُني الذي اشترته ولم تعصرْه، وثلاثة أو أربعةُ أنواع من الجبنة،

وشيء مُريب ما في كيس ورقي، أما البقية فعظامُ خنزير. ترك بابَ البرّاد مفتوحًا وتمشّى عائدًا إلى غرفة الجلوس المعتمة وقعدَ على الكنبة.

افترضَ أنهما سيظلّان فاقدي الوعي حتى الساعة الواحدة، وسيضطرون إلى الذّهاب إلى مطعم ليتناولوا الغداء. وبما أنه لم يبلغ الطولَ الكافي ليجلس إلى الطاولة بعْد؛ سيجلب النادلُ له كرسيًّا عاليًا، وقد صار أكبرَ سنًّا من الجلوس في كرسي عالٍ. قعدَ في منتصف الكنبة، يركلُها بكعبيه، ثمَّ نهض وراح يطوف الغرفة، وينظرُ في المَنافض إلى أعقابِ السجائر كأنَّ النظرَ فيها عادة ما. لديه في غرفته كتبٌ ومجاميع مصوّرة لكنها ممزَّقة في معظمها، إذ وجد أنَّ الطريقة للحصول على أخرى جديدةٍ هي تمزيقُ القديمة. لم يكُن أمامَه الكثير مما يفعله في أيّ وقتٍ إلا الأكل، غير أنَّه لم يكن صبيًّا بدينًا.

قرَّر أنه سيفرغ بعضَ المَنافض على الأرض، ذلك أنه إذا أفرغ بعضَها فقط فستظنُّ أنها سقطت. أفرغَ اثنتين، وفركَ الرماد في السجادة بعناية بأصبعِه، ثمَّ استلقَى على الأرض لبعض الوقت، يفحص قدميْه اللّتين رفعهما في الجو. كان حذاؤه ما يزال رطبًا، وبدأ يفكرُ بالنهر.

وببطء شديد، تغيَّرت تعابيرُه كأنه يرى بوضوحٍ ما لم يكن يعلمُ أنه يبحث عنه، ثمَّ عرفَ فجأة ما يريد فعله.

نهضَ ومشى على رؤوس أصابعِه إلى غرفة نومهما ووقفَ في الضوء الخافت هناك، يبحث عنْ محفظتها. مرَّت نظرتُه على ذراعها الطويلة الشاحبة المتدلية عن حافّة السرير إلى الأرض، وعبرتِ التلة البيضاء التي شكّلها أبوه، وتجاوزت الصوانَ المكتظ، حتى استقرَّت على محفظتها المعلقة على ظهر الكرسي. أخرج منها تذكرةَ عربة ونصفَ حزمةٍ من حلوى لايف سيفرز، ثمَّ غادرَ الشقة واستقلَّ العربة عندَ الناصية. لم يأخذ معه حقيبةً لأنه لا يرغبُ بالاحتفاظ بشيء من هنا.

نزلَ من العربة عند نهاية الخط، وانطلقَ في الطريق الذي قطعَه والسيدة كونين في اليوم السابق. كان يعرف أنْ لا أحد في منزلها لأنَّ الصبية الثلاثة والبنت قد ذهبوا إلى المدرسة، وأخبرتْه السيدة كونين أنها تخرجُ لتعمل في التنظيف. تجاوز فناءَها ومشى في الطريق الذي عبَروه إلى النهر. كانتِ البيوتُ المبنية من الطوب الحنْطي بعيدةً عن بعضها. وبعد فترةٍ من الزمن، انتهتِ الطريق الترابية التي يمشي عليها وصارَ عليه المشيُ إلى جانب الطريق السريع، وكانت الشمسُ صفراءَ باهتة ومرتفعةً وحارة.

عبَر كوخًا أمامَه مضخةُ وقودٍ برتقالية، لكنه رأى العجوزَ لا يراقب شيئًا بعينه من المدخل. كان السيد باراديس يشرب مشروبًا برتقاليًّا، فأنهاه على مهلٍ، ونظر خازرًا من فوق الزجاجة إلى الجسدِ الصغير المكتسي معطفًا منقوشًا يختفي في آخرِ الطريق، ثمَّ وضعَ الزجاجة الفارغة على مقعد، ومسح فمَه بكمّه وما يزال خازرًا، ودخل إلى الكوخ بعدَ ذلك فالتقط عودَ نعناع -طولُه قدم وعرضُه بوصتان- من رفِّ الحلوى، وأقحمَه في جيبه الخلفي، ثمَّ ركب سيارتَه وقادها ببطءٍ على الطريق السريع وراء الصبي.

ريثما وصلَ بيفيل إلى الحقل المنقَّط بالحشائش الأرجوانية، كان متخبّرًا ومتعرقًا، إذ قطعَه هرولةً ليصلَ إلى الغابة بأسرع وقتٍ ممكن، وحالما صار في الداخل راحَ يطوف من شجرةٍ إلى أخرى محاولًا إيجادَ الممرّ الذي عبروه البارحة. وجد في آخرِ الأمر دربًا رسمتْه أقدامُ المارة بينَ إبر الصَّنَوبر وتبعَه حتى رأى الطريقَ المُنحدر يتعرَّج بين الأشجار.

كان السيد باراديس قد ترك سيارتَه إلى الخلف بعضَ الشيء على الطريق، ومشى إلى المكان الذي اعتادَ الجلوس فيه كلَّ يوم تقريبًا حاملًا صنارة صيد بدون طعم، بينما يحدّق إلى النهر في مُروره من أمامه، فيرى أيَّ شخص ينظر إليه من بعيدٍ صخرةً قديمة نصفَ مختبئة بين الشجيرات.

لم يرَه بيفيل ألبتَّة. لم يرَ شيئًا إلّا النهر، يتلألأ بلونٍ أصفر مُحمر، فقفز إليه بحذائه ومعطفه وجرعَ جرْعة. ابتلع بعضَها وبصقَ البقية ثمَّ وقف هناك والماءُ يصل إلى صدره، ونظرَ من حوله. كانتِ السماء زرقاء باهتة ورائقة، وكلها قطعةٌ واحدة -فيما عدا الشمس- مُهدَّبٌ أسفلُها بقمم الأشجار. طفا معطفُه على سطح الماء وأحاطَ به مثلَ زنبقةٍ غريبة زاهية، ووقف يبتسمُ في الشمس. اعتزم ألّا يعابث المبشّرين بعد الآن بل أنْ يعمّد نفسَه بنفسه، ويستمرَّ في مُضيّه هذه المرَّة حتى يجد مملكةَ المسيح في النهر. لم يرِدْ إهدارَ المزيد من الوقت، فأنزل رأسَه تحت الماء دفعةً واحدة ودفع نفسَه إلى الأمام.

وفي غضونِ ثانية، بدأ يشهقُ ويُرشرش الماء، وعاد رأسُه للظهور على السطح، فنزلَ من جديد وحدثَ الأمرُ نفسُه. أبى النهرُ قبولَه، فحاول ثانية وخرج يختنق. هذا ما جرى عندما أنزله المبشّر إلى الأسفل؛ اضطُرَّ إلى قتال شيء ما يدفعه إلى الأعلى، فتوقف وفكرَ فجأة: إنها مزْحة أخرى، إنها مزحةٌ أخرى! فكّر في مدى المسافة التي قطعها سدًى وبدأ يضرب النهرَ القَذر ويركله ويرشُّ ماءه. وعندما لم تعدْ قدماه تلمسان الأرضَ أطلقَ صيحة ألم وغيظٍ واحدة ضعيفة، ثمَّ سمع صرخةً وأدار رأسَه فرأى شيئًا يشبه خنزيرًا عملاقًا يقفز خلفَه بينما يهزُّ هِرَواة حمراء وبيضاء ويصيح. غاصَ تحت الماء مرَّة، وهذه المرة، قبضَ عليه التيار الهادئ مثلَ ذراعٍ طويلة وادعة وشدَّه بسرعة إلى الأمام والأسفل، وللحظة، غلبته المفاجأة، ثمَّ.. ولأنَّه كان يتحرك بسرعةٍ وعرف أنه سيصلُ إلى مكان ما غادرَه كلُّ حنقِه وخوفه.

راح رأسُ السيد بارادايس يظهرُ من حينٍ لآخر على سطح الماء. وأخيرًا، بعيدًا في أسفل النهر، نهضَ الرجل العجوز مثلَ وحشٍ مائي قديم، ووقفَ خالي اليدين، يحدّق بعينيه الذابلتيْن إلى أبعدِ نقطةٍ يبلغها بصرُه من أفق النهر.

## دائرةٌ في النار

أحيانًا، يكون الصفُّ الأخير من الأشجار جدارًا متينًا بلون أزرق رمادي أدكنُ قليلًا من السماء، لكنه في هذه الظهيرة يكاد يكون أسود، والسماء من خلفه بيضاء مزرقَّة ساطعة. قالت السيدة بريتشارد: "أتعرفين تلك المرأةَ التي وضعت طفلها في جهاز التنفس الاصطناعي؟" كانت وأمُّ الطفلة تحت النافذة التي تنظر الطفلة منها، متكئة إلى المدخنة بيديْن مطويَّتين فوق رفِّ بطنها، وقدم مستندة إلى إبهام يشير ناحية الأرض. كانت امرأةً جسيمة، لها وجهٌ صغير مُدبَّب، وعينان نِمسيتان ثابتتان، أما السيدة كوب فبعكسِها؛ ضئيلة وأنيقة، ولها وجهٌ واسع مُدوَّر، وعينان سوداوان بدتَا تكبُران باستمرار وراءَ نظاراتها كأنها لا تنفكُّ تنذهل، وكانت مقرفصة تقتلع الأعشابَ من أحواض الزرع الجانبية. اعتمرتِ المرأتان قبعتين شمسيتين كانتا مُتطابقتين فيما مضى، لكنَّ قبعة السيدة بريتشارد بهُت لونُها وضاع شكلُها، في حين ظلَّت قبعة السيدة كوب مشدودةً وخضراء فاقعة.

أجابت السيدة كوب:

- قرأت عنها.
- كانت من آل بريتشارد، وتزوَّجت من آل بروكينز، لذا فهي نسيبتي؛ بنتُ عمّي من الدرجة السابعة أو الثامنة عن طريق الزواج.
- حسنًا، حسنًا.

غمغمتِ السيدة كوب ذلك، ورمَت خلفها كتلةً كبيرة من عشب السعد المستدير. كانتْ مُنشغلة بالحشائش والسَّعد المستدير كأنها شرٌّ أرسله الشيطانُ بنفسه ليدمِّر المكان.

قالتِ السيدة بريتشارد:

- بما أنَّها قريبتنا، ذهبنا لرؤية الجثة، ورأينا الطفل الصغير كذلك.

لم تقلِ السيدة كوب شيئًا، فهي معتادةٌ هذه القصص المُشئِمة، فقد أرهقتْ أعصابها. كانت السيدة بريتشارد مستعدَّة لقطع ثلاثين ميلًا حتى تشبع رغبتَها برؤية جثمان يُدفَن. ودائمًا ما كانت السيدة كوب تغير الحديثَ إلى موضوع مُبهج، لكنَّ الطفلة انتبهت إلى أنَّ ذلك لا يفيد شيئًا إلا تعكير مزاج السيدة بريتشارد.

ظنَّت الطفلة أنَّ السماء الخاوية تبدو كأنها تدفع سورَ الحصن محاولةً اختراقه، وكانتِ الأشجار في الطرف الآخر من الحقل القريب خليطًا من الأخضر الرمادي والأخضر المصفرّ. لطالما قلقتِ السيدة كوب من نشوب الحرائق في غابتها، وكلما اشتدَّ عصف الليالي تقول للطفلة: "رباه! صلِّ معي ألا تنشب أيُّ حرائق، فالجوُّ عاصف للغاية"، فتتذمَّر الطفلة من وراء كتابها أو لا تجيبها بالمرة لأنها سمعتْ هذا الكلام كثيرًا. وعندما تجلسان على الشرفة في أمسيات الصيف، تقول السيدةُ كوب للطفلة التي تتعجَّل في قراءتها لتستغلَّ الضوء حتى آخر خيوطه: "انهضي وانظري إلى الغروب، إنه رائع. عليك النهوضُ والنظر إليه"، فتتجهَّم الطفلة ولا تجيبها، أو تلقي نظرةً واحدة إلى المرج والمرعيَين الأماميين وصفِّ الأشجار الأزرق الرماديّ المنتصب مثلَ حارس ثمَّ ترجع إلى القراءة من دون أن تتبدلَ تعابيرها، وأحيانًا تُدمدم نذالةً:

- يبدو أنَّ ثمة حريقًا. حريٌّ بك أن تنهضي وتشمّي الجوارَ لتتأكدي من أن الغابات ليست مستعرَة.

تابعتِ السيدة بريتشارد: "كانت محيطةً إيّاه بذراعها في النعش"، لكن صوت الجرّار الذي يقوده الزّنجي، كالفر، من الحظيرة باتجاه الشارع غطى صوتَها. كانتِ العربة معلقةً به، وثمَّة زنجي آخر يجلسُ في المؤخرة يتنططُ وقدماه تهتزّان على ارتفاع قدم تقريبًا من الأرض. قادَ الجالس على الجَرَّار عابرًا البوابة التي تؤدّي إلىً الحقل الممتدّ على اليسار.

أدارتِ السيدة كوب رأسَها ورأت أنه لم يدخلْ من البوابة لأن كسلَه منعه من النُّزول لفتحها واتَّخذ الطريقَ الطويل من حولها على حسابها، فصاحت:

- قولي له أنْ يتوقف ويأتي إليّ.

رفعتِ السيدة بريتشارد نفسَها عن المدخنة ولوَّحت بذراعها في دائرة عنيفة، لكنه تظاهرَ بعدم سماعها، فتبخترَت إلى حافة المرج وصرخت:

- قلتُ لك انزل؛ إنَّها تريدك!

فنزلَ واتَّجه ناحية المدخنة، دافعًا رأسه وكتفيه قُدُمًا مع كلّ خطوة ليوحي مظهره بأنَّه مستعجل. كان رأسه ناتئًا في قبعةٍ قماشية بيضاء خططها العرق بتدرجات مُتفاوتة، وانخفض طرفُها حتى خبأ تحته كلَّ شيء إلا الجزء السفلي من عينيه المحمرَّتين.

كانتِ السيدة كوب جاثيةً على ركبتيها، موجهةً المجرفة إلى الأرض. سألته: "لمَ لم تدخُل من البوابة؟" وانتظرت بعينين مُغمضتين وفمٍ مستطيل كأنها مستعدَّة لأي إجابة سخيفة.

قال: "علينا رفعُ الشفرة على الحصادة إذا أردنا فعلَ ذلك"، وحطّت نظرته الثاقبة إلى يَسارها بعضَ الشيء. كان زنوجها مُخرِّبين وعديمي الشخصية بقدر نبات السعد المستدير.

وعندما فتحتْ عينيها، بدا أنَّهما ستستمران بالاتساع حتى تقلبَا داخلها خارجًا. ثمَّ قالت: "ارفعها"، مشيرةً إلى الطريق بالمجرفة، وغادر.

قالت:

- لا يعنيهم الأمرُ في شيء. لا يحملون مسئولية. أشكرُ الربَّ على أن هذه الأمور لا تحدث دفعةً واحدة، وإلا أهلكوني.

صاحتِ السيدة بريتشارد في وجْه صوت الجرار: "أجل كانوا ليهلكوكِ"، ثمَّ فتح البابَ ورفع الشفرة وقادَ الجرار عبرَ البوابة باتّجاه الحقل، فتلاشى الضجيجُ مع اختفاء العربة، وتابعتْ بصوتها الطبيعي:

- لا أفهم كيف أنجبَته فيها.

كانتِ السيدة كوب ما تزال جاثية وقد عادتْ إلى قلع السعد المستدير بعنف. قالت:

- لدينا الكثيرُ ممّا يجب أن نكون شاكرينَ عليه. ينبغي لك أن تصلي صلاةَ الشكر كلَّ يوم. أتفعلين ذلك؟

- أجل يا سيدتي. ظلت فيها لأربعة أشهر قبل أن تحبل حتى. يبدو لي أنني لو كنت في إحداها، لكففتُ عن... كيف تحسبين أنهما...؟

قالت السيدة كوب: "أصلّي صلاة الشكر كلَّ يوم. فكِّري بكل ما لدينا"، ثمَّ تنهَّدت وأردفت: "رباه، لدينا كلُّ شيء"، ونظرت حولها إلى مراعيها الخصبة وتلالها المُثقلة بالأشجار، وهزَّت رأسها كأنَّ ذلك كله عبء تحاول إنزاله عن عاتقها.

تمعَّنت السيدة بريتشارد بالغابة وعقّبت:

- لستُ أملك إلّا أربعة خراجات في أسناني.

فغضبتِ السيدة كوب وألقت وراءها كتلةً من العشب قائلةً:

- إذًا، فاشْكري الله أنها ليست خمسة. قد يدمّرنا إعصار كلنا، ويمكنني أن أجدَ رغم ذلك شيئًا أكون شاكرةً عليه.

حملتِ السيدة بريتشارد معزقةً مستندة إلى جدار المنزل وضربت برفقٍ عشبة ناتئةً من بين طوبتين في المدفئة بينما تقول: "ربما يمكنُك أنت"، بصوتٍ أخنّ أكثرَ من المعتاد وفيه مسحة ازدراء.

تابعتِ السيدة كوب:

- ربّاه! فكري بكلِّ أولئك الأوروبيين التعساء، الذين يضعونهم في شاحنات نقلٍ مثل الماشية ويحملونهم إلى سيبيريا. يجب علينا قضاءُ نصف وقتنا راكعين.

فقالتِ السيدة بريتشارد وهي تحكُّ كاحلَها بطرف المعزقة:

- ما أعرفه هو أنّني لو كنتُ في جهاز تنفس اصطناعي لامتنعتُ عن فعل بعض الأشياء.

- حتّى تلك المرأة المسكينة لديها الكثيرُ ممّا يجب أن تشكر الله عليه.

- يمكنُها أن تشكره على أنها ليست ميتة.

قالتِ السيدة كوب: "بالتأكيد"، ثمَّ وجّهت المجرفة إلى السيدة بريتشارد وأردفت: "عندي أفضلُ منزل منظَّم في المقاطعة، أتعلمين لمَ؟ لأنني أعمل. اضطررت إلى العملِ لأنقذ هذا المكان، وإلى المزيد من العمل لأحافظ عليه"، مؤكدةً على كلِّ كلمة بالمجرفة، "لا أسمح لأيّ شيء بأن يتفوقَ عليَّ ولا أقضي وقتي باحثة عن المتاعب، بل أستقبلها عندما تأتي".

همَّت السيدة بريتشارد تقول:

- وإنْ جاءت كلها دفعة واحدة يومًا ما..

فردَّت السيدة كوب بحدَّة:

- لا تأتي كلها دفعةً واحدة.

كان نظرُ الطفلة يصل إلى حيث يلتقي الطريقُ الترابي بالطريق السريع، ورأت شاحنةَ نقل تتوقف عند البوابة. ترجَّل منها ثلاثة صبية أخذوا يمشون على الطريق الترابي الورديّ في رتل واحد، ويحمل أوسطُهم حقيبة سوداء لها شكلُ خنزير أحناه ثقلُها على جانبه.

قالتِ السيدة بريتشارد:

- حسنًا، إن حدثَ ذلك أبدًا فلا يسعك فعلُ شيء إلا رفع يديكِ استسلامًا.

لم تُجبِ السيدة كوب على ذلك. طوَت السيدة بريتشارد ذراعيها وراحت تحدق إلى نهاية الطريق كأنها قادرةٌ بسهولة على رؤية تلك التلال الجميلة تندكُّ فتصير هباءً، ثمَّ رأتِ الصبية الثلاثة الذين أوشكوا على بلوغ الممشى الأمامي، وقالت:

- انظري هناك، مَن تحسبينهم؟

تراجعتِ السيدة كوب مسندةً نفسها إلى ذراع وضعتها خلفها ونظرت إليهم. تقدم الثلاثةُ ناحيتهما كأن نيَّتهم متابعة المشي من أمام البيت، وقد صار حامل الحقيبة في طليعتِهم، وأخيرًا، توقف على بُعد أربعةِ أقدام تقريبًا منها وقَعَد. بدا الصبية الثلاثةُ متشابهين إلى حدٍّ ما، باستثناء متوسط الحجم منهم الذي يلبس نظارات فضيَّة الإطار ويحمل الحقيبة. كان في إحدى عينيه انحرافٌ طفيف جعل نظرته قادمةً من اتجاهين معًا كأنها تحاصرهما، ويلبس قميصًا فضفاضًا عليه مُدمِّرة باهتة، لكن صدرُه غائر

حدَّ أنَّ المدمّرة بدت مكسورةً في منتصفها وموشكة على الغرق، وقد ألصق العرق شعرَه بجبهته. بدا في الثالثة عشرة تقريبًا، وكانت نظراتُ الثلاثة باردة وثاقبة. قال:

- أظنُّ أنك لا تذكرينني يا سيدة كوب.

غمغمتْ بينما تتفحَّصه:

- وجهُك مألوف بلا شك. دعنا نرى...

فلمَّح لها:

- كان أبي يعمل هنا فيما مضى.

- بويد؟ أبوك السيد بويد وأنتَ جيه. سي. صحيح؟

- كلا، أنا باول، ابنُه الثاني، لم أكبُر إلا قليلًا مذ ذاك الحين، وأبي ميتٌ الآن. لقد توفي.

قالتِ السيدة كوب كأنما لا يُؤلفُ الموت أبدًا:

- توفّي! يا إلهي! ما كان خطبُ السيد بويد؟

بدَا أنَّ إحدى عيني باول تجولُ في المكان، وتعاين المنزلَ وبرجَ الماء الأبيض من خلفه وأقنانَ الدجاج والمراعي التي تنبسط في كلا الجانبين حتى تلتقي بصفِّ الأشجار الأوَّل من الغابة، بينما تنظر الثانية إليها. قال: "توفِّي في فلوريدا"، وأخذَ يركل الحقيبة.

غمغمت: "يا إلهي"، ثمَّ قالت بعدَ ثانية: "وكيف حال أمِك؟".

قال: "تزوَّجت ثانية". وظلَّ يراقب قدمَه تركل الحقيبة، بينما يحدق الآخران إليها بسأم.

- وأينَ تعيشون كلكم الآن؟

- في أتلانتا. تعلمين، في تلك المساكن الجديدة.

قالت: "حسنًا، أفهم ذلك"، وكرَّرتها بعد لحظة: "أفهم ذلك"، ثمَّ سألت أخيرًا: "ومَن هؤلاء الصبية؟" بينما تبتسم لهم.

قال: "هذا غارفيلد سميث، وهذا دبليو. تي. هاربر"، مشيرًا برأسه خلفًا إلى الصَّبي الضخم أولًا، ثمَّ إلى الصغير.

- كيف حالكم أيُّها الفتية؟ هذه السيدة بريتشارد. السيد والسيدة بريتشارد يعملان هنا الآن.

تجاهلوا السيدة بريتشارد، التي وقفت تراقبهم بعينيْن ثابتتين خرزيتين، وبدا الثلاثةُ معلقين في مكانهم، ينتظرون، ويراقبون السيدة كوب.

فقالتْ ناظرةً إلى الحقيبة:

- حسنًا حسنًا، لطفٌ منكم أن تتوقَّفوا لرؤيتي. إنها بادرة طيبة بحق.

شعرَت أنَّ تحديقة باول تقرصُها مثل كُلَاب، وقال بصوتٍ أصْحَل:

- عدتُّ لأطمئن على حالك.

قال الصبي الأصغر حجمًا:

- أنصتي؛ إنه يحكي لنا عن هذا المكان منذُ عرفناه. قال إنه يحوي كلَّ شيء. قال إنَّ فيه خيولًا، وإنه عاش أفضلَ أوقات حياته في هذا المكان. إنَّه يتكلم عنه طوال الوقت.

وقال الصبي الضخمُ ناخِرًا: "لا يكفُّ حديثًا عن هذا المكان ألبتَّة!"، ماسحًا أنفه بذراعه كأن قصدَه كتمُ كلماته.

وأردفَ الصغير:

- دائمًا ما يتكلم عنِ الخيول التي امتطاها هنا، وقال إنه سيسمح لنا بامتطائها كذلك. قال إنَّ أحدها اسمه جين.

لطالما خشيتِ السيدة كوب أن يتعرض أحدٌ ما للأذى في أرضها ويقاضيها فيحصل على جميع أملاكها؛ لذا قالت بتعجُّل: "إنها غيرُ

محتذية"، ثمَّ أردفت متكلمةً بسرعة شديدة: "كان بينها حصان اسمُه جين لكنه مات، وأخشى أن لا يمكنكم ركوبُ الأحصنة أيها الصبية؛ لأنَّ ذلك قد يعرضكم لأذى، فالأحصنةُ خطِرة".

قعدَ الصبي الضخمُ على الأرض مصدرًا جعجعةَ تأفّفٍ وبدأ يخرج الأحجار بأصبعه من حذائه الرياضي، أمّا الأصغرُ فراح يرشق المكان بنظراته، بينما ظلَّ باول محدِّقًا بها من دون أن يقول شيئًا.

قال الصغيرُ بعد لحظة:

- أتعرفينَ ما قاله ذات مرَّة أيتها السيدة؟ قال إنه يريد أن يُدفَن هنا عندما يموت!

للحظة، خلا وجهُ السيدة كوب من التعابير، ثمَّ احمرّ، ثمَّ اكتسَا مظهرًا متألمًا غريبًا عندما أدركت أنَّ هؤلاء الأطفال جائعون. كانوا يحدقون لأنهم جائعون! كادتْ تشهق في وجوههم، ثمَّ سألتهم بسرعةٍ عمّا إن كانوا يرغبون بشيء يأكلونه. أجابوا بالإيجاب، لكنَّ وجوههم -المتزمّتة والمستاءة- لم تنشرح ألبتَّة. بدا عليهم أنهم مُعتادون الجوع، وأنَّ ذلك ليس من شأنها.

احمرَّ وجهُ الطفلة حماسةً، وركعت إزاءَ النافذة بحيث لا يظهر إلا عيناها وجبهتُها من فوق العتبة. طلبتِ السيدة كوب من الفتية المجيءَ إلى الجانب الآخر من المنزل حيث توجد كراسٍ قابلة للطَّي، وترأست الطريق بينما تبعتها السيدة بريتشارد، فانتقلتِ الطفلة من غرفة النوم اليمنى عبرَ الرواق إلى غرفة النوم اليُسرى، ووقفت تنظرُ إلى الأسفل حيث توجد ثلاثة كراس بيضاء وأرجوحة شبكيَّة حمراء مُدَّت بين شجرتي بندق. كانت بنتًا بدينة شاحبة عمرها اثنتا عشرة سنة، ولها نظرة عابسة وفمٌ كبير مملوء بالأشرطة الفضية. ثمَّ ركعت أمامَ النافذة.

التفَّ الصبية الثلاثة حول ركنِ المنزل، ثمَّ ألقى الضخمُ نفسَه في الأرجوحة وأشعلَ عقب سيجارة، ورمى الصغيرُ نفسَه على العشب بجوار الحقيبة السوداء مرخيًا رأسَه عليها، بينما جلس باول على حافَّة إحدى الكراسي وبدا كأنه يحاول تطويقَ المكان كلِّه بنظرة محيطةٍ واحدة. سمعتِ الطفلة أمها والسيدة بريتشارد تتشاوران بصوتٍ منخفض في المطبخ، فذهبت إلى الرواق وانحنت من فوق مسند الدرج.

رأتْ ساقي السيدة كوب قبالةَ ساقي السيدة بريتشارد في الرواق الخلفي، وسمعت السيدة كوب تقول بصوتٍ جامد:

- هؤلاء الأطفالُ التعساء جوعى.

- أرأيتِ الحقيبة؟ ماذا لو كانوا ينْوون قضاءَ الليلة عندك؟

زعقتِ السيدة كوب زعقةً خفيفة ثمَّ قالت:

- لا يمكنني استقبالُ ثلاثة صبية هنا ولا يوجد إلاي وسالي فرجينيا. واثقةٌ أنَّهم سيرحلون بعد أن أطعمهم.

- لا أعرف إلا أن معهم حقيبة.

عادتِ الطفلة بسرعة إلى النافذة. كان الصبي الضخمُ متمدِّدًا في الأرجوحة؛ معصماه مشبوكان تحتَ رأسه، وعقبُ السيجارة في وسط فمه. بصقه فرسم قوسًا في الجوّ بينما تلفُّ السيدة كوب حولَ ركن المنزل حاملة صحنًا من رقائق البسكويت، فتوقَّفت مباشرةً كأنما قطعت أفعى طريقَها وقالت:

- آشفيلد! التقطْه لو سمحت، إنني أخشى الحرائق.

صاحَ الصبي الصغير باستياء:

- إنَّه غاوفيلد! غاوفيلد!

رفعَ الصبي الضخمُ نفسَه من دون أن ينطق بكلمة، وراح يبحث عن العقب بتثاقل، ثمَّ التقطَه ووضعه في جيبه ووقف مديرًا ظهرَه لها يعاين قلبًا موشومًا على ساعده. جاءتِ السيدة بريتشارد حاملةً ثلاث قناني كوكا كولا بيدٍ واحدة، وأعطت كلًّا منهم قنينة.

قال باول بينما ينظرُ في فتحة قنينته:

- أذكر كلَّ شيء يتعلق بهذا المكان.

سألتْه السيدة كوب: "إلى أين ذهبتم بعد أنْ غادرتمونا؟" ووضعت صحنَ الرقائق على ذراع كرسيه.

فنظرَ إليه لكنه لم يأكل منه، وقال:

- أذكر أنَّ أحدها كان اسمه جين، وأحدها جورج. ذهبنا إلى فلوريدا، وكما تعلمين، ماتَ أبي، ثمَّ ذهبنا إلى منزل أختي، ثمَّ تزوجت أمي، كما تعلمين أيضًا، وظللنا هناك مذْ ذاك الحين.

قالتِ السيدة كوب: "هاك بعضُ الرقائق"، وجلست في الكرسي المقابل له.

فقال الصبيُّ الصغير بعد أن جلس ومدَّ يده بلا مبالاة يتناول رقاقة:

- لا تروقُ له أتلانتا. لم يرضَ قطّ بأيِّ مكان سَكَنَه إلا هذا المكان. دعيني أخبرُك بما كان يفعل يا سيدتي؛ اسمعي، عندما كنّا نلعب الكرة في تلك المنشأة التي يُسمَح لنا باللعب فيها، كان يتوقف عن اللعب ويقول "تبًّا! ثمَّة حصان هناك اسمه جين، لو أنَّه معي هنا لامتطيتُه حتى تفجر الجحيم من الإسمنت تحته".

قالتِ السيدة كوب:

- أنا واثقة أنَّ باول لا يستخدم كلماتٍ كهذه، صحيح يا باول؟

قال باول: "صحيح يا سيدتي"، ورأسُه مُدارٌ جانبًا بكامله كأنَّه ينصت لأصوات الخيول في الحقل.

وقال الصبيُّ الصغير: "لا أحبُّ هذا النوع من الرقائق"، ثمَّ أعاد الرقاقة إلى الصحن ونهض.

تزحزحتِ السيدة كوب في كرسيها قائلةً:

- إذن تعيشون في أحدِ تلك المساكن الجديدة الجميلة أيها الصبية.

تطوَّع الصبي الصغير بالقول:

- لا يمكن للمرء تمييزُ مسكنه إلا من خلال الرائحة، ذلك أنها من أربعة طوابق وثمَّة عشر منها، يتلو واحدُها الآخر. دعينا نرى الخيول.

وجَّه باول نظرتَه القارصة إلى السيدة كوب وقال:

- كنّا نفكر بأن نمضي الليلةَ فقط في الحظيرة، فقد جلبنا عمّي بشاحنته إلى هنا، وسيقلّنا في الصباح.

سادَ صمتٌ لم تقُل فيه شيئًا، وظنَّت الطفلة في النافذة أنها ستطيرُ من كرسيها وتصطدم بالشجرة. ثمَّ قالت وهي تنهض:

- أخشى أنه لا يمكنُكم ذلك، فالحظيرة تعجُّ بالقش، وأخاف أن ينشب حريقٌ بسبب سجائركم.

- لن ندخّن.

كرَّرت كأنها تخاطب رجلَ عصابة بأدب:

- أخشى أن لا يمكنكم قضاءُ الليلة هناك رغم ذلك.

فقال الصَّبي الصغير:

- حسنًا، يمكننا التخييمُ في الغابة إذًا. لقد جلبنا بطانياتنا بأي حال، وهي ما يملأ تلك الحقيبة. هيّا بنا.

- في الغابة، أوه لا! الغابة في غايةِ الجفاف الآن، لا يمكنني السماحُ للناس بالتَّدخين في غابتي! ستضطرّون إلى التخييم في الحقل، في هذا الحقل بجوار المنزل، حيث لا توجد أشجار.

قالتِ الطفلة همسًا:

- حيث يمكنُها مراقبتكم.

غمغمَ الطفل الضخم: "غابتها"، وخرجَ من الأرجوحة.

قال باول: "سننامُ في الحقل"، لكن كأنه ليس يخصُّها بالكلام، "وهذه الظهيرة سآخذُهما بجولة في الأرجاء". كان الآخران قد بدءا المشيَ بالفعل، فنهض يقفز في أثرهما وظلَّت المرأتان جالستين والحقيبة السوداء بينهما.

عقَّبت السيدة بريتشارد:

- بدون أن يقولوا "لا شكرًا"، بدون أي شيء.

وقالتِ السيدة كوب بصوت مجروح:

- بالكاد لمسوا ما أعطيناهم من طعام.

فاقترحتِ السيدة بريتشارد أنهم ربما لا يحبونَ المشروبات الغازية.

أجابتْها السيدة كوب:

- بدَا عليهم أنهم جائعون بلا شك.

خرجوا من الغابة عند غروب الشمس تقريبًا، متَّسخين ومتعرقين، وعادوا إلى الشُّرفة طالبينَ الماء. لم يطلبوا الطعام، لكنَّ السيدة كوب عرفت أنهم يريدونه، وقالت:

- ليسَ عندي إلا بعض الغِرغِر البارد، أترغبون أيها الصبية بالغرْغِر والسندويتشات؟

قال الصَّبي الصغير:

- لن آكلَ شيئًا أصلعَ كالغِرْغر. يمكن أن آكلَ دجاجًا أو ديكًا روميًّا، لا غِرْغرًا.

وقال الصبيُّ الضخم: "الكلبُ يرفض أكلها". كان قد نزع عنه قميصَه وحشره في مؤخر سرواله كالذيل. تحاشتِ السيدة كوب النظرَ إليه تحاشيًا حذِرًا، ورأت أنَّ ذراع الصبي الصغير مجروحة.

سألتْهم السيدة كوب والشكُّ يملؤها: "لم تمتطوا الخيولَ بعد أن طلبت منكم ألا تفعلوا ذلك أيُّها الصبية، صحيح؟"، فأجابوا معًا: "لا يا سيدتي". بأصوات متحمّسة صاخبة تشبه صيحاتِ "آمين" التي تُسمع في كنائس الريف.

دخلَتْ إلى المنزل لتحضِّر لهم السندويتشات، وبينما تحضِّرها راحت تحادثهم من داخل المطبخ، فسألتهم عن عملِ آبائهم وعدد إخوتهم وأخواتهم ومدارسهم، وأجابوها بجُملٍ قصيرة متفجّرة بينما ينكز أحدُهم كتفي الآخر ويتلوَّى جميعهم ضحكًا كأنَّ لأسئلتها معان لا تُدركها.

- وهل المعلّمون في مدرستكم رجال أم نساء؟

قال الصبيُّ الكبير ساخرًا:

- بعضٌ من الاثنين، وبعضٌ لا يمكن تمييز جنسه.

فسألتْ بسرعة:

- وهل تعمل أمُّك يا باول؟

صاحَ الصبي الصغير:

- لقد سألتك عمّا إن كانت أمُّك تعمل! إنَّ دماغه متأثر بالخيول التي رآها وحسب. أمُّه تعمل في مصنع وتتركه ليهتمَّ ببقية إخوته، لكنه لا يهتم بهم جيدًا. دعيني أخبرُك يا سيدتي، ذات مرةٍ حبس أخاه الصغير في صندوق وأضرمَ النار فيه.

قالت: "أنا واثقة أنَّ باول ما كان ليفعل شيئًا كهذا"، بينما تخرج حاملةً صحنًا من السندويتشات وضعتْه على الدرجة. أفرغوا الصحنَ من فورهم، فحملته ووقفت تنظرُ إلى الشمس الآخذة بالغروب أمامهم، فوق صفِّ الأشجار تقريبًا. كانت مُنتفخة وبلوْن اللهيب، وتعلَّقت بأحبولةٍ من غيمة متهرّئة كأنها قد تحرقها في أيّ لحظة وتسقط في الغابة. من نافذةِ الطابق العلوي، رأتها الطفلةُ ترتعش وتضمُّ كلتا ذراعيها إلى جنبيْها، وقالت فجأة بلهجةٍ كئيبة متعجّبة:

- لدينا الكثيرُ ممّا ينبغي أن نكون شاكرينَ عليه. أتشكرون الله كلَّ ليلة على ما فعله لأجلكم أيُّها الصبية؟ أتشكرونه على كلِّ شيء؟

أنزل سؤالها سَكينةً مباشرة عليهم، وقضَموا من سندويتشاتهم كأنما فقدوا نكهةَ الطعام كلها.

فأصرَّت عليهم:

- هل تشكرون؟

ظلّوا صامتين كلصوصٍ مختبئين، يلوكون من دون أي صوت.

فقالتْ في آخر المطاف: "حسنًا، أنا أشكر بكلِّ تأكيد"، ثمَّ استدارت عائدة إلى المنزل، وراقبت الطفلة أكتافَهم ترتخي. مطَّط الضخم ساقيه كأنه يخرج نفسه من فخّ، والتهبتِ الشمس بسرعةٍ شديدة جعلتها تبدو كأنَّها تحاول إضرامَ النار في كلِّ ما بالمشهد. كان برجُ الماء الأبيض يسطع بلونٍ ورديّ لمّاع، والعشب بأخضر مصْطنع كأنه يستحيل زجاجًا. مدَّت الطفلة فجأة رأسَها من النافذة ونخرت بصوتٍ مرتفع وقد حَوّلَت عينيها ودلَّت لسانها على أقصى طوله كأنها ستتقيأ:

- أخخخخخخ.

رفعَ الطفل الضخم نظرَه وحدَّق بها، ثمَّ قال متذمرًا:

- يا إلهي! امرأة أخرى!

تراجعَت عن النافذة ثمَّ وقفت مسندةً ظهرَها إلى الجدار وخازرةً عينيها بعنف كأنها تلقَّت صفعة عجزت عن رؤية صافعِها. وحالما غادروا الدرجاتِ نزلت إلى المطبخ حيث تغسل السيدة كوب الأطباقَ وقالت:

- لو أمكنني لضربتُ ذاك الصبي الضخمَ في الأسفل حتى أطفأتُ ضوء عينيه.

فاستدارت السيدة كوب بحدَّة وقالت:

- ابتعدي عن أولئكَ الصبية. السيدات لا يطفئن ضوءَ عيون الناس. لا تقربيهم، سيرحلونَ في الصباح.

لكنهم لم يرحلوا في الصباح.

عندما خرجتْ إلى الشرفة بعدَ الفطور، رأتهم واقفينَ عند الباب الخلفي يركلون الدرجات، وقد شمّوا رائحة قديد الخنزير الذي حضرته لفطورها. قالت: "عجبي أيها الصبية! ظننت أنكم ستلتقون عمَّكم". كانت وجوههم تحمل نظرة الجوع القاسي نفسَها التي آلمتها البارحة، لكنها اليوم شعرَت ببعض الغيظ.

أدارَ الصبي الضخمُ ظهرَه من فوره وقرفصَ الصغير وأخذ يخربش في الرمل. وقال باول:

- إلا إنَّنا لن نلتقيه.

ثمَّ أدار الصبي الضخمُ رأسه بما يكفي ليدخلَ جزءًا صغيرًا منها مجالَ بصره وقال:

- لن نثقلَ عليك في شيء.

لم يرَ مدى اتّساع عينيها، لكنه انتبَه إلى الصمت الثقيل، وبعد دقيقة، قالت بصوت متكلّف:

- أتريدون بعضَ الفطور أيها الصبية؟

فأجابَها الصبي الضخم:

- معنا الكثيرُ من طعامنا الخاص، لا نريدُ شيئًا منك.

أبقتْ عينيها على باول. بدا وجهُه النحيل الشاحب يواجهها لكنه لا يراها بالفعل، ثمَّ قالت:

- تعلمون أيها الصبية أنني سعيدةٌ باستضافتكم، لكنني أنتظر منكم أن تحْسنوا التصرُّف. أنتظر منكم أن تتصرفوا كسادة نبلاء.

ظلّوا واقفين في أماكنهم، كلٌّ منهم ينظر في اتجاه مختلف كأنهم ينتظرون مُغادرتها، ثمَّ قالت بصوتٍ عالٍ مفاجئ:

- فهذا المكان لي برغم كلِّ شيء.

جعجعَ الصبيُّ الضخم جعجعةً غير مفهومة، ثمَّ استداروا ومشوا ناحية الحظيرة وتركوها مشْدوهة كأنما ضُرب في وجهها ضوءُ كشّاف في منتصف الليل.

بعدَ قليل، خرجت السيدة بريتشارد ووقفت في باب المطبخ مسندة خدَّها إلى حافته ثمَّ قالت:

- أحسبُ أنك تعلمين بأنهم ركبوا الخيول طيلةَ ظهيرة البارحة. لقد سرقوا لجامًا من غرفة السروج، وركبوها بدون سروج لأنَّ هوليس رآهم يسْرقونه. طردهم من الحظيرة في التاسعة تمامًا من ليلة البارحة، ثمَّ طردهم من غرفة الحَلْب هذا الصباح وأفواههم ملطخة بالحليب كأنهم كانوا يشربون من الصفائح.

قالتِ السيدة كوب: "لا يمكنني احتمالُ ذلك"، ووقفت إلى المغسلة ضامة قبضتيها إلى جنبيها، "لا يمكنني احتمالُ ذلك"، واكتسَى وجهها تعبيرًا يشبه ما اكتساه عند قلعها السعد المستدير.

قالتِ السيدة بريتشارد:

- لا شيء يمكنك فعلُه حيالَ ذلك. ما أتوقعه هو أنَّه عليك اسْتضافتُهم لأسبوع أو نحو ذلك حتى تبدأ المدارس. لقد خططوا أنْ يحظوا بعطلةٍ في الريف، ولا شيء يمكنك فعله إلا شَبْك يديك.
- أنا لا أشبك يديّ. قولي للسيد بريتشارد أن يضع الخيولَ في الإسطبل.
- لقد وضعَها بالفعل. إذا ما قابلتِ صبيًّا في الثالثة عشرة لكنه يكافئ في النَّذالة رجلًا بضعْف عمره؛ فلا يمكنك معرفةُ ما يفكر بفعله تاليًا، لا تعرفينَ أبدًا موضعَ أذيته القادمة. هذا الصباح، رآهم هوليس وراء حظيرةِ الثيران، وسأله ذاك الضخمُ عمّا إن كانت مكانًا يمكنه الاغتسال فيه فأجابَه هوليس بالنفي وأخبره بأنك لا تريدين صبيةً يرمون أعقاب سجائرهم في الغابة، فقال: "الغابة ليست ملكها"، وقال هوليس: "بلى إنها لها"، ثمَّ قال الصغير: "اللهُ يملك الغابة ويملكها أيضًا يا رجل"، وقال الذي يلبس النظارات: "أحسب أنها تملك السماء الممتدة فوق هذا المكان كذلك"، ثمَّ قال أصغرهم: "تملك السماء ولا يمكن لطائرة المرور بدون إذنها"، وقال الكبير: "لم أرَ مكانًا فيه هذا العدد من النساء اللعينات، كيف يمكنك احتمال ذلك؟" فقال هوليس إنَّه اكتفى من كلامهم الوقح ثمَّ استدار وابتعدَ من دون أن يعطيهم أي إجابة.

قالتِ السيدة كوب: "سأخرج وأخبر أولئك الصبيةَ أن بإمكان شاحنة الحليب قلّهم"، ثمَّ خرجت إلى الباب الخلفي تاركةً السيدة بريتشارد والطفلة معًا في المطبخ.

قالتِ الطفلة:

- اسمعي، يمكنني تدبُّر أمرهم أسرع من ذلك.

فغمغمتِ السيدة بريتشارد بينما ترمقها بنظرة طويلة شزراء:

- حقًّا؟ كيف ستدبرين أمرهم؟

شبَّكت الطفلة يديها ببعضهما ولوَّت وجهها كأنها تخنق أحدهم.

قالتِ السيدة بريتشارد بصوت يشوبه الرضا:

- بل سيتدبَّرون أمرك.

فعادتِ الطفلة إلى نافذة الطابق العلوي لتبتعدَ عنها، ونظرت إلى الأسفل حيث رأتْ أمَّها تبتعد عن الصبية الثلاثة المُقرفصين تحت برج الماء يأكلون شيئًا ما من علبةِ رقائق. ثمَّ سمعتها تدخل المطبخ وتقول:

- قالوا إنهم سيرحلونَ على متن شاحنة الحليب، ولا عجب أنهم ليسوا جائعين، فحقيبتُهم ملأى بالطعام.

فقالتِ السيدة بريتشارد:

- وأرجِّح أنهم سرقوه بأكمله.

عندما جاءت شاحنةُ الحليب، توارى الصبيةُ عن الأنظار، لكن حالما غادرت دونَهم ظهرت وجوهُهم الثلاثة محدِّقة من الفتحة في سقف حظيرة البقر. قالت السيدة كوب بينما تقف أمامَ إحدى نوافذ الطابق العلوي مسندةً يديها إلى خصرها:

- كيف يمكن التغلبُ على ذلك؟ ليس الأمرُ أنني غيرُ مسرورة باستضافتهم، إنَّما المشكلة في سلوكهم.

قالتِ الطفلة:

- لا يعجبك سلوك أحدٍ ألبتَّة. سأخرج وأخبرهم أنَّ أمامهم خمس دقائق ليغادروا.
- لن تقربي أولئك الصبية أبدًا، أتسمعينني؟
- لمَ؟
- سأخرج إليهم وأوبّخهم حقَّ التوبيخ.

اتَّخذتِ الطفلة مكانَها في النافذة، وفي غضون بضْع دقائق، رأت القبعةَ الخضراء المشدودة تلتقط شعاعَ الشمس بينما تعبر أمُّها الطريق إلى حظيرة البقر. اختفت الوجوهُ الثلاثة مباشرةً من الفتحة، وفي خلال لحظة، اندفع الصبيُّ الضخم عابرًا الفناء، وتبعَه مباشرة الاثنان الآخران، فخرجتِ السيدة بريتشارد وانطلقت الاثنتان ناحيةَ البستان الذي اختفى الصبيةُ فيه. غابتْ في الحال القبعتان في الغابة، ثمَّ خرج الصبيةُ من الجانب الأيسر وأسرعوا عبر الحقل إلى رقعة غابيّة أخرى، وريثما وصلتِ السيدة كوب والسيدة بريتشارد إلى الحقل، كان خاويًا وليسَ أمامهما ما يفعلانه إلا العودة إلى المنزل.

بعدَ دخول السيدة كوب بقليل، جاءتِ السيدة بريتشارد راكضةً ناحية المنزل تصرُخ: "لقد أطلقوا الثور! أطلقوا الثور!"، وتبعَها في خلال لحظة الثور الأسود نفسُه يمشي خببًا على مهلٍ، وأربع إوزات تهسُّ في أعقابه. لم يظهر لؤمه حتى عُجِّل به، فاستغرقَ السيد بريتشارد والزنجيّان نصف ساعة حتى هدّؤوه وأعادوه إلى زريبته، وبينما انشغل الرجالُ في هذا، فرَّغ الصبية زيتَ الجرارات الثلاثة ثمَّ اختفوا في الغابة من جديد.

نتأ عرقان أزرقان على صدْغي السيدة كوب، راقبتهما السيدة بريتشارد ثمَّ قالت:

- كما قلت لك، لا شيء يمكنك فعلُه.

تناولتِ السيدة كوب عشاءها على عَجل، غيرَ مدركة أنها تعتمر قبعتها الشمسية، وكلَّما سمعت صوتًا قفزتْ واقفة. ثمَّ جاءت السيدة بريتشارد بعد العشاء مباشرة تقول: "أتريدين معرفةَ أين هم الآن؟" مبتسمة ابتسامةً عليمةً كأنها تلقت جائزة.

فأجابتِ السيدة كوب وقد انتبهت انتباهًا عسكريًّا تقريبًا:

- أريدُ أن أعرف حالًا.

قالتِ السيدة بريتشارد بينما تتكئ بارتياح إلى الباب:

- في الشارع، يرمون الحجارةَ على صندوق بريدك، وقد أسقطوه عن منصبِه تقريبًا.

- اركبي في السيارة.

صعدتِ الطفلة السيارة أيضًا، وانطلقت الثلاث عبر الشارع إلى البوابة. كان الصبية جالسينَ على حافة في الطرف الآخر من الطريق السريع، يسددون الأحجارَ إلى صندوق البريد. أوقفتِ السيدة كوب السيارة تحتهم مباشرة تقريبًا ورفعتْ نظرها من النافذة، فحدَّق الثلاثة بها كأنهم ما رأوها من قبل؛ الصبي الضخمُ بحملقة متجهِّمة، والصغير عابسًا بعينين لمّاعتين، أما باول فتدلّت نظرتُه ثنائية الاتجاه فارغة فوق المدمّرة المعاقة على قميصه.

قالت: "أنا واثقة يا باول أن أمَّك ستستحي منك"، ثمَّ صمتت وانتظرت أن يحقق كلامُها تأثيره. بدا أنَّ وجهه التوى بعضَ الشيء، لكنه استمرَّ بالنظر إليها بدون تعبير مُحدد.

- لقد تحمَّلتكم بقدر ما يمكنني، وحاولتُ أن أعاملَكم بلطفٍ أيها الصبية. ألم أكنْ لطيفة معكم؟

كانوا أشبهَ بثلاثة تماثيل، إلا إنَّ الضخم قال وبالكاد فتح فمَه:

- لسنا على جانبك من الطريق حتى أيتها السيدة.

همهمت السيدة بريتشارد بصوتٍ عالٍ: "لا يمكنك فعلُ شيء". كانت الطفلة جالسة في المقعد الخلفي قريبةً من جانبه، وتعلو وجهَها نظرة حانقة ثائرة لكنها أبقت رأسَها بعيدًا عن النافذة حتى لا يرونها.

تكلَّمت السيدة كوب ببطء، مشدِّدة على كلِّ كلمة: "أظن أنني كنتُ في غاية اللطف معكم أيها الصبية. لقد أطعمتُكم مرتين. والآن سأذهب إلى البلدة، وإن كنتم ما تزالونَ هنا عندما أرجع سأتَّصل بالمأمور"، ثمَّ انطلقت. استدارت الطفلة بسرعة حتى تنظرَ من النافذة الخلفية، وانتبهت إلى أنهم لم يتحركوا، ولم يديروا رؤوسهم حتى.

قالتِ السيدة بريتشارد:

- لقد أغضبتِهم الآن، ولا يمكن معرفة ما سيفعلون.

- سيرحلونَ قبل أن أرجع.

لم تُطِق السيدة بريتشارد النهايات غيرِ المشوّقة، إذ تحتاج إلى طعم الدم بين الحين والآخر لتحافظَ على توازنها. قالت: "عرفتُ فيما مضى رجلًا سُمّمت زوجته على يدِ طفل تبنَّته بخالص الطيبة"، وعندما عُدن من القرية لم يكنِ الصبية على الحافَّة، فقالت:

- أفضِّل أن أراهم على أن يكونوا بعيدين عن ناظريّ. عندما ترينهم تعرفينَ ما يفعلونه.

غمغمتِ السيدة كوب:

- هذا سُخف. لقد أخفتُهم ورحلوا ويمكنُنا الآن نسيانهم.

- أنا لن أنساهم، ولن أتفاجأ إن كان معهم مسدس في تلك الحقيبة.

شعرتِ السيدة كوب بالفخر بقدرتها على التعامل مع طريقة تفكير السيدة بريتشارد، فعندما ترى السيدة بريتشارد إشاراتٍ ونذائر، تعرّيها بهدوء كاشفةً أنها من نسج الخيال، لكن أعصابها كانت مشدودة في هذه الظهيرة، فقالت:

- نلتُ كفايتي من هذا. لقد رحلَ الصبية وانتهى الأمر.

- حسنًا، سننتظر ونرى.

ظلَّ الهدوء سائدًا لبقية الظهيرة، لكن عندَ وقت العشاء، جاءت السيدة بريتشارد وقالت إنها سمعتْ ضحكةً مجلجلة خبيثة من الشجيرات بجوار زريبة الخنازير. كانتْ ضحكة شريرة، ملؤها النذالةُ المدروسة، وقد سمعتها ثلاث مرات بوضوح.

قالتِ السيدة كوب:

- لم أسمع شيئًا.

- أتوقَّع أن يحلّ أذاهم بعد هبوط الليل.

في تلك الليلة، جلست السيدة كوب والطفلةُ على الشرفة حتى شارفت الساعة العاشرة ولم يحدثْ شيء. لم تُسمع إلا أصواتُ ضفادع الأشجار وطيور السُّبَد التي أخذَ صياحُها يتسارع من نفْس المكان في قلب الظلمة. قالت السيدة كوب: "لقد رحلوا. يا لَهم من مساكين"، وبدأت تعدُّ للطفلة ما ينبغي أن تكونا شاكرتين عليه، إذ كان ممكنًا أن يُضطرّوا إلى العيش في أحد المساكن، أو أن يخلقوا زنوجًا، أو أن يوضَعوا في رئات حديدية، أو أن يكونوا أوروبيين محمولين في شاحنات نقل كالماشية، وشرعتْ في سردٍ مطوَّل لنعماتها بصوتٍ مُبتلًى لم تنصت إليه الطفلة التي كانت تُجْهِد انتباهَها لتلتقط أيَّ صرخة مفاجئة في الظلمة.

لم يظهرْ لهم أثرٌ في الصباح التالي أيضًا. كان صفٌّ أشجار الحصن بلون الغرانيت الأزرق الصُّلب، وقد نهضتِ الرياح بين ليلة وضحاها وأشرقت الشمسُ ذهبية باهتة؛ الفصلُ يتبدَّل. حتى التغيير الصغير في الطقس يجعل السيدة كوب شاكرة، لكن عندما تتبدَّل الفصولُ تبدو فزعة تقريبًا من حسن حظها في الفرار من أيّ شيء يطاردها. ومثلما تفعل أحيانًا عندما ينتهي شيء ما ويبدأ آخر، حوَّلت انتباهَها إلى الطفلة التي لبست مَيْدعةً فوقَ فستانها واعتمرت قبعة رجالية قديمة من اللّباد أخفضتها بقدرِ الإمكان، ثمَّ بدأت تتسلَّح بمسدسين في جراب مُزيّن شدَّت رباطُه على خصْرها. كانت القبعة ضيقة جدًّا، فبدتْ تعتصر وجهها حتى احمرَّ، وانخفضتْ إلى مستوى نظارتِها تقريبًا. راقبتْها السيدة كوب بنظرة حزينةٍ وسألتها:

- لِمَ تحبّين أن تظهري بمَظهر الحمقاء؟ ماذا لو جاءنا ضيوف؟ متى ستنضجين؟ ما الذي أصابك؟ أنظرُ إليك وتنتابني رغبة بالبكاء! تبدين أحيانًا كأنك ابنةُ السيدة بريتشارد!

قالتِ الطفلة بصوتٍ عالٍ منزعج: "دعيني وشأني، دعيني وشأني. دعيني وشأني وحسب. أنا لستُ مثلك"، ثمَّ خرجت إلى الغابة كأنها تقتفي أثرَ عدوٍّ، رأسها مندفع قُدمًا، وكِلْتا يديها قابضة على مسدس.

جاءتِ السيدة بريتشارد بمزاجٍ رديء لأنْ لا شيء مشئوم عندها تبلغ عنه، ثمَّ قالتْ متمسكةً بما أسعفها منه:

- الشقاءُ في وجهي اليوم. أشعر أن كلًّا من أسناني هذه دُمَّلة مستقلة.

اقتحمتِ الطفلة الغابة بخطًى جعلتِ الأوراق الساقطة تصدر صوتًا مشئومًا تحت قدميها. كانتِ الشمس قد ارتفعت قليلًا وصارت محضَ فجوة بيضاء أشبه بفتحة تفرُّ منها الريحُ في سماء أدكن منها بعض الشيء،

وبدَت قمم الأشجار سوداء قُبالة الوهج. قالت: "سوف أنال منكم. سوف أنال منكم واحدًا واحدًا، وأضربكم حتى تسودَّ جلودكم وتزرقّ. اصطفوا.. اصطفّوا!" ولوَّحت بأحد المسدسين لكتلة من أشجار الصنوبر الطويلة عارية الجذوع التي تبلغ أربعةَ أضعاف طولها بينما تعبرُها، ثمَّ واصلتِ المشي وهي تغمغم وتهدر محدِّثة نفسها وتضرب بين الحين والآخر غصنًا اعترض طريقَها بأحد المسدسين. كانت تقف بين الفينة والأخرى لتنتزع نباتًا متسلقًا ما علقَ بقميصها وتقول: "دعيني وشأني، لقد قلتُ لك أنْ دعيني وشأني"، ثمَّ تفلقه بالمسدس وتكمل تعقبَها.

قعدت عمّا قريب على جذع شجرة لتهدئ من روْعها، وغرست كلتا قدميها بحذر في الأرض، ثمَّ رفعتهما ووضعتهما عدَّة مرات طاحنة التراب بضراوة كأنها تسحقُ شيئًا تحت كعبيها، وفجأة، سمعت ضحكة.

استوَت في جلستها وقد اقشعرَّ جلدها، ثمَّ سمعتها ثانية وأعقبها صوت طرطشة، فوقَفت، غيرَ متأكدة في أيِّ طريق تركض. لم تكُن بعيدة عن نهاية هذه الرقعة الغابية وبداية المرعى الخلفي. مشَت بهدوءٍ ناحية المرعى، حذرةً ألا تصدر صوتًا، وعندما وصلتْ فجأة إلى طرفِه رأتِ الصبية الثلاثة على بُعد أقل من عشْرين قدمًا يغتسلون في حوض البقر. كانت ثيابُهم مكوَّمة فوق الحقيبة السوداء بعيدًا عنِ الماء الفائضِ عن أطراف الحوض، وكان الصبي الضخمُ واقفًا، والصغيرُ يحاول التسلّق إلى كتفيه، أمّا باول فجالس يحدِّق أمامه مباشرة عبرَ النَّظارة الملطَّخة بالماء غيرَ مُبال بالآخرَين. لا بد أنَّ الأشجار بدت كشلالاتٍ خضراء وراءَ نظارته المبلَّلة. وقفتِ الطفلة نصفَ مختبئة خلف جذع صنوبر، وخدُّها محشور في لحائه.

صاحَ الصبي الصغير بينما يتوازن بركبتين مَضمومتين حول رأس الضخم:

- يا ليتني أعيش هنا!

فقال الضخم: "إنَّني لفي غايةِ السرور لأني لا أعيشُ هنا"، وقفز محاولًا إسقاطه.

جلسَ باول بدون حراك، كأنه لا يدرك أنَّ الاثنين خلفه، ونظرَ أمامه مباشرة كشبح استقام جالسًا في نعشه، ثمَّ قال:

- إنْ لَم يعُد هذا المكان موجودًا، فلن تُضطرّا إلى التفكير فيه ثانية.

قال الصبيُّ الضخم بعد أن قعدَ في الماء بهدوء، والصغيرُ ما يزال مشدودًا إلى كتفيه:

- اسمع، إنه ليس ملكًا لأحد.

وقال الصغير:

- إنه ملكنا.

لم تتحركِ الطفلة وراء الشجرة.

قفزَ باول من الحوض وانطلق راكضًا. ركض الطريقَ كله حول الحقل كأن شيئًا ما يطارده، وعندما مرَّ أمام الحوض ثانية، قفز الآخران وراحا يسابقاه والشمسُ تتلألأ على أجسادهم الطويلة المبلَّلة. سبقهم الضخمُ وصار قائدهم، واندفعوا مرَّتين حولَ الحقل حتى سقطوا أخيرًا بجوار ملابسهم. ظلّوا مستلقين في أماكنهم وأضلاعُهم تعلو وتهبط، وبعدَ لحظة، قال الضخم بصوت مبحوح:

- أتعلمان ما كنتُ لأفعل بهذا المكان لو نلتُ الفرصة؟

جلسَ الصغير وأوْلاه كاملَ اهتمامه قائلًا:

- لا. ماذا؟

فغمغم:

- كنتُ لأبني مرأب سيارات كبيرًا عليه، أو شيئًا ما.

بدؤوا يرتدون ثيابهم. أحالتِ الشمس عدستيْ نظارةِ باول نقطتين بيضاوين طمستا عينيه، وقال: "أعرف ما علينا فعله"، ثمَّ أخرج شيئًا صغيرًا من جيبه وأراهما إيّاه. لدقيقة تقريبًا، جلسوا ينظرونَ إلى ما يحمله في يده، ثمَّ من دون أي نقاش إضافيّ حمل باول الحقيبةَ ونهضوا فعبَروا الطفلة ودخلوا الغابة من نقطة تبعد أقلَّ من عشْرة أقدام عن حيث تقف، وقد ابتعدَت قليلًا عن الشجرة، وطبعة لحائها ما تزال منقوشةً بالأحمر والأبيض على خدّها.

راقبتهم بتحديقةٍ ذاهلة يجمعون كلَّ أعواد الثقاب التي يحملونها، ويشرعون بإضرام النار في الأجمة، ثمَّ يَنْعَبون ويصيحون ويضربون بأيديهم على أفواههم. وفي بضع ثوان، ظهر خطٌّ رفيع آخذٌ بالاتساع من النار بينها وبينهم. وبينما تشاهد، تصاعدتِ النار من الأجمة وبدأت تختطفُ الأغصان المتدنية من الأشجار وتنهشُها، ثمَّ حملت الريحُ قصفات منها إلى الأعلى واختفى الأطفال وراءها زاعِقين.

استدارت وحاولتِ الركض عبرَ الحقل، غير أنَّ ساقيها كانتا ثقيلتيْن جدًّا، وسمَّرها في مكانها شقاءٌ جديد غير محدَّد لم تشعر به قبلًا، لكنها انطلقت راكضة أخيرًا.

كانتِ السيدة كوب والسيدة بريتشارد في الحقل خلف الحظيرة عندما رأت السيدة كوب دخانًا يعلو من الغابة في الطرف الآخر من المرعى، فزعقت، وأشارت السيدة بريتشارد إلى الطريق حيث جاءتِ الطفلة تقفز بشدة وتصرخ:

- ماما، ماما، سيبنون مرأب سيارات هنا!

أخذتِ السيدة كوب تنادي على الزنجيّين في حين ركضت السيدة بريتشارد منفعلة تصرخُ في الشارع، ثمَّ خرجت من الطرف الآخر للحظيرة، وتوقف الزنجيّون عن ملء ناشرة الدَّمْن في الأرض وركضا ناحيةَ السيدة كوب حاملين رَفْشَيهما. صاحت: "أسرعا، أسرعا، ابدءا برمْي التراب عليها"، وعبراها من دون أن ينظرَا إليها تقريبًا متَّجهين على مهلٍ في الدخان إلى الحقل، فركضت وراءهما مسافةً قصيرة تزعق:

- أسرعا، أسرعا. ألا تريانها؟ ألا تريانها!

قال كولفر: "ستظلُّ موجودة عندما نَصل"، ثمَّ أبرز كتفيه قليلًا وتابع بالسرعة نفسها.

توقَّفت الطفلة بجوار أمِّها ورفعت نظرَها إلى وجهها كأنها لم تره قبلًا قط. كان وجهُ الشقاء الجديد الذي شعرتْ به، لكنه بدَا قديمًا على أمها، وبدا من الممكن أن يصيبَ أيًّا كان، زنجيًّا أو أوروبيًّا أو باول نفسه. أدارتِ الطفلة رأسها بسرعة، ورأتْ عمود الدخان وراء قوامي الزنجيّين السائرين يرتفع ويتسع بدون ضابط في صفِّ الأشجار الغرانيتي. وقفتْ مشدودة، تنصت، وسمعَت في المسافة بضع زعقات مرح جامحة وصاخبة كما لو أنَّ الأنبياء يرقصون في أتون النار المتَّقدة، في الدائرة التي فرَّغها ملاك الرب لهم*.

* تشير المؤلفةُ إلى قصَّة الأنبياء الواردة في سفر دانيال الإصحاح الثالث. (المترجم).

# ضربةٌ من حُسن الحَظ

دخلتْ روبي من الباب الأمامي للمبنى السكنيّ ووضعتِ الكيس الورقي الذي يحْوي أربعَ علب من الفاصولياء ذات الرَّقم ثلاثة على طاولة البهو. كانت متعبة إلى درجةٍ منعتْها من نزع يديْها عنه أو الاستقامة، فتعلَّقت على الطاولة منهارة من خصْرها فنازلًا، ورأسُها متوازن فوق الكيس مثل حبةِ خضار كبيرة مُنمقة. حدَّقت تحديقة متحجرةً خالية من الإدراك في المرآة المغبَّشة المبقعة بالأصفر فوقَ الطاولة، ورأت على خدِّها الأيمن ورقةَ كرنبٍ خشنة قد علقت عليه منذ منتصفِ طريق العودة، فمسحتْها بذراعها مسحةً شرسة واستقامت متمتمةً: "الكرنب، الكرنب"، بصوتٍ فيه حنقٌ خانق مكبوت. عندما وقفتْ مستوية، تبين أنَّها امرأةٌ قصيرة يشبه قوامُها جرَّةَ حفظِ رماد الموتى تقريبًا، ولها شعرٌ بلون التوت مجموعٌ حول رأسها في لفائف كالنَّقانق، لكن بعضُها انفكَّ بفعل الحرارة والمشية الطويلة من متْجر البقالة فبرزَ بروزًا هائجًا في اتجاهات مختلفة. قالت: "أوراق الكرنب!"، باصقة الكلمتيْن هذه المرَّة كأنهما بذرة سامَّة.

لم تأكلْ وبيل هيلَ أوراق الكرنب منذُ خمس سنوات، ولا تنوي البدءَ بطبخها الآن، لكنها اشترتْ هذه الأوراق من أجلِ روفوس ولنْ تشتريها مرة ثانية. كان المرءُ ليظنَّ أنَّ روفوس بعد عامين من الخدمة في القوات المسلحة سيرجع مستعدًّا ليأكل كشخص قادم من ديارٍ أخرى، لكن لا، فعندما سألته عمّا يرغب بتناوله "رغبة خاصَّة"، لم يتحلَّ بالنباهة الكافية ليفكر بطبق متمدِّن، بل قال أوراق الكرنب. كانت تتوقَّع أن يتحول

روفوس إلى شخص فيه بعضُ الفهم، لكنه لم يحملْ من الفهم أكثرَ ممّا تحمله ممسحة الأرضيات.

روفوس أخوها الصغير الذي عادَ لتوّه من المسرح الأوروبي للحرب، وجاء ليعيشَ معها لأنَّ بلدة بيتمان - حيث ترعرعَا - اندثرت، وقد تحلى جميعُ سكان بيتمان بحُسن الإدراك الكافي ليغادروها، إمّا بالموت أو بالانتقال إلى المدينة. كانت متزوجةً من بيل ب. هيل، وهو رجلٌ من فلوريدا يبيع منتجات ميراكل جاء ليعيشَ في المدينة. لو أنَّ بيتمان ما تزال موجودة لكانَ روفوس فيها الآن، ولو تُركت دجاجةٌ واحدة تجوب شوارع بيتمان لظلَّ روفوس برفقتها. كرهت أن تعترفَ بذلك عن أهلها، ولا سيَّما أخيها، لكنْ ها هو ذا، لا يصلح لشيء ألبتَّة. قالتْ لبيل هيل: "لقد أدركتُ ذلك بعدَ مضيّ خمس دقائق من وجوده"، فقال بيل هيل من دون أيّ تعبير على الإطلاق: "استغرقني ذلك ثلاثًا". من المُخزي أن يرى هذا الصنفُ من الأزواج أنَّ لها هذا الصنف من الإخوة.

افترضت أنَّ ذلك لا يمكن إصلاحُه، فروفوس مثل بقية الأولاد، وهي الوحيدة المختلفةُ في عائلتها، الوحيدة التي تحمل بعضَ الفهم. أخرجت من حقيبتها قلم رصاص وكتبتْ على جانب الكيس: بيل، احملْ هذا إلى الأعلى. ثمَّ استجمعت طاقتَها في أسفل السلالم لرحلة الصعود إلى الطابق الرابع.

كانتِ السلالم سوداء ضيقة متصدّعة تصعد من منتصف البناء، وتغطيها سجادة بلوْن الشامة تظهر كأنها تنبتُ من الأرض. بدا لها أنَّ السلالم مغروزة باستقامة كسلالم برج الكنيسة، كأنَّها واقفة على قائمتيها الخلفيتين. حالما صعدت الدرجَةَ الأولى انتصبتْ من أجلها فصارت أكثرَ انحدارًا، وعندما حدقت إليها اتَّسع فمُها ثمَّ انقلب مُبديًا اشمئزازًا تامًّا، إذْ

إنها لم تكن في حالٍ تسمح لها بتسلق أي شيء، فهي مريضة، وقد أخبرتْها مدام زوليدا بذلك، رغم أنها تعرفُ بالفعل.

مدام زوليدا هي قارئةُ الكفِّ في شارع هايواي 87، قالت: "مرض طويل"، لكنَّها أضافت هامسةً، رفقةَ نظرة تقول إنَّها تعلم بالفعل لكنها لن تخبرها، "سيعود عليك بضربةٍ من حُسن الحظ!"، ثمَّ تراجعت مبتسمةً في جلستها. كانت امرأةً بدينة لها عينان خضراوان تتحرَّكان في محجريهما كأنهما مُزيتتين، ولم تكُن روبي في حاجةٍ إلى أن يخبرَها أحد، فقد استنتجتْ بالفعل أنَّ حُسن الحظ هو انتقالُهما، ذلك أنها تشعرُ منذُ شهرين بأنهما سينتقلان. لم يستطع بيل هيل درءَ الأمر أكثرَ من ذلك، ولا يمكنه قتلُها. كانت ترغبُ بالعيش في وحدة فرعية -بدأت تصعد السلالم، مُنحنية إلى الأمام ومتشبِّثة بالمسند الخشبي- حيث يحظى المرءُ بصيدليات ومتاجر بقالة وعروضٍ سينمائية في حيِّه الخاص. أما في الحال الراهنة، في عيشِها بوسط المدينة، فعليها أن تعبرَ ثمانية مربعات سكنية سيرًا على الأقدام إلى الشارع التِّجاري الرئيس، وأكثر من ذلك لتبلغ السوبر ماركت. ولم تُبدِ أيَّ تذمُر في خمس سنوات، لكن الآن وصحتُها في خطر رغم صغر سنِّها، ماذا خُيل له أنَّها ستفعل؟ تقتلُ نفسها؟ كانت قد وضعت عينها على منزل في "ميدوكريست هايتس"، وهو كوخٌ صغير من طابقين له ظُلات صفراء. توقفت عندَ الدرجة الخامسة لتلهث. على صغرِ سنِّها -في الرابعة والثلاثين- ما كان المرءُ ليظن أنَّ خمس درجات قد تنهكُها. قالت لنفسها: خيرٌ لك أن تهوّني عليكِ يا حبيبتي، إنك أصغرُ من أن تكسري تُرُوسك.

الرابعة والثلاثون ليست سنًّا متقدمة، بل ليست سنًّا تُذكر ألبتَّة. تذكرت أمَّها في الرابعة والثلاثين، كان مظهرُها أشبهَ بتفاحة صفراء قديمة تمطّ شفتيها بتجهُّم. لطالما بدتْ متجهِّمة، لطالما بدت كأنْ لا شيء يُرضيها.

قارنت نفسها في الرابعة والثلاثين بأمِّها في نفس السِّن: كان شعرُ أمها أشيبَ، أمّا شعرها فلم يظهر به الشيبُ حتى في غياب الصَّبغة. كثرة الأطفال هي ما قضى على أمها، إذ إنها أنجبتْ ثمانية: اثنان ولدَا ميتين، وواحدٌ مات في العام الأول، وواحد سُحق تحت حصّادة، وأخذت أمُّها تزداد موتًا مع كلِّ منهم. وفيمَ كلُّ ذلك؟ لأن هذا مقدار ما حازتْه من الفهم. جهل مُطبِق. أنقى أنواع الجهل الخالص!

وكان لها أختان كلتاهما متزوّجة منذ أربع سنوات ولها أربعةُ أطفال. لم تفهم كيف احتملتا زياراتِ الطبيب المستمرَّة ووخز المعدات الدائم، وتذكرت ولادة أمها لروفوس. كانت الوحيدةَ بين الأطفال التي لم تُطِق ذلك، فمشت الطريق كله إلى ميلسي قاطعةً عشرة أميال تحت الشمس الحارقة إلى السينما لتبتعد عن الصراخ، وشاهدتْ فيلمين غربيَّين وفيلمَ رعب ومسلسلًا ثمَّ رجعت سيرًا على الأقدام ووجدتِ الصراخَ يبدأ للتَّو، فاضطُرَّت إلى الإنصات طوال الليل. كلُّ هذا الشقاء من أجل روفوس! وها قد كبرَ الآن وتبيَّن أنه لا يحمل مسئولية أكثر من خرقة تنظيفِ الصحون. تخيَّلته ينتظر في اللامكان قبلَ ولادته، لا يفعل شيئًا إلا الانتظار، ليجعل من أمِّه -التي لا تبلغ إلا أربعًا وثلاثين سنة- عجوزًا. ثمَّ قبضت على المسند الخشبي بعنف، ورفعت نفسَها درجة أخرى بينما تهزُّ رأسها. رباه كم خابَ أملُها فيه! بعد أنْ أخبرت أصدقاءها كلهم بأنَّ أخاها عائد من المسرح الأوروبي، ها هو ذا، كأنه لم يخرجْ قطُّ من حظيرة الخنازير.

بدَا عليه التقدمُ في السِّن أيضًا، رغم أنه يصغرُها بأربع عشرة سنة. كان مظهرها أصغرَ من سنِّها بكثير، وليس أنَّ الرابعة والثلاثين سنٌّ متقدمة، لكنها متزوجة على أيِّ حال. أجبرها التفكيرُ في ذلك على الابتسام؛ لأنها أبلَت خيرًا من أختيها اللَّتيْن تزوَّجتا رجليْن من الجوار، ثمَّ تمتمت بينما تتوقَّف ثانية: "يا لانقطاع النفَس هذا!"، وقرَّرت أنَّ عليها الجلوس.

لكلِّ طابق ثمانٍ وعشرون درجة، ثمان وعشرون.

قعدَت وقفزتْ من فورها إذ شعرت بشيء ما تحتها، وبعد أنِ التقطت أنفاسها، سحبَتْ ذلك الشيء، وإذا به مسدسُ هارتلي غليفيت. تسعةُ إنشات من الصفيح الغدّار! كان يعيشُ في الطابق الخامس صبيٌّ عمرُه ست سنوات، ولو أنه ابنها لأنهكتْه ضربًا حتى لا يترك فوْضاه على الدرج العمومي، فقد كان ممكنًا أن تسقطَ وتعطب نفسُها بسهولة! لكنَّ أمَّه الغبية لن تمسَّه بسوء حتى لو أخبرتها، فليست تفعل شيئًا إلّا الصراخ عليه، وإخبارَ الناس بمدى ذكائه. كانت تسميه: "السيدُ حُسن الحظِّ الصغير! هو كلُّ ما تركه والدُه الفقير لي!". قال والده في احْتضاره: "لم أعطكِ في حياتي شيئًا غيره"، فقالت له: "لقد منحتني حُسنَ الحظ يا رودمان!" وهكذا سمَّته السيد حُسن الحظِّ الصغير. غمغمت روبي: "كُنتُ لأشبع مؤخرة حظّه الحسن ضربًا!"

راحتِ الدرجات تصعد وتهبط مثل أرجوحةٍ توازن هي في منتصفها. لم تُرد أن تشعرَ بالغثيان، ليس ثانية.. ليس الآن، لا، لن تسمحَ بذلك. جلست على الدرج بثباتٍ وأغمضت عينيْها حتى توقف الدوارَ قليلًا وخبَا الغثيان. قالت: "لا، لن أذهبَ إلى طبيب". لا. لا. لن تذهب. لن تذهب حتَّى يضطروا إلى حملها غائبة عنِ الوعي إلى هناك. لقد أبلَت خيرَ بلاء في مداواة نفسها كلَّ هذي السنين، فلم تُصبْها نوبات مرضٍ صعبة، ولم يسقط من فمِها سنّ، ولم تنجب أطفالًا. كلُّ ذلك أنجزتْه بنفسها. لو لم تكُن حَذرة لكان لها خمسةُ أطفال الآن.

كانت قد تساءلت غيرَ مرَّة عما إن كان قِصرُ النَّفَس هذا سببه مشكلة قلبية، فبين الحينِ والآخر، تحسُّ بألم في صدرها عندما تصعد السلالم. هذا ما أرادت للأمر أن يكون: مشكلة قلبية. لا يمكنهم استئصالُ قلبِ

المرء، سيضطرّون إلى ضربها على رأسها قبلَ أن يقربوها من المستشفى، سيضطرون إلى... ماذا لو ماتت إن لم يأخذوها؟

لن تموت.

وماذا لو ماتت؟

حملت نفسَها على كبح هذا التفكيرِ البغيض، فهي لم تتجاوز الرابعة والثلاثين بعْد، وليس بها من علةٍ مُزمنة، إضافة إلى أنَّها ممتلئة ولونُ بشرتها بهيّ. تأملت نفسَها ثانية بالمقارنة مع أمِّها ثمَّ قرصت ذراعَها وابتسمت. لقد أبلَت خير بلاءٍ بالنظر إلى أنَّ أمَّها وأباها لم يتمتعا بمظهرٍ يُغري الأبصار؛ كانا من الصنف الذّابل، ذابلين وذبُلت بيتمان فيهما، فانكمشا وإياها حتى صاروا جميعًا شيئًا ذابلًا ماطًّا شفتيه، وخرجَت هي مِن ذلك! خرجَت شخصًا ضاجًّا بالحياة بهذا القدر! نهضَت، قابضةً على المسند الخشبي وابتسمتْ لنفسها. كانت دافئة وممتلئة وجميلة، ليستْ مُمتلئة أكثرَ مما يجب لأنَّ بيل هيل يحبُّها هكذا، وقد اكتسبت بعض الوزن لكنَّه لم يلاحظ، غير أنَّه ربما كان أكثرَ سعادة مؤخرًا ولم يُعلم السبب. شعرَت بكمالها، بأنها شيء كاملٌ يصعد السلالم. تجاوزتِ الطابقَ الأول، ونظرت خلفها بسرور. ربما سينتقلان حالمَا يسقط بيل هيل على هذه السلالم، لكنهما سينتقلان قبلَ أن تعرف مدام زوليدا. ضحكَتْ بصوتٍ عالٍ بينما تمشي في الرواق، وآنذاك صرَّ بابُ السيد جيرغر فأجفَلها. قالت في خلدِها: "رباه، إنه هو". كان شخصًا غريبَ الأطوار يقيم في الطابق الثاني.

حدَّق بها بينما تعبرُ الرواق، وقال مادًّا نصفَ جسمه العلوي من الباب: "صباح الخير! صباح الخير عليك!". بدا أشبه بمعزاة بعينيه الزَّبيبيَّتين الصغيرتين ولحيتِه الخَيطية، وكان يرتدي سترةً خضراء تقترب من السواد أو سوداء تقترب من الخضرة.

قالت له: "صباح الخير، كيف حالك؟".

فقال صارخًا: "بخير حال! بخير حالٍ حقًّا في هذا اليوم المتألق!" كان في الثامنة والسبعين، ويبدو وجهُه كأنَّ عليه عفونة. اعتاد المطالعةَ في الصباح، وفي الظَّهيرة يتمشَّى على الأرصفة ويوقف الأطفال ليطرح عليهم الأسئلة، ومتى ما سمعَ صوتَ أحدهم في الرواق يفتح الباب ويمدُّ رأسه.

قالت بتراخٍ:

- أجل، إنه نهارٌ جميل.

- أتعلمين أيَّ عيد ميلاد عظيم اليوم؟

قالتْ روبي: "كلا". لطالما حملَ في جعبته سؤالًا كهذا، سؤالًا تاريخيًّا لا يعرف إجابتَه أحدٌ يطرحُه ويخلق منه خطابًا، فقد كان مدرِّسًا في إحدى الثانويّات.

حثَّها قائلًا:

- احْزري.

فدمدَمَت:

- أبراهام لينكولن.

- هاه! لستِ تحاولين! حاولي.

فقالتْ بينما تشرع بصعود السلالم:

- جورج واشنطن.

فصاح: "يا لعارِك! هذا وزوجُك من هناك! من فلوريدا! فلوريدا، إنه عيد ميلاد فلوريدا"، ثمَّ قال: "ادخلي"، واختفى في غرفته داعيًا إيّاها بأصبع طويل.

هبطتِ الدرجتين اللتيْن صعدتهما وقالت حاشرةً رأسَها في الباب: "عليَّ متابعةُ طريقي". كانت الغرفةُ بحجم خزانةٍ كبيرة جدرانُها مغطاة تمامًا بصور بطاقات بريديَّة لمبانٍ محلية، ما خلقَ وهمًا بالمساحة، وتدلَّت لمبة شفافة وحيدة فوق السيد جيرغر وطاولة صغيرة.

قال لها: "انظري هنا"، وقد انحنَى فوقَ كتاب وراح يمرّر أصبعه تحت السطور: "في أحدِ الفصح، يوم الثالث من أبريل 1516، وصل إلى قمَّة هذه القارة، أتعرفينَ مَن هو هذا الذي وصل؟"

قالت روبي:

- أجل. كريستوفر كولومبوس.

فصرخَ قائلًا:

- بونثي دي ليون، بونثي دي ليون! ينبغي أن تعرفي شيئًا عن فلوريدا. إن زوجَك من فلوريدا.
- صحيح، لقد ولد في ميامي، ليس من تينيسي.
- فلوريدا ليست ولايةً نبيلة، لكنها ولاية مهمَّة.
- إنَّها مهمة حقًّا.
- أتعرفين مَن هو بونثي دي ليون؟
- هو مؤسسُ فلوريدا. (قالتها روبي بزهْو).
- كان إسبانيًّا. أتعرفين عمَّ كان يبحث؟
- عنْ فلوريدا.

قال السيد جيرغر مُغمضًا عينيه:

- كان بونثي دي ليون يبحثُ عن ينبوع الشباب.

فغمغمتْ روبي:

- أوه.

وتابعَ السيد جيرغر:

- نبع ما، تمنح مياهُه الشباب الدائمَ لشاربها. كان يحاول البقاء شابًّا.

- هل وجدَه؟

وقف السيد جيرغر قليلًا وعيناه ما تزالان مُغمضتيْن، وقال بعد دقيقة:

- أتظنّين أنه وجدَه؟ أتظنّين أنه وجده؟ أتظنّين أنْ لا أحد سواه كان ليصل إليه لو أنَّه وجده؟ أتظنّين أنَّ سطحَ البسيطة كان ليحمل إنسيًّا واحدًا لم يشربْ منه؟

- لم أفكرْ في الأمر.

قال السيد جيرغر متذمِّرًا:

- ما عاد أحدٌ يفكر.

- عليَّ الذهاب.

- أجل، جرى إيجاده.

- أين؟

- لقد شربتُ منه.

فسألته بعد أنِ انْحنت مقتربةً منه وشمَّت نفحةً من رائحته أشعرتها أنها حشرت أنفَها تحت جناح صقر:

- إلى أيِّ مكان ذهبت؟

قال: "إلى قلبي". واضعًا يدَه فوقه.

قالت روبي مُتراجعةً: "أوه. عليَّ الذهاب. أظنُّ أن أخي قد وصل إلى المنزل". وعبرَت عتبة الباب.

فردَّ السيد جيرغر بينما ينظرُ إليها بخجل:

- سَلي زوجَك عمّا إن كان يعرف أيَّ عيد ميلاد عظيم اليوم.

"أجل سأفعل". استدارت وانتظرت سماعَ صوت انغلاق بابه، ثمَّ نظرَت خلفها لترى إنْ كان مغلقًا أم لا، وأطلقت أنفاسَها لتقفَ بعد ذلك بمواجهة مرتفع الدَّرجات المُظلم المتبقّي. قالت: "يا إلهي، إنه يزدادُ انحدارًا وإظلامًا مع صعودي".

لم تُنه تسلُّق الدرجات الخمْس حتى انقطعت أنفاسُها، فصعدتْ، لاهثة، بضعًا إضافية، ثمَّ توقفتْ شاعرةً بألم في معدتها. كان الألم أشبهَ بقطعةٍ من شيء ما تدفع شيئًا آخر، وقد أحسَّتْه من قبلُ منذ بضعة أيام. كان أكثر ألم خوَّفها، وفكّرت بكلمة "سرطان" مرةً ثمَّ أهملتْها حالًا لأنَّ ذعرًا كهذا لن يحلَّ عليها، لا يمكن أن يحدث ذلك. عادت إلى بالها الكلمةُ رفقةَ الألم فورًا، غير أنها شقَّتها إلى نصفين مع مدام زوليدا، إذْ سينتهي الألمُ بحظٍّ حسَن. شقَّت بعد ذلك النِّصفين إلى نصفين آخرين، ثمَّ كررتِ العمليةَ حتى لم يبقَ منها إلا مِزقٌ لا يُعرف لها أصل. كانت تنوي التوقفَ في الطابق التالي -إذا شاء الله ووصلت إليه- والتكلُّم إلى لافيرن واتس. لافيرن واتس من سكانِ الطابق الثالث، تعمل سكرتيرةً لطبيب الأقدام وهي مِن خاصَّة أصدقائها.

وصلتْ إلى الطابق تلهث وتشعر كأن ركبتيها مملوءتين بفقاقيع فوّارة، ثمَّ طرقت باب لافيرن بعقب مسدس هارتلي غيلفيت، واتكأت على إطاره لترتاح، وفجأة، انخسفت الأرض من جانبيها. اسودّت الجدران وشعرت أنها تدور بنفَسٍ منقطع في الجو، مذعورة من السقطة الوشيكة، ثمَّ رأت الباب ينفتح على بُعد شاسع، ولافيرن تقف فيه وطولها قرابة أربعة إنشات.

أطلقتْ لافيرن -وهي فتاةٌ طويلة قشّية الشعر- قهقهةً صاخبة وصفعت جانبها كأنَّها قد فتحت بابَها على أكثر ما رأته هزليَّة في حياتها. هتفت: "ذاك المسدس! ذاك المسدس! ذاك المنظر!" ثمَّ تراجعت مترنِّحة إلى

الكنبة وسقطت عليها، فارتفعتْ ساقاها فوق مستوى خصْرها وسقطتْ ثانية سقطةً ضعيفة رافقَها صوتُ هدَّة.

صعدتِ الأرضيةَ إلى حيث يمكنُ لروبي رؤيتها وظلتْ هناك، مائلة بعض الشيء، فحرَّكت قدمَها نزولًا لتدوسها بينما تحدّق بتركيز رهيب. ثمَّ أمعنت النظرَ حتى تبيَّنت كرسيًّا في الطرف الآخر من الغرفة، واتَّجهت إليه تصفُّ قدميها بحذرٍ الواحدة أمام الأخرى.

قالتْ لافيرن واتس:

- ينبغي أن تكوني في أحدِ عروض الغرب المتوحش! إنك مُهرِّجة.

وصلتْ روبي إلى الكرسي ثمَّ قعدتْ بالتدريج عليه وقالت بصوت مبحوح:

- اخرسي.

تقدَّمت لافيرن في جلستِها، وأشارت إليها ثمَّ تراخَت متهزهزة ثانية.

صاحتْ روبي:

- كفّي عن ذلك.. كفي عنه؛ إنَّني مريضة.

نهضتْ لافيرن فمشتْ خطوتين واسعتين أو ثلاثًا في الغرفة، ثمَّ انحنت أمام روبي ونظرتْ في وجهها بينما تغمضُ عينًا وتفتح أخرى كأنها تنظرُ من ثقب مفتاح:

- إنَّك بنفسجية بعض الشيء.

قالتْ روبي بتجهُّم:

- إنني مريضة جدًّا.

وقفتْ لافيرن تنظر إليها، وبعدَ لحظة، شبَّكت ذراعيها وأبرزَت بطنها بتركيز شديد، ثمَّ أخذتْ تتمايل جيئة وذهابًا. سألتها:

- حسنًا، لم أتيتِ إلى هنا حاملةً هذا المسدس؟ من أين جئتِ به؟

غمغمتْ روبي:

- قعدتُّ عليه.

وقفتْ لافيرن في مكانها تتمايل ببطنٍ بارزة، وتعبيرٌ بالغ الحكمة يتلبَّس وجهها، بينما قعدتْ روبي في الكرسي ناشرةً أطرافَها تنظر إلى قدميها. كانت الغرفة آخذةً بالسكون. استوَت في جلستها وحدَّقت إلى كاحليها، كانا متورمين! فزعت وقالت في نفسها: لن أذهبَ إلى الطبيب، لن أذهبَ إليه. ثمَّ بدأت تتمتم: "لن أذهب. إلى أيِّ طبيب، لن..."

دمدمتْ لافيرن: "إلى متى تحسبينَ أنَّ بوسْعك المقاومة؟" وأخذت تقهقه.

سألتْها روبي:

- أترينَ تورُّمًا في كاحليّ؟

قالتْ لافيرن بينما تلقي بنفسها إلى الكنبةِ من جديد: "يبدوان كما يبدوان دائمًا في نظَري، بدينيْن نوعًا ما"، ورفعت كاحليها فوضعتْهما على طرف الوسادة مدوِّرة إيّاهما قليلًا وسألتها: "ما رأيُك بحذائي؟" كان أخضرَ خُضرة الجندب، وله كعبان دقيقان وطويلان جدًّا.

- أظنُّهما متورميْن. عندما كنت أصعدُ آخرَ درَج انتابني شعورٌ في غاية الفَظاعة، في جميع أجزاء جسمي كأن...

- عليك الذهابُ إلى الطبيب.

- لستُ في حاجة إلى الطبيب. يمكنني الاعتناءُ بنفسي. لم أُخفق في ذلك طيلةَ هذه المدة.

- هل روفوس في المنزل؟

- لا أدري. أبقيتُ نفسي بعيدةً عن الأطباء طيلة حياتي. ظللت... لمَ؟

- لمَ ماذا؟
- لم تسألين عمّا إن كان روفوس في المنزل؟
- إنَّه جذاب، وكنت أفكرُ في سؤاله عن رأيه بحذائي.

استوَت روبي وعلى وجهِها نظرةٌ ضارية، وصار لونُه خليطًا بين الورديّ الداكن والبَنفسجي، ثمَّ زمجرت: "لمَ روفوس؟ ليس إلا طفلًا"، كانت لافيرن في الثلاثين من عُمرها، "لا تهمُّه أحذية النساء".

اعتدلَتْ لافيرن ونزعت إحدى فرْدتي حذائها، ثمَّ حدَّقت داخلها قائلة:

- تسعة ب. أراهن أنه سيحبُّ ما بداخله.
- روفوس محضُ طفل. لا وقتَ لديه لينظر إلى قدميك، لا يملك هذا النوعَ من الوقت.
- أوه، إنَّ لديه وقتًا وافرًا.

غمغمتْ روبي: "أجل"، وتخيَّلته ثانية ينتظر، وأمامَه وفرةٌ من الوقت، في اللّامكان قبل أن يولَد، لا يفعل شيئًا إلا الانتظار ليزيد أمَّه موتًا.

قالتْ لافيرن:

- أظنُّ أنَّ كاحليك متورمان.

فردَّت روبي وهي تبْرُمهما:

- أجل. أجل. أشعرُ بأنهما ضيّقان بطريقةٍ ما. لقد انتابني شعورٌ في غاية الفَظاعة عندما صعدتُ تلك الدرجات، كأنَّ جسمي كله منقطعُ النفَس، كأنَّ جسمي كله ضيّق، كأن... فظيع.
- عليكِ زيارة لطبيب.
- لا.
- هل زرتِ طبيبًا من قبل؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- حملوني مرَّة عندما كنتُ في العاشرة، لكنني فرَرت، ولم يُجدِ ثلاثة منهم تثبيتي.
- ما كان خطبُك آنذاك؟
- لم تنظرينَ إليَّ بهذه الطريقة؟
- أيُّ طريقة؟
- تلك الطريقة؛ مؤرجحةً بطنَك هكذا.
- لقد سألتك للتَّو ما كان خطبك آنذاك؟
- كان دمّلًا. أخبرتني امرأةٌ زنجية على الطريق بما ينبغي لي فعله؛ ففعلتُه وزال.

كانتْ جالسةً بتراخٍ على حافَّة كرسيها تحدِّق أمامها كأنها تتذكرُ وقتًا أسهل.

أخذتْ لافيرن ترقص رقصةً هزليةً ما في أرجاءِ الغرفة. خطَتْ خطوة أو اثنتين في أحدِ الاتجاهات وركبتاها مَحنيَّتان ثمَّ عادت وركلَتْ بقدمها ركلة بطيئة ومؤلمةً في الاتِّجاه الآخر، وراحت تغنّي بصوتٍ حلْقومي صاخبٍ بينما تقلبُ عينيْها: "صُفّوا الحروفَ جميعَها، فتصير كلمة أم.. أم!" وتنشر ذراعيْها كأنها على المسرح.

فغرَ فمُ روبي من دون أن ينْطق، وزال التعبيرُ الضّاري عن وجهها. غادرتها المشاعرُ لجزءٍ من الثانية، ثمَّ وثبتْ من كرسيها وصاحت:

- إلّا أنا.. إلا أنا!

فتوقَّفت لافيرن وأخذت تراقبُها بنظرةٍ حكيمة.

صرختْ روبي:

- إلّا أنا، ربّاه إلّا أنا، بيل هيل يتولَّى أمر! بيل هيل يتولَّى أمرَ ذلك. بيل هيل يتولَّى أمرَه منذ خمس سنوات، لن يحدث ذلك لي.

- حسنًا، لقد هفا بيل هيل العجوز منذُ نحو أربعة أو خمسة أشهر يا صديقتي، هفا وحسب...
- لا أحسبُ أنك تعلمينَ شيئًا عنِ الموضوع، لستِ متزوِّجة حتى، حتى أنك لم...
- أراهنُ أنه ليس واحدًا، أراهنُ أنَّهما اثنان. عليك الذهابُ إلى الطبيب لتعْرفي العدد.

قالتْ روبي بصوتٍ مُجلجل: "غير صحيح". تظن أنَّها بالغة الذكاء! لا يمكنها معرفةُ المرأة المريضة عندما تراها، لا يمكنها إلا أنْ تنظر إلى قدميها وتريهما لروفوس، تريهما لروفوس الطفل وهي في الرابعة والثلاثين، ثمَّ ناحَت قائلة: "روفوس طفل".

قالتْ لافيرن:

- إذن، سيصير عندك طفلان!

صرختْ روبي:

- اخْرسي عن هذا الكلام، اخرَسي حالًا، لن أنجب أيَّ طفل!
- ها ها.
- لا أعرف لمَ تحسب بنتٌ عزباء مثلك أنَّها واسعة العلم. لو كنتُ عزباء لما رحتُ أشرح للمتزوجين مشكلاتهم.
- ليس التورُّم في كاحليك فقط؛ بل كلُّك متورِّمة.

قالتْ روبي: "لن أظلَّ جالسة هنا أتعرَّض للإهانة". ومشتْ بحذر إلى الباب، محافظةً على استقامتِها من دون أن تستسلم لرغبتها بالنظر إلى بطنها.

- حسنًا، آمل أن تتحسَّني "كلِّكِ" غدًا.

- أظنُّ أنَّ قلبي سيتحسن غدًا، لكني آملُ أن ننتقل قريبًا. لا يمكنني ارتقاء هذه الدرجات بمشكلتي القلبيَّة هذه. (ثمَّ أردفت بحملقة وقورة) وروفوس لا يهتمُّ ألبتَّة بقدميك الكبيرتين.
- مِن الأفضل أن تضعي هذا المسدسَ جانبًا قبل أن تطلقي النار على أحدهم.

صفَقتْ روبي الباب ثمَّ نظرت إلى وسطِها بسرعة، فرأته منتفخًا، لكن لطالما كان بطنُها كبيرًا نوعًا ما، ولم يبدُ بارزًا أكثرَ من بقيتها. من الطبيعي أن تكتسب وزنًا قليلًا يتراكمُ في مُنتصفها، ولم يمانعْ بيل هيل بدانتها، بل كان أكثرَ سعادةً من غير أنْ يعلم السبب، إذْ رأت وجهَه الطويل السعيد يبتسم لها من عينيه فنازلًا بطريقة توحي بأنه ازدادَ سعادة حتى صرَّ أسنانه. ما كان ليهفو أبدًا. تلمَّست تنورتها بيديْها وشعرتْ بضيقها عليها، لكن ألم تشعرْ بذلك من قبل؟ بلى. المشكلة في التنّورة، فقدِ ارتدتْ تلك الضيِّقة التي لا ترتديها كثيرًا. لقد... لم تكن مرتدية التنّورة الضيقة، بل الواسعة. لكنَّها ليست واسعة جدًّا، غير أنْ لا فرق يشكله ذلك. إنَّها بدينة وحسب.

وضعت أصبعَها على بطنها وضغطتْه ثمَّ أرْخته بسرعة، وأخذت تمشي على مهلٍ إلى الدرج، كأنَّ الأرض تحتها موشكةٌ على التحرك. همَّت تصعد الدرجات، فعاودَها الألم من فوْره مع صعودها الدرجة الأولى. أنَّت قائلة: "لا. لا." ليس إلا شعورًا طفيفًا، مجرَّد شعور طفيف كأنَّ عضوًا من أعضائها الداخلية ينقلب، لكنه ضيَّق حلقَها على أنفاسها. لا يفترض أن ينقلبَ شيء بداخلها. همست لنفسها: "درجة واحدة فقط، درجة واحدة تفي بالغرض". لا يمكن أن يكون سرطانًا، فقد قالتْ مدام زوليدا إنه سينتهي بحظٍ حَسن. راحت تبكي وتقول: "درجة واحدة تفي بالغَرض" بينما تصعد الدرجاتِ ذاهلة كأنها تظنُّ نفسها ثابتة في مكانها.

على الدَّرجة السادسة، جلست فجأة، وانزلقت يدُها بوهنٍ عن المسند الخشبي إلى الأرض.

صاحت: "لاااا"، وحشرتْ وجهَها الأحمر المدوَّر بين أقرب قائمتين إليه، ثمَّ نظرتْ أسفلَ بيت الدرج وأطلقت عويلًا طويلًا أجوفَ راح يتسع ويرجّع أصداءً في نزوله. كان كهفُ الدرج مزيجًا بين الأخضر الداكن ولوْن الشامة، وعاد العويلُ من أسفله كأنه صوتٌ يجاوبها. شهقتْ وأغمضت عينيها قائلة: "لا. لا. لا يمكن أن يكون طفلًا". لن تحملَ شيئًا ينتظر بداخلها ليجعلها أكثرَ موتًا، لن تفعل ذلك. لا يمكن أن يهْفو بيل هيل. لقد قال إنَّ الأمر مضمون وقد أجْدى طوال هذه المدَّة، ولا يمكن أن يكون السبب، لا يمكن. أصابتها رعشةٌ فوضعت يدَها بإحكام على فمها، وشعرت أنَّ وجهها يتغضَّن: اثنان وُلدا ميّتين وواحد مات في العام الأوَّل، وواحد سُحق مثلَ تفاحة صفراء ذابلة. لا، إنها في الرابعة والثلاثين فقط، إنَّها بالغة. قالت مدام زوليدا إنَّ الأمرَ لن ينتهي بذبول، قالت: "أوه لكنه سينتهي بضربةِ حظٍّ حَسن" هي انتقالنا. قالتْ إنه سينتهي بضربةِ انتقال حسن.

شعرتْ أنها بدأت تهدأ، وأحسَّت بعد دقيقة أنها صارتْ هادئة تقريبًا، وفكّرت في أنَّها انزعجت بسرعةٍ زائدة، اللعنة، لقد كانت غازات. لم تخطئ مدام زوليدا في شيءٍ بعد، هي تعرف أكثرَ من...

ثمَّ قفزتْ فجأة، إذ سمعتْ خبطةً في أسفل بيت الدَّرج وراح هديرٌ يصلصل صاعدًا الدرجاتِ فهزَّها حيث تجلس. نظرت إلى الأسفل من بين قائمتي الدّرابزين ورأتْ هارتلي غليفيت، رافعًا مسدسيْن ويجري على الدرج، وسمعتْ صوتًا ثاقبًا من الطابق الذي فوقَها يقول: "هيه يا هارتلي، أسكِت ضجتَك هذه! إنَّك تهزُّ المنزل"، لكنه تابعَ طريقَه وهدرَ هديرًا أعلى عند التفافه حنية الطابق الأوَّل ثمَّ اندفعَ مسرعًا في الرِّواق. رأت

بابَ السيد جيرغر ينفتح بسرعة، والسيد جيرغر يقفزُ بأصابع كالمَخالب ويقبض على طرفِ قميص طائر، فدار القميص وانطلقَ ثانية بعد أن صاح صوتٌ حاد: "اتركني أيها المدرِّس العجوز الشبيه بالماعز"، وأخذَ يقترب حتى صلصلَ الدرجِ تحتها مباشرة، ثمَّ اصطدم وجهُ سنجابي مندفع بوجهِها وتابع اندفاعه داخلَ رأسها، ثمَّ راح يصغر ويصغر حتى صارَ دوامة ظلام.

جلستْ على الدرجةِ متشبّثة بالمسند الخشبي بينما عادتْ أنفاسها إليها رويدًا وتوقفت الدَّرجاتُ عن التأرجح. فتحتْ عينيها وحدَّقت في الفجوة المظلمة في الأسفل، إلى النُّقطة عينها التي انطلقتْ منها منذ وقتٍ طويل، وقالت بصوتٍ أجوف رددتْ أرجاء بيتِ الدرج صداه:

- حُسن الحظّ، طفل.

ترددَّت أصداءُ الكلمات الثلاث: "حُسن الحظ، طفل".

ثمَّ عاودها الشعورَ من جديد: انقلاب صغير، كأنه ليس في بطنها، بل في اللاشيء وفي اللامكان، مستريحٌ وينتظر، وأمامَه وفرةٌ من الوقت.

# هيكلٌ للروح القُدس

كانتِ الفتاتان تناديان بعضَهما طوال عطلة نهاية الأسبوع بالهيكل الأوَّل والهيكل الثاني، وتهتزّان ضحكًا حتى يحمرَّ وجهاهما وترتفع حرارتهما، فتصيران قبيحتيْن قُبحًا تامًّا، ولا سيَّما جوان صاحبة الوجه المبقّع أصلًا. جاءتا مرتديتيْن اللباسَ الرسمي البني للدّير الذي عليهما لبسُه في كلية القديسة سكولاستيكا، لكن حالما فتحتَا حقيبتيهما، نزعتا اللباسَ الرَّسمي وارتدتَا تنّورتين حمراوين وبلوزتين مُبَهرجتين، ثمَّ وضعتَا أحمرَ الشفاه وانتعلتَا حذاءين من نوع صنداي وأخذتا تتمشّيان بالكعوبِ العالية في جميع أرجاء المنزل، وتمرّان أمام المرآة الطويلة في البهْو على مهلٍ لتنْظرا إلى سيقانِهما. لم تغيبا عنْ ناظري الطفلة، ولو أتت واحدةٌ منهما فقط للَعِبت معها، لكن نظرًا إلى أنَّهما اثنتان ظلَّتِ الطفلة خارج الموضوع وراحتْ تراقبهما بارتيابٍ من بعيد.

كانتا في الرابعةَ عشرة -أكبرَ منها بعامين- لكن ليس فيهما من الفطنة شيء، وهو ما كان سببَ إرسالهما إلى الدير. لو ارتادتا مدرسةً عادية لما فعلتا شيئًا سوى التفكير في الفتيان، أمّا في الدير- كما قالت أمها- فستراقبُهما الأخوات مراقبةً صارمة. قررت الطفلةُ بعدَ مراقبتهما لبضع ساعات أنَّهما حمقاوان عمليًّا، وسرَّتها فكرة أنهما ليستَا إلا بناتُ عمومةٍ من الدرجة الثانية، ولا يمكن أن تكون قد ورثت شيئًا من غبائهما. كانت سوزان تسمّي نفسَها سو- زان، وكانت نحيلةً للغاية على أن لها وجهًا مؤنّفًا جميلًا وشعرًا أحمرَ، أمّا جوان فشعرُها أصفر مُمَوَّج بطبيعته،

لكنها تتكلَّم من أنفها، وتكسوها لطخاتٌ بنفسجية عندما تضحك. كانت كلتاهما عاجزة عنِ التفوُّه بعبارة ذكيةٍ واحدة، وجميع أحاديثهما تبدأ بعبارة: "أتعرفين هذا الفتى الذي أعرفه، حسنًا، مرَّة من المرات..."

كان مُقررًا أن تبقيَا طيلة عطلة نهاية الأسبوع، وقالت أمُّها إنَّها لا تدري كيف تسلِّيهما كوْنها لا تعرف أيَّ فتية من عمرهما، وعند قولها ذلك، هتفت الطفلة بعد أنْ راودتها لحظةٌ عبقرية مفاجئة: "هناك تشيت، احملي تشيت على المجيء، اطْلبي من الآنسة كيربي أن ترسلَ تشيت ليريهما الجوار". وكادت تختنق بالطعام الذي في فمِها. تلوَّت بعد ذلك حتى انحنَتْ من شدَّة الضحك وضربت الطاولة بقبضتِها ثمَّ نظرتْ إلى الفتاتين الحائرتين وقد بدأتِ الدموع تجتمع في عينيها وتتدحرجُ على خدَّيها البدينين، وتقويم أسنانها يلتمعُ في فمِها كالصفيح. لم تفكر في شيء بهذه الفكاهة من قبل.مكتبة سُر مَن قرأ

ضحكتْ أمها ضحكةً متحفِّظة، واحمرَّت السيدة كيربي ثمَّ رفعتْ شوكتها إلى فمها بتهذيب وفيها حبةُ بازلاء واحدة. كانت مدرِّسة شقراء طويلة الوجه تسكن معهم، والسيد تشيتام مُعجَبٌ بها، وهو مزارع ثريٌّ عجوز يأتي في ظهيرة كلِّ سبتٍ في سيارة بونتياك زرقاء فاتحة عُمرها خمسَ عشرة سنة يكسوها غبارُ الطين الأحمر، وقد اسودَّ جوفُها بسبب الزنوج الذين يأخذ مِن واحدهم عشْرة سنتات مقابلَ إيصالهم إلى البلدة في ظهيرة كلِّ سبت. وبعد أن يتخلص منهم، يأتي لزيارة الآنسة كيربي، حاملًا معه هديةً صغيرة دائمًا؛ كيسًا من الفستق المسلوق أو بطيخة أو ساقًا من قصب السكر، ومرَّة جلبَ علبةً كاملة من حلوى بيبي روث. كان أصلعَ باستثناء حواشي ضئيلة من شَعر بُني اللون، ووجهُه تقريبًا بلون الشَّوارع غير المعبَّدة، ومثلها، تفسدُه الأخاديد والمجارير. اعتاد لبسَ قميص أخضرَ باهتٍ فيه شريطٌ أسود رفيع وحمالتين زرقاوين، وبنطالًا يتخلله

كرش بارزٌ يضغطه بلطفٍ بين الحين والآخر بإبهامِه الكبير العريض. كانت أسنانه كلها مدعَّمة بالذهب، وكان يقلب عينيه عندما يكلم الآنسة كيربي بطريقة شقيَّة قائلًا: "هاو هاو"، بينما يجلس في أرجوحةِ شرفتهم مباعدًا بين ساقيه، وفردتَا حذائه طويلِ العنق تُشيران إلى الأرض باتِّجاهين متعارضين.

قالتِ الآنسة كيربي من دون أن تدركَ أدنى إدراكٍ أنها تمزح: "لا أظن أن تشيت سيكونُ في القرية هذه العطلة"، فانتابتِ الطفلة موجةُ ضحك جديدة، وارتخت في كرسيِّها حتى سقطت منه وتدحرجتْ على الأرض حيث ظلَّت مستلقية تلهث، فقالت لها أمُّها إنَّها إن لم تكفّ عن حماقتها هذه فعليها مغادرةُ الطاولة.

كانت أمُّها قد اتفقت البارحةَ مع السيد ألونزو مايرز على أن يوصلهم إلى ميفيل البعيدة خمسةً وأربعين ميلًا، حيث يقع الدير، ليحضروا الفتاتين فتمضيان الأسبوعَ عندهم، ووظَّفوه أيضًا ليُعيدهما في ظهيرة الأحد. كان صبيًّا عمره ثمانِ عشْرة سنةً ووزنُه مئتان وخمسون رطلًا يعملُ لصالح شركة سيارات أجرة، وهو الخيارُ الوحيد المتاح للمرْء إذا ما أراد الذهابَ إلى أيِّ مكان. كان يدخن سيجارًا قصيرًا أسود، وبالأحرى يمضغُه، وله صدرٌ مُدوَّر مُتعرق يظهر من خلال قميصِ النايلون الأصفر الذي يلبسه. وعندما يقود، يفتح جميعَ نوافذ السيارة.

قالتِ الفتاة مقهقهةً على الأرض:

- حسنًا إذًا، أين ألونزو؟ اطلبي من ألونزو أن يريهما الجوار، اجلبي ألونزو.

فبدأتِ الفتاتان -اللَّتان قابلتا ألونزو بالفعل- تصرخان امتعاضًا.

رأتْ أمُّها ذلك مضحكًا أيضًا، لكنها قالت: "لقد نلنا كفايتَنا منك"، وغيَّرت الموضوع. سألتهما لمَ تناديان بعضَهما بالهيكل الأوَّل والهيكل الثاني، ما بثَّ فيهما نوبةَ قهقهات، جعلتهما كلما تحدثا أعادا الحديث من البداية، حتى تمكنتا أخيرًا من التفسير، كانت الأختُ بيربيتوا -الراهبة الأكبرُ سنًّا بينَ أخوات الرحمة في ميفيل- قد ألقت عليهما محاضرة حول ما ينبغي فعلُه إذا ما "عاملهما شابٌّ بطريقة غير مهذَّبة في المقعد الخلفي لسيارة".

. قالت الأخت بيربيتوا إن عليهما قول: "توقف يا سيدي، إنَّني هيكلٌ للروح القدس". وهذا سيضع حدًّا للأمر. استوتِ الطفلة في جلستها على الأرض بوجهٍ خالٍ من التعابير، إذ لم ترَ شيئًا مضحكًا في ذلك، أما ما كان مُضحكًا فعلًا فهو فكرةُ أن يغازلهما السيد تشيتام وألونزو مايرز. كادَ ذلك يقتلها ضحكًا.

لم تضحكْ أمُّها على ما قالتها، بل قالت:

- أظنُّ أنكما سَخيفتان جدًّا أيها الفتاتان، فبالنهاية هذه حقيقتكما، هيكلان للروح القدس.

نظرتْ كلتاهما إليها، وكتمتَا قهقهاتهما بأدب، لكن بدَا وجهاهما مذهولَيْن كأنهما بدأتَا تُدركان أنها فُطرت على جبلَّة الأخت بيربيتوا نفسها.

حافظتِ الآنسة كيربي على تعابيرها الجامدة، وفكرتِ الطفلة في أن الأمرَ أكبر من قدرتِها على الفهم بأيّ حال. قالت لنفسها: أنا هيكلٌ للروح القدس، وسرَّتها العبارة. أشعرتْها كأنما قد تلقّت هديَّة.

بعدَ العشاء، تهاوَت أمُّها على السرير وقالت:

- ستقودني هاتان الفتاتان إلى حافَّة الجنون إن لم أتدبرْ تسلية ما لهما. إنهما فظيعتان.

فبدأتِ الطفلة تقول:

- أراهنُ أنَّني أعرف مَن يمكنك جلبُه.

- أنصتي، لا أريد أنْ أسمع أيَّ كلام إضافي عن السيد تشيتام. لقد أحرجتِ الآنسةَ كيربي، فهو صديقُها الوحيد. رباه (ثمَّ جلست ونظرت بحزن من النّافذة) إنَّ تلك الروح البائسة وحيدةٌ حتى إنَّها مستعدةٌ للركوب في تلك السيارة التي تشبه رائحتُها رائحةَ آخر دوائر الجحيم.

تأمَّلت الطفلة، وقالت بينها وبينَ نفسها: "وهي هيكلٌ للروح القدس كذلك"، ثمَّ قالتْ لأمها:

- لم أكُن أفكرُ فيه، بل بالأخويْن ويلكينسِس، ويندل وكوري، اللذين يَزوران العجوز بوتشيل في مزرعتِها. إنهما حفيداها، ويعملان عندها.

غمغمتْ أمُّها ورمقتها بنظرةٍ ممتنَّة قائلة: "هذه هي الأفكار الجيدة"، لكنها بعدئذٍ تراختْ من جديد، "لكنهما ليسا إلّا صبيّا مزرعة، ستشمخ الفتاتان بأنفيهما عليهما".

- هه! إنَّهما يرتديان السراويل، وهما في السادسة عشرة، ولديهما سيارة. سمعتُ أنَّ كليْهما سيصير مبشِّرًا لصالح كنيسة الرب. لا يحتاج المرءُ إلى معرفة شيء ليصير مبشرًا.

قالتِ الأم: "ستكونان آمنتين كلَّ الأمان مع هذين الصبيّين"، وفي غضون دقيقة، نهضتْ واتَّصلت بجدتِهما عبرَ الهاتف، وبعد أن تكلَّمت إلى العجوز لنصف ساعة، رتَّبتا أن يأتي ويندل وكوري إلى العشاء، وبعد ذلك يأخذان الفتاتين إلى الكرنفال.

سُرَّت سوزان وجوان جدًّا، فغسلتَا شعريْهما ولفَّتاه بلفائف الألومنيوم، وقالت الطفلةُ في نفسها بينما تجلس على الأرض متربّعة وتراقبهما يفكّان اللفائف: "هه، انتظرَا حتى تختبران ويندل وكوري". ثمَّ قالت:

- سيروقُ لكما هذان الصبيان، ويندل طولُه ستُّ أقدام وله شعرٌ أحمر، وكوري ستُّ أقدام وستُّ بوصات، وله شعرٌ أسود ويلبس سترة رياضية. كما أنَّهما يمتلكان سيارةً على مقدِّمتها ذيل سنجاب.

سألتْها سوزان بينما تلصق وجهَها بالمرآة لترى حدَقتي عينيها تتَّسعان:

- وكيف تعرف طفلةٌ مثلك كلَّ هذا عن الرجلين؟

استلقتِ الطفلة في سريرها وبدأتْ تحصي ألواحَ السقف الهزيلة حتى نسيت مكانَها، ثمَّ قالت لأحدٍ ما في قرارتها: أعرفهما حقَّ المعرفة. لقد حاربنا في الحرب العالمية معًا. كانا تحتَ إمرتي وأنقذتهما خمسَ مرات من الغواصين اليابانيّين الانتحاريين، وقال ويندل إنه سيتزوَّج هذه الطفلة، فقال الآخر أوه لا لن تفعلَ ذلك، بل أنا سأتزوَّجها، وقلتُ لن يتزوَّجني أيٌّ منكما، لأنني سأحيلكما إلى المجلسِ العسكري في طرفة عين، ثمَّ قالت جهارًا:

- لقد رأيتهما في الجوار وحسب.

عندما جاءا، حدَّقت الفتاتان إليهما للحظة ثمَّ أخذتا تقهقهان وتتكلمان عن الدير. جلستَا بعد ذلك على الأرجوحة، وجلس ويندل وكوري على المسند الخشبي للدرج مثلما تجلسُ القرود؛ رُكبُهما بمحاذاة أكتافهما وأذرعُهما تتدلى بينها. كانا صبيَّين قصيري القامة، لهما وجهان أحمران، وعظام خدودٍ مرتفعةٌ وعيون مصفرَّة أشبه بالبذور، وقد جلبَا معهما هارمونيكا وغيتارًا، وراحَ أحدهما ينفخ برفق في الهارمونيكا، ويراقب الفتاتيْن من فوقها، بينما بدأ الآخرُ بالعزف على الغيتار ثمَّ شرعَ في الغناء

من دون أن يراقبهما، بل مالَ برأسه إلى الأعلى كأنه غيرُ مهتمٍ إلا بسَماع نفسه. غنَّى أغنيةً جبليَّة بدَت ما بين أغنية حبٍ وترنيمة.

كانتِ الطفلة واقفةً على برميل حُشرَ بينَ بعض الشجيرات في جانب المنزل، ووجهُها محاذٍ لأرضية الشرفة، وكانت الشمسُ تهمُّ بالغياب كاسيةً السماء لونًا بنفسجيًّا مكدومًا بدَا مرتبطًا بصوت الموسيقى الحزين العذب. بدأ ويندل يبتسم وينظرُ إلى الفتاتين بينما يغني، ثمَّ رمقَ سوزان بنظرة حبٍ وعطف، وأنشد:

"وجدتُّ في يسوع صديقًا لي،
هو كلُّ شيء في عينيّ،
هو زنبقةُ الوادي،
هو الذي سيحرّرني".

ثمَّ التفتَ إلى جوان بالنظرة نفسها وقال:

"يُحيط بي سور من النيران،
لكنني لا أخاف شيئًا،
فهو زنبقة الوادي،
وسيظلُّ بجواري دائمًا".

نظرتِ الفتاتان إلى بعضهما وأطبقتا شفاههما حتى لا تقهقهان، لكن سوزان أفلتتْ قهقهةً برغم ذلك، وصفقتْ يدَها على فمها، فعبسَ العازف وأمضى بضع ثوان يعزفُ بدون غناء، ثمَّ بدأ بأغنية "الصليب القديم الصارم"، وأنصتَتا بأدب، لكن عندما أنْهاها قالتا: "دعنا نغنّي أغنية"، وقبل أن يتمكنَ من بدء واحدةٍ أخرى بدأتا ترنّمان باللاتينية بأصواتٍ تدرَّبت بالدير:

"فلنبجّل برؤوس مطأطئة

هذا السرّ المقدس العظيم
ولترضَخ السنّة القديمة
للطَّقس الديني الجديد".

راقبتِ الطفلة وجهي الصبيّين الرَّزينين يتبادلان نظراتٍ عابسةً حائرة كأنهما غيرُ واثقين ممّا إن كانا يتعرضان للسخرية أم لا.

"فليسدَّ الإيمان النقص
حينما تعجز الحواس
وليكُنِ المجدُ والتهلُّل
للأبِ مثلما للابن
فلتكُنِ العافية والعزة والقوة...

صارَ وجهَا الصبيّين بلون أحمرَ قانئ تحتَ الضوء الرمادي البنفسجي، وبدا عليهما العنف والفزع.

"ولتكنِ النعمة أيضًا،
على مَن يأتي من الاثنين
وليكنْ له مجد مثله
آمين".

نطقتِ الفتاتان كلمةَ آمين مطوَّلة، ثمَّ ساد الصمت.

قال ويندل: "لا بدَّ أنَّ هذا الغناء يهودي"، وبدأ يضبط غيتاره.

قهقهتِ الفتاتان ببلاهة، لكنَّ الطفلة خبطت البرميلَ بقدمها وصرخت: "أيها الثور الكبيرُ المغفَّل! يا ثور كنيسةِ الرَّب الكبير المغفّل" ثمَّ سقطت عن البرميل ونهضتْ واقفة واندفعت تركضُ ملتفَّةً حولَ ركن المنزل بينما قفزوا عن المسند الخشبي ليروا مَن يصرخ.

كانت أمُّها قد رتَّبت ليتناولوا العشاءَ في الفناء الخلفي، وأعدَّت طاولة هناك تحت بعضِ الفوانيس اليابانية التي أخرجتها من أجل حفلات الحديقة. قالت الطفلة: "لن آكلَ معهم"، وانتزعت طبقَها عن الطاولة ثمَّ أخذته إلى المطبخ وجلست مع الطبّاخة النحيلة زرقاء اللثة تتناول عشاءها.

سألتْها الطباخة:

- كيف تصيرينَ بهذه القباحة أحيانًا؟

- أولئك الحمقى الأغبياء.

موَّهت الفوانيس، من حيث عُلقَتْ، أوراق الأشجار باللون البرتقالي، وانتشر فوقَها لونٌ أخضر مسودّ، وتحتها تدرُّجات مختلفة من الألوان الباهتة الخافتة التي جعلتِ البنتين الجالستين إلى الطاولة تبدوان أجملَ من حقيقتهما. ومن وقت إلى آخرَ كانت الطفلةُ تدير رأسَها وتنظر من نافذة المطبخ إلى المشهدِ تحتها.

قالتِ الطباخة:

- اللهُ قادر على أن يصيبَك بالصمم وبالبكم والعَمى، وعندها لن تعودي بهذا الذكاء.

- سأظلُّ أذكى من البعض.

غادروا بعدَ العشاء إلى الكرنفال، وكانت ترغبُ بالذهاب إليه، لكن ليس معهم، لذا حتَّى لو سألوها ما كانت لتذهب. صعدتْ إلى الطابق العلوي وراحت تذرع غرفة النَّوم الطويلة بيديْن مشْبوكتين خلفَ ظهرها، ورأسٌ ممدود إلى الأمام، ويعلو وجهَها تعبيرٌ عنيف وحالم معًا. لم تُشعلِ الضوءَ الكهربائي، بل تركت الظلامَ يجتمعُ ويجعل الغرفةَ أصغرَ وأكثر خصوصية. على فترات منتظمة، كان يمرُّ ضوءٌ بالنافذة المفتوحة ويلقي ظلالًا على الجدار. وقفتْ وراحت تنظر من فوق السّفوح المظلمة وراءَ

البركة المتلألئة بالفضة، خلفَ سور الغابات، إلى السماء المنقَّطة حيث يدور أصبعٌ طويل من الضَّوء صاعدًا وهابطًا وآتيًا وذاهبًا، يفتِّش الجوَّ كأنه يطارد الشمسَ المفقودة. كان الضوء المرشدَ للاحتفال.

تناهَى إلى سمعها صوتُ آلة الكاليوبي البعيد، وتصوَّرت الخيامَ كلها منصوبة في ضوءٍ من تدرُّجات الذهبي، وحلقة دولاب الهواء الماسية تدورُ وتدور عاليًا في الجو، ثمَّ تهبط ثانية، ودوّامة الخيل البهيجة تبرمُ وتبرم على الأرض. يستمر الكرنفال خمسةَ أيام أو ستة، فيها ظهيرةٌ خاصَّة بأطفال المدارس، وليلة خاصَّة بالزّنوج. كانت قد ذهبتْ في العام الماضي في ظهيرة أطفال المدارس، ورأت القرودَ والرجل البَدين وركبت دولابَ الهواء. رأت آنذاك بعضَ الخيام مغلقةً لأنها تحْوي أشياء لا يعرفها إلّا البالغون، لكنَّها نظرت باهتمام إلى الإعلان الملصَق عليها، إلى الصور الشاحبةِ لأناسٍ يرتدون سراويل ضيقة ولهم وجوه ممْطوطة ومتيبِّسة ورزينة كوجوه الشّهداء المنتظرين أن يقصَّ الجندي الروماني ألسنتَهم. تصوَّرت أنَّ ما بداخل هذه الخيام متعلقٌ بالطب، وقرَّرت أن تصير طبيبة عندما تكبر.

غيَّرت رأيها مذْ ذاك الحين وقررتْ أن "تصير" مهندسة، لكن بينما وقفت تنظر من النافذة وتلاحق ضوءَ البحث الدوّار بعينيها وهو يتَّسع ويضيق ويدور في قوسِه، شعرت بأنَّ عليها أن تكون أكثرَ بكثير من مجرد طبيبة أو مهندسة. عليها أن تصيرَ قدّيسة لأنها المهنةُ التي تضمُّ كلَّ شيء يمكن للمرء أن يعرفه، غير أنها عرفتْ رغم ذلك أنها لن تصيرَ قديسة أبدًا. لم تسرقْ أو تقتل من قبل، لكنها وُلدت كاذبةً وكسولة، وقد خاطبت أمَّها بوقاحة وعاملت الجميع تقريبًا معاملة كريهةً عمدًا. إضافة إلى أنَّ خطيئة الغرور تستبدُّ بها، وهي أسوأ الخطايا. وسخرَت من المبشِّر المعْمداني الذي جاء إلى المدرسة في يوم التخريج للتعبُّد، فمطّت فمَها وأمسكت جبهتها كأنها تتألم وقالت متأوِّهةً: "أبانا الذي في السماء، إننا نشكرك"، تمامًا

كما قالها، وطُلب منها مرّات عديدة أن تكفَّ عن ذلك. لن تصير قديسة أبدًا، لكنَّها فكرت في أنها يمكن أن تصيرَ شهيدة إذا ما قتلوها بسرعة.

يمكنُها احتمالُ أن تتلقَّى رصاصة، ولا يمكنها احتمالُ الحرق بالزيت، ولم تعرف ما إنْ كان بمقْدورها احتمال أن تمزّقها الأسودُ أم لا. بدأت بتحضير مشهدِ اسْتشهادها، فرأتْ نفسَها في زوج من السروايل الضيقة بميدان عظيم، يضيؤه المسيحيون الأوائلُ المُعلقون في أقفاص من نار تشعُّ بضوء ذهبي مغبَّر يسقط عليها وعلى الأسود. هجمَ الأسد الأول، وسقطَ عند قدميها منقلبًا، وفعلت سلسلة كاملة من الأسود الأمرَ نفسَه. أحبتها الأسود حبًّا جمًّا حتى أنها نامت بينها، فاضطُرَّ الرومان في آخر الأمر إلى حرقها، لكنْ أذهلهم أنها لم تحترق، ولما وجَدوا قتلها صعبًا قطعوا رأسَها في آخر الأمر بالسيف بسرعة وذهبت إلى الجنة مُباشرة. تدرَّبت على هذا عدةَ مرّات، وفي كلِّ مرة ترجع بعد دخولها الفردوس إلى الأسود.

أخيرًا، قامتْ عنِ النافذة وتجهَّزت للنوم ثمَّ ارتمَتْ في السرير من دون أن تردد الصَّلوات. كان في الغرفة سريران مزدوجان تحتلُّ البنتان ثانيهما، فكرَت الطفلة بشيء باردٍ ورطب يمكنها إخفاؤه في سريرهما، لكن تفكيرها كان عقيمًا، إذ ليس عندَها شيء مما فكرتْ فيه، مثل جثة دجاجة أو قطعة من كبد بقرة. أبقاها صوتُ الكاليوبي القادم من النافذة مستيقظة، وتذكرتْ أنها لم تردد الصلوات، فنهضت وركعتْ وشرعت بها. بدتْ بدايةً مستعجلة بلغت فيها نهاية الرَّمز الرسولي، ثمَّ دلَّت ذقنها عن جانب السرير خاوية الذهن. كانت صلواتها، عندما تتذكر أنْ تنطقها، روتينية في العادة، لكن أحيانًا، عندما تكون قد ارتكبت خطأً ما أو سمعت موسيقى أو ضيَّعت شيئًا، وأحيانًا بدون أيِّ سبب؛ تدبُّ فيها الحميَّة فتتأمل رحلة المسيح الطويلة إلى الجلجثة وانسحاقُه تحت الصليب الغليظ ثلاثَ مرات. كان عقلُها يتعلق بذلك لبعضِ الوقت ثمَّ يفرغ، وعندما ينبّهها شيء

ما، تجد نفسها تفكرُ بشيء آخر تمامًا، بكلبٍ ما أو بنتٍ ما أو شيء ستفعله يومًا ما. الليلة، عندما تذكَّرت ويندل وكوري امتلأت بالشُّكر وكادت تنتحبُ غبطة، وقالت: "رباه، ربّاه، أشكرك على أنني لستُ في كنيسة الرب، أشكرك يا ربي، أشكرك"، وعادتْ إلى السرير وظلتْ تردِّدها حتى غطَّت في النوم.

جاءتِ البنتان في الثانية عشرة إلا ربعًا وأيقظتاها بقهْقهاتهما. أشعلتا المصباح الصغيرَ ذا الكُمَّة الزرقاء لتبدِّلا ملابسهما، وتسلُّق ظلاهما النحيلان الجدار ثمَّ انكسرَا وتابعَا التحرك بخفَّة على السقف. جلستِ الطفلة لتسمع عما شاهدتاه في الكرنفال. كانت سوزان تحمل مسدسًا بلاستيكيًّا مليئًا بالحلوى الرخيصة وجوان معها قطةٌ كرتونية فيها بعضٌ من حلوى حمراء مُرقَّطَة. سألت الطفلة:

- هل رأيتما القردةَ ترقص؟ هل رأيتما الرجلَ البدين والأقزام؟

قالتْ جوان: "رأينا جميعَ أنواع المسوخ"، ثمَّ قالت لسوزان: "لقد استمتعتُ بكل شيء إلا.. "تعرفين ماذا؟""، واتَّخذ وجهها تعبيرًا غريبًا كأنها قضمت شيئًا لا تعرفُ إنْ كان يروق لها أم لا.

وقفتِ الأخرى جامدةً ثمَّ هزتْ رأسَها مشيرةً إشارة طفيفة للطفلة وقالت بصوتٍ خفيض: "الأباريقُ الصغيرة*"، لكنَّ الطفلة سمعتها وبدأ قلبها يخفق خفقًا سريعًا جدًّا.

نزلتْ عن سريرها وتسلَّقت لوحَ قدم سريرهما. كانتَا قد أطفأتا الضوء واستلقتا في السَّرير، لكنها لم تتحرَّك، بل ظلتْ في مكانها تحدِّق إليهما بإمعان حتى صارَ وجهاهما واضحيْن في الظلمة، فقالت:

- لستُ كبيرة مثلكما، لكنَّني أذكى بمليون مرة.

* تقصد هنا المثلَ القائل: "للأباريق الصغيرة آذانٌ كبيرة". (المترجم).

قالتْ سوزان:

- ثمَّة بعضُ الأشياء التي لا تعرفها طفلة بسنّك.

وبدأتَا تقهقهان، ثمَّ قالت جوان:

- عودي إلى سريرك.

لم تتحركِ الطفلة، وقالت بصوتٍ بدا أجوف في الظلام:

- ذاتَ مرة، رأيتُ أرنبة تُنجب أرانب.

سادَ الصمت، ثمَّ سألتْ سوزان: "كيف؟"، بلهجةٍ مختلفة، وعرفَت أنها تمكَّنت منهما، فقالت إنَّها لن تخبرهما حتى يخبراها عن "تعرفين ماذا؟". في الحقيقة، لم ترَ قطُّ أرنبة تُنجِب أرانب، لكنَّها نسيَت هذا حالمَا بدأتا تخبرانها بما رأتاه في الخيمة.

كان للمسْخ اسمٌ لكنَّهما نسيتاه، وكانتِ الخيمة التي تحتويه مقسومةً بستارة سوداء إلى قسْمين؛ قسم للرجال وقسم للنساء. مضى المسخُ من قسم إلى آخر، فتكلم أولًا إلى الرجال ثمَّ إلى النساء، لكنَّ صوته مسموع للجميع. امتدتِ المنصة على طول الواجهةِ كلها، وسمعتِ البنتان المسخَ يقول للرجال: "سأريكم الآن هذا، وإن ضحكتُم فليُصبكم اللهُ بمثله"، بصوتٍ ريفيّ، بطيء وأخنّ وليس عاليًا ولا خفيضًا، رتيب وحسب، "لقد خلقني اللهُ هكذا، وإن ضحكتم فعسى أن يصيبكم بمثلِ ما أصابني. هكذا أرادني أن أكونَ ولستُ بمعترضٍ على إرادته. أريكم ما لديَّ لأنَّ عليَّ تحقيقَ أقصى استفادة منه. لم أصبْ نفسي به ولا علاقة لي ألبتَّة، لكنَّني أستفيد منه، ولا أعترضُ عليه"، ثمَّ عمَّ صمتٌ طويل على الجانب الآخر من الخيمة، وأخيرًا، غادرَ المسخ الرجالَ وجاء إلى جانب النساء وقال الكلامَ نفسه.

شعرتِ الطفلة بكلِّ عضلة في جسمها تتقلصُ كأنها تسمع حلَّ أحجية مُحيّر أكثر من الأحجية نفسها.

- أتعْنين أنَّ له رأسيْن؟

قالتْ سوزان:

- لا. كان رجلًا وامرأةً في الآنِ نفسه. رفع فستانَه وأرانا. كان يلبس فستانًا أزرق.

أرادتِ الطفلة أن تسأل كيف يمكن أن يكون رجلًا وامرأة معًا من دون أن يكون له رأسان، لكنَّها لم تفعل، بل رغبتْ بالعودة إلى سريرها والتفكير في الأمر، وعندما بدأتْ تهبط لوح القدم سألتها جوان:

- ماذا عن الأرنبة؟

توقَّفت الطفلة ولم يظهرْ إلا وجهُها من فوق اللوح، ذاهلًا وغائبًا، ثمَّ قالت:

- لقد بصقتها من فمها، ستة أرانب.

استلقتْ في سريرها تحاول تخيلَ الخيمة والمسخ يقطعُها من جانب إلى آخر، لكن نعاسها منعَها من تصوُّر ذلك، فتصوَّرت بدلًا منه وجوه أهل القرية يشاهدون- الرجال أكثر جديّة مما يكونون عليه في الكنيسة، والنساء عابسات ومهذبات- بأعينٍ تبدو مرسومةً، واقفين كأنَّهم ينتظرون أول نغمة من البيانو ليبدؤوا بالتَّرنيم. كان بمقدورها سماعُ المسخ يقول: "لقد خلقني اللهُ هكذا ولستُ بمعترض عليه"، والناس يقولون: "آمين. آمين".

- اللهُ أصابني بهذا وأنا أمجِّده.

- آمين. آمين.

- كان قادرًا على إصابتكم بمثله.

- آمين. آمين.

- لكنه لم يفعل.

- آمين.

- أنهضوا أنفسكم هيكلًا للروح القدس. كلكم هياكلُ لله، ألا تعرفون ذلك؟ ألا تعرفون؟ لروح الله مسكنٌ فيكم، ألا تعرفون؟
- آمين. آمين.
- إن دنَّس أحدٌ ما هيكلًا لله فسيدمّرُه الله، وإن ضحكتم فسيجعلكم مثلي. هياكل الله أشياء مقدَّسة.
- آمين. آمين.
- أنا هيكلٌ للروح القدس.
- آمين.

بدأ الناسُ يصفقون بأيديهم من دون أن يصدروا أصواتًا صاخبة، وبإيقاع منتظم بين كلماتِ آمين، يهدأ شيئًا فشيئًا، كأنَّهم يعرفون أنَّ ثمة طفلةً نصف نائمة بالقرب منهم.

في الصباح التالي، ارتدتِ البنتان لباسَ الدير البني من جديد وأخذتهما الطفلة وأمُّها إلى دير القديسة سكولاستيكا. قالتا: "رحْماك يا رب، رحماك يا بطرس الرَّسول! ها نحن إلى الشقاء نعود". أوصلهما ألونزو مايرز إلى هناك، وجلست الطفلةُ بجواره في الأمام بينما جلست أمُّها في الخلف بين البنتين تحكي لهما عن مدَى سرورها باستضافتِهما، وأنَّ عليهما المجيء ثانية، ثمَّ راحت تخبرهما عن الأوقاتِ الطيبة التي عاشتها وأمَّيهما عندما كُنَّ صغيرات في الدير. لم تنصتِ الطفلةُ إلى شيء من هذه الثَّرثرة، بل ظلتْ ملتصقة بالباب المقفل بقدر الإمكان مادةً رأسَها من النافذة، فقد ظنّوا أنَّ رائحة ألونزو ستكون أفضل في أيام الأحد، لكنَّها لم تكُن. كان بوسعها -والريحُ تنفخُ في وجهها- النظرُ إلى الشمس العاجية المرْسومة في منتصف الظهيرة الزرقاء مباشرة، لكن عندما أبعدت ناظريها عنها اضطُرَّت إلى تخزيرهما.

كان ديرُ القدّيسة سكولاستيكا منزلًا من طوب أحمر في حديقة بمنتصف البلدة، في أحدِ جانبيه محطةُ وقود، وفي الآخر محطة إطفاء. يلتف حول البناء سورٌ معدنيٌّ أسود مرتفع، وتمتدُّ مَماشٍ ضيقة مرصوفة بين الأشجار العتيقة وشجيرات الخوخ الياباني المثقلة بالزهور. خرجت راهبة ذاتُ وجه كبير مدوّر مسرعةً إلى البابِ لتدخلهم، فعانقتِ الأمّ وكادت تعانق الطفلةَ لولا أنها مدَّت يدَها ورسمَت تقطيبة باردة بينما تنظر إلى الألواح الخشبية وراء حذاء الأخت تمامًا. كنّ يملن إلى تقبيل الأطفال القبيحين حتى، لكنَّ الراهبة صافحتها بقوة حتى أنها فرقعت أصابعها قليلًا، وقالت إنَّ عليهم الدخول إلى المُصلى، لأن منحَ البركة قد بدأ لتوّه. قالتِ الطفلة في قرارتها بينما يسرعون عبر الرواق المصقول: "حالما يطأ المرءُ بابهم يحملونه على الصلاة".

استمرَّت بالوقاحة نفسها عندما دخلوا المصلّى حيث ركعتِ الأخوات في جانب، والبناتُ اللابسات اللباس البنيَّ في الجانب الآخر، وكان من يراها يحسبُ أن ثمة قطارًا عليها اللحاقُ به. فاحت من الكنيسة رائحة البخور، وامتدت في سقفها سلسلةُ قناطر منبثقة مطليَّة بالأخضر الفاقع والذهبي تنتهي بالقنطرة فوق المذبح حيث يركع القسُّ أمامَ وعاء القربان المقدس، منحنيًا انحناءً خفيضًا، ومن خلفه يقف صبيٌّ صغير يرتدي حلةً كهنوتية بيضاء يُأرجح المبخرة. ركع الصبي بين أمّها والراهبة، وقطعوا شوطًا لا بأس به من الترنيمة اللاتينية قبل أن تتوقف أفكارُها القبيحة وتدرك أنَّها في حضرة الرب، فبدأت تدعو بدون تفكير: ساعدني حتى أكفَّ عن الرذيلة، أعنّي حتى لا أردَّ عليها بوقاحة، أعنّي على تغيير أسلوبِ كلامي الحالي، أعنّي حتى أصيرَ هادئة ثمَّ فارغة، لكن عندما رفع القسُّ وعاءَ القربان والخبزُ يسطعُ بلون عاجيّ في وسطه، كانت قد وصلت

بأفكارها إلى خيمةِ الاحتفال والمسخُ فيها يقول: "هكذا أرادني أن أكون ولستُ بمعترضٍ على إرادته".

عندما همّوا بالخروج من باب الدير، انقضَّت الراهبةُ عليها بخبث خانقة إيّاها تقريبًا بردائها الأسود، وهرستْ جانبَ وجهها بالصليب المعلَّق بحزامها ثمَّ تركتْها وأخذت تنظرُ إليها بعينيْن صغيرتين بيريونكليتين*.

في طريق العودة، جلستْ وأمُّها في الخلف، وظلَّ ألونزو وحيدًا في الأمام. لاحظتِ الطفلة ثلاثَ طبقات من الدُّهون في قفا عنقِه، وانتبهت إلى أنَّ أذنيه مدبَّبتان كأذني الخنزير تقريبًا. سألته أمُّها - من باب المحادثة- عمّا إن ذهب إلى الكرنفال.

- ذهبتُ أجل. ولم أفوّت شيئًا، وكان من الجيد أنني ذهبتُ لأنهم لن يقيموه في الأسبوع المقبل مثلما وعدوا.

فسألتْه الأم:

- لمَ؟

- لقد أغلقوه. ذهب بعضُ المبشِّرين من البلدة لمُعاينته وحملوا الشرطة على إغلاقه.

تركتْ أمُّها المحادثة تخبو، وضاع وجهُ الطفلة المدوَّر في أفكاره، فأدارته ناحية النافذة وراحت تنظرُ إلى أرض مرْعى ممتدَّة تعلو وتهبط بخُضرتها المكتنزة حتَّى تلامس الغابات الداكنة. كانتِ الشمسُ كرةً حمراء كبيرة أشبه بخبز قربانيّ شاهق منْقوع بالدم، وعندما انحدرَت خارجَ مرمى البصر، تركت خيطًا في السماء كطريقٍ طيني أحمر معلَّق فوق الأشجار.

---

* لون البيريونكل: يأتي من الأزرق والبنفسجي، وسُمي تيمنًا بورد البيرونكل الصغير. سُجل أول مرة في اللغة الإنجليزية سنة 1895. (المترجم).

## يصعبُ العثورُ على رجلٍ جيد

لم ترغبِ الجدَّة بالذهاب إلى فلوريدا؛ بل أرادتْ زيارة بعض أقاربها في شرق تينيسي، وراحت تنتهزُ كلَّ فرصة لتغيّر رأي بيلي. بيلي هو ابنُها الذي تعيش معَه، ابنها الوحيد. كان جالسًا على حافَّة كرسيه إلى الطاولة، منحنيًا فوق قسم الرياضة البرتقالي في الجريدة.

"انظرْ هنا يا بيلي، انظر هنا، اقرأ هذا"، ووقفتْ مسندةً يدًا إلى ورْكِها النَّحيل، والأخرى تخشخش بالجريدة فوق رأسِه الأصلع: "يقولون هنا إنَّ هذا الشخص الذي يسمّي نفسَه باللامتناسب قد فرَّ من الإصلاحية الفيدرالية واتَّجه ناحية فلوريدا، واقرأ هنا ما فعله بأولئك الناس. اقرأه وحسْب. لن آخذَ أطفالي إلى أيِّ جهة فيها مجرمٌ طليق كهذا، لن يرتاح ضَميري إن فعلت".

لم يرفعْ بيلي رأسَه عن ما يقرؤه، فاستدارتْ حول نفسها وواجهت أمَّ الأطفال، وهي شابَّةٌ ترتدي بنطالًا فضفاضًا، ولها وجهٌ واسع وبريء كالكرنب ومربوط بوشاح أخضر له قامتان مدبَّبتان في أعلاه كأذني الأرنب. كانت جالسة على الكنبة، تطعمُ الرضيع مشمشًا من برطمان. قالت السيدة العجوز:

- لقد زار الأطفالُ فلوريدا قبلًا. يجب عليكما أخذُهم إلى مكان آخر من باب التَّغيير حتى يروا أجزاءً جديدة من العالم، وتتفتَّح أذهانُهم. هم مثلًا لم يذهبوا إلى شرقِ تينيسي قط.

بدَا أنَّ أمَّ الأطفال لم تسمعها، لكن ابنُ الثامنة، جون ويزلي، وهو صبي ممتلئ يلبسُ نظارات، قال: "إن كنتِ لا تريدين الذهاب إلى فلوريدا، فلمَ لا تبقينَ في المنزل؟" كان والبنت الصغيرة، جوون ستار، على الأرض يقرآنِ الصفحات الهزلية من الجريدة.

قالت جوون ستار من دون أن ترفعَ رأسَها الأصفر:

- لن تقبلَ بالبقاء في المنزل ونيْل يومٍ من الراحة.

فسألتِ الجدَّة:

- وماذا ستفعلانِ إن قبضَ عليكما هذا الرجلُ المُسمَّى باللامتناسب؟

قال جون ويزلي:

- سأصفعُه.

عادتْ جوون ستار مجدّدًا:

- لن تبقى في المنزل ولو مُنحتَ مليون دولار. تخشى أن تفوّت شيئًا ما. عليها الذهابُ حيثما نذهب.

فقالتِ الجدَّة:

- حسنًا يا آنسة، تذكّري ذلك عندما تطلبينَ منّي تمويجَ شَعرك المرة القادمة.

ردّتْ جوون ستار إنَّ شعرَها مموَّج بطبيعته.

في الصباح التالي، كانت الجدَّة أولَ مَن ركب السيارة، وقد وضعتْ في إحدى الزوايا، حقيبة سَفرها السوداء الكبيرة التي تشبه رأسَ خرتيت، وأخفتْ تحتها سلةً فيها القِطُّ بيتي سينغ. لم يكُن في نيَّتها ترك القط وحيدًا في المنزل لثلاثة أيام، ذلك أنَّه سيشتاقها كثيرًا، وهي تخشى أنْ يحتكَّ بإحدى حراقات الغاز، فيخنق نفسَه عن غير قصد. أمّا ابنها بيلي، فلم يرُق له أن يجلس برفقة قط.

جلستْ الجدّة في منتصف المقعد الخلفيّ وإلى جانبيها، جون ويزلي وجوون ستار، بينما جلسَ في الأمام، بيلي والطفل الرضيع وأمُّ الأطفال. غادروا أتلانتا في الثامنة وخمس وأربعينَ دقيقة، وعدادُ الأميال في السيارة يشير إلى الرقم 55890. كتبت الجدَّة ذلك لأنَّها ظنتْ أن ذكرَ عددِ الأميال التي قطعوها سيكون مثيرًا للاهتمام عندما يرجعون. استغرقوا عشرينَ دقيقة حتى بلغوا أطراف المدينة.

ارتاحتِ السيدةُ العجوز في جلستها، فنزعتْ عن يديها القفازاتِ القطنية البيضاء، ووضعتْها مع حقيبة يدِها على الرفِّ تحت النافذة الخلفية. كانت أم الأطفال ترتدي بنطالها نفسه، ورأسُها مربوطٌ بالوشاح الأخضر، فيما الجدَّة اعتمرت قبعة بحّارة قشيّة كُحليَّة على حافتِها باقةٌ من البنفسج، ولبست فستانًا كحليًّا مُنقطًا بنقط بيضاءَ صغيرة، ياقتُه وكتّافاتُه من قماش الأورغاندي الأبيض المخرَّم، وثبتَت عندَ تقويرة عنقِه غُصينًا يحمل بنفسجاتٍ قماشيةً وكيسًا معطرًا. في حال حدثَ حادث، سيعرف على الفور أيُّ شخص يراها ميتةً على الطريق السريعة أنها سيدةٌ نبيلة.

قالت إنَّها تظنُّ أنَّ النهار سيكون مناسبًا للقيادة، لا مفرطَ الحرارة ولا مفرط البُرودة، ونبَّهت بيلي أنَّ الحدَّ الأقصى للسرعة خمسة وخمسون ميلًا في الساعة، وأنَّ رجال الدورية يختبئون وراءَ لوحات الإعلانات وأجمات الأشجار الصغيرة ويطاردون المرءَ قبل أن تسنحَ له الفرصة بالانتباه. ثمَّ ذكرَت تفاصيل مثيرةً للاهتمام عن المشاهد: جبل ستون والغرانيت الأزرق الذي يصل في بعضِ الأماكن إلى كلا جانبي الطريق السريعة، وتلال الطين الأحمر اللامع المخطَّطة تخطيطًا خفيفًا بالأرجواني، والمحاصيل المختلفة التي تشكل صفوفًا من القماش المخرَّم على الأرض. كانتِ الأشجار زاخرةً بأشعة الشمس الفضية المائلة إلى البياض، وأقلُّها يتلألأ تلألئًا، والطفلان يقرآن مجلاتٍ هزلية، فيما الأمّ خلدتْ إلى النوم.

قال جون ويزلي:

- فلنعبر جورجيا بسرعة حتى لا نضطرَّ إلى النظر إليها كثيرًا.

فقالتِ الجدَّة:

- لا يجدر بك الحديث عن ولايتي الأمّ بهذه الطريقة. تينيسي تمتلك الجبالَ وجورجيا التلال.

لكنه أضاف على الفور:

- تينيسي ليست إلا مكبٌّ نفايات متخلِّف، وجورجيا ولاية قذرة كذلك.

قالت جوون ستار:

- أوافقُك الرأي.

فردّتْ الجدَّة، بينما تشابك أصابعَها كثيرة العروق: "في زماني، كان الأطفالُ أكثر احترامًا لولاياتهم الأمّ، ولوالديهم، ولكلِّ شيء آخر. كان الناس يتوخّون الأخلاق آنذاك. أوه، انظروا إلى الطفلِ الزّنجي الصغير الجميل!" وأشارت إلى طفل يقف على باب كوخ، ثمَّ سألت: "أليس منظرُه جديرًا بلوْحة؟" فالتفتوا جميعًا لينظروا إلى الزّنجي الصغير من النافذة الخلفية، وهو يلوّح لهم.

قالت جوون ستار:

- إنَّه لا يلبس سروالًا.

ففسَّرت لها الجدَّة:

- من المرجَّح أنه لا يمتلك سروالًا، فالزنوج الصغارُ في الريف لا يملكون أشياء مثلنا. لو كنتُ أجيدُ الرسمَ لرسمت تلك اللوحة.

ثمَّ عاد الطفلان للانشغال بالكتبَ الهزلية.

عرضتِ الجدَّة أن تحمل الرضيع، فمرَّرته لها أمُّ الأطفال من فوق المقعد. أجلسته على ركبتِها وراحتْ تنططه وتحكي له عن الأشياء التي تجتازها السيارة، ثمَّ قلبَت عينيها وزمّتْ فمَها وحشرت وجهَها النحيل القاسي في وجهه الناعم الرَّقيق، بينما يبادرها من حينٍ لآخر بابتسامةٍ واهية. مرّوا بعد ذلك من أمام حقل قطنٍ كبير في وسطه خمسةُ أو ستة قبور مسوَّرة، مثل جزيرة صغيرة، فقالت الجدَّة مشيرةً إليها:

- انظروا إلى المقبرة! كان هذا مدفنَ العائلة القديمة، وكان جزءًا من المزرعة.

سألَ جون ويزلي:

- وأينَ المزرعة؟

- ذهبتْ مع الريح، هاها.

عندما أنهى الطفلان جميعَ الكتب الهزلية التي جلباها، فتحا علبةَ الغداء وتناولاه، وأكلتِ الأمُّ شطيرة زبدة الفول السوداني وزيتونة، ولم تسمحْ للطفلين برمي العلبة والمناديلِ الورقية من النافذة. وعندما لم يبقَ أمامهما ما يفعلانه، لعبَا لعبة تقوم على اختيارِ غيمةٍ وحمْل الآخر على تخمين أيِّ شكلٍ توحي به. اختار جون ويزلي واحدةً على شكل بقرة، فخمّنت جوون ستار الإجابة الصحيحة، فقال جون ويزلي: لا، إنَّها سيارة. ردّتْ جوون ستار إنَّه لا يلعب بنزاهة، وبدأ واحدهما يصفعُ الآخرَ من فوق الجدَّة.

قالتِ الجدَّة إنَّها ستحكي لهما قصةً إذا ما جلسا بهدوء، وكانت عندما تحكي قصة تقلبُ عينيها وتموّج رأسها وتقدّم أداءً مسرحيًّا للغاية. حكَت أنها ذاتَ مرة عندما كانت سيدةً عزباءَ تودَّد إليها رجلٌ اسمُه السيد إدغار أتكينز تيغاردن من جاسبر بجورجيا. قالت إنَّه كان رجلًا في غاية الوسامة، وسيدًا نبيلًا، وإنه كان يشتري لها بطيخةً في ظهيرة كلِّ سبتٍ ينقش عليها

أحرفَ اسمه الأولى (E. A. T.). في أحدِ أيام السبت، جلبَ السيد تيغاردن البطيخة ولم يكن ثمَّة أحدٌ في المنزل، فتركَها على الشرفة الأماميةِ وعادَ بعربته إلى جاسبر، لكن البطيخة لم تصلْها لأنَّ صبيًّا زنجيًّا أكلها عندما رأى الأحرفَ الأولى، (E. A. T.*)! دغدغت القصةُ جون ويزلي وراح يقهقه ويُقهقه، لكنْ جوون ستار لم ترَها ممتعة، وقالت إنَّها ما كانت لتتزوَّج رجلًا لا يفعل شيئًا إلّا جلبَ بطيخة كلّ يوم سبت، فقالت الجدَّة إنَّه كان خيرًا لها لو تزوَّجت السيد تيغاردن لأنَّه رجلٌ نبيل وقد اشترى أسهمًا في شركةِ كوكا كولا في بداية ظهورها، وماتَ منذ بضع سنوات فاحشَ الثراء.

توقَّفوا عند محطة ذا تاور لتناول السندويتشات المشويَّة. كانت ذا تاور محطة وقودٍ نصفُها من الجبس ونصفها الآخر من الخشب، وقاعة رقص، مبنيَّة في فسحة خارج تيموثي، يُديرها رجلٌ بدين اسمُه ريد سام بَتْس، وثمَّة إعلانات ملصقة على جميع جوانب المبنى ولأميالٍ على الطريق السريعة تقول: جرِّبوا مشويّات ريد سام الشهيرة. لا شيء يشبِه مشويات ريد سام الشهيرة! ريد سام! الفتى البدينُ ذو الوجه السعيد. إنه متمرِّس! ريد سام رجلكم المنشود!

كان ريد سام مستلقيًا على الأرض الجرداء أمامَ ذا تاور ورأسُه تحت شاحنةٍ، بينما يزقح بجواره قردٌ رمادي طولُه قدمٌ تقريبًا، مقيَّدٌ إلى شجرة صغيرة. وثبَ القرد عائدًا إلى الشجرة وتسلَّق أعلى أغصانها حالما رأى الطفلَيْن يخرجان من السيارة ويركضان ناحيتَه.

في الداخل، كانت ذا تاور غرفةً مظلمة طويلة وُضعتْ طاولة بيع في أحدِ طرفيها وطاولات زبائن في الآخر، وامتدَّت مساحةٌ للرقص في منتصفها. جلسوا إلى طاولةٍ عائلية بجوار صندوق الموسيقى، وجاءت

* توافق الأحرفُ الأولى من اسم السيد فعلَ (Eat) بالإنجليزية، والذي يعني: كُل. (المترجم).

زوجةُ ريد سام - وهي امرأةٌ طويلة لها بشرةٌ بنيَّة محروقة وشعرٌ وعينان أفتح لونًا من بشرتِها - لتسجلَ طلباتِهم. وضعت أمُّ الأطفال قطعة نقدية في الآلة وشغلتْ أغنية "ذا تينيسي والتز"، فقالت الجدَّة إنَّ تلك النغمة تحفّز فيها الرغبةَ بالرقص دائمًا. سألت بيلي عما إنْ كان يرغبُ بالرقص، لكنه حملقَ فيها وحسب. لم يكن مَرحًا بطبيعته مثلها، والرَّحلاتُ توتِّره. كانت عينا الجدَّة البنيّتان برّاقتين جدًّا، وراحت تتمايل برأسها من جانبٍ إلى آخر، وتتظاهرُ بأنها ترقصُ في كرسيِّها. طلبت جوون ستار تشغيلَ شيء يمكنُها أن ترقص نقريًّا عليه، فوضعتْ أمُّ الأطفال قطعة أخرى وشغلت إيقاعًا أسرع، ثمَّ مشتْ جون ستار إلى ساحة الرقص، وشرعت ترقص بطريقتها.

قالتْ زوجة ريد سام بينما تنحني فوقَ طاولة البيع:

- أليستْ فاتنة! ما رأيُك أن تصيري بنتي الصغيرة؟

فردَّت جوون ستار: "لا بكلِّ تأكيد، ما كنتُ لأعيشَ في مكان متهالك كهذا ولو مُنحتُ مليون دولار!". وركضتْ عائدة إلى الطاولة.

ردَّدت المرأة: "أليستْ فاتنة؟"، ماطّةً فمَها بتهذيب.

وهمست الجدَّة:

- ألا تخجلين؟

ثمَّ جاء ريد سام وأمرَ زوجته بالتوقفِ عن التكاسل على الطاولة، والإسراع بطلباتِ الناس. لم يصلْ بنطالُه الكاكيّ إلا إلى عظْمتي وركيْه، وتدلَّى كرشُه من فوقه مثلَ كيس طحين يهتزُّ تحتَ قميصه، ثمَّ قعدَ إلى طاولة قريبة وأطلق توليفة من التَّنهيد واليودلة*، قبل أن يقول: "لا يمكنُ

* اليودل: أو اليودلية، نوعٌ من الموسيقى المؤداة بالصوتِ البَشري، يمارسه بعضُ القرويّين القاطنين في الريف السويسري. (المترجم).

الفوز، لا يمكن الفوز"، ومسح وجهَه الأحمر المتعرّق بمنديلٍ رمادي، "لا يعرف المرءُ بمَن يثق في هذه الأيام، أليست هذه الحقيقة؟".

فقالتِ الجدَّة:

- لم يعدِ الناس ودودين كما كانوا من قبْل بلا شك.

قال ريد سام:

- الأسبوع الماضي، جاءَ رجلان يقودان سيارة كرايسلر. كانت سيارة قديمةً مُنهكة لكنها تَفي بالغرض، وبدا الصبيَّان مقبولَيْن في نظري. قالا إنَّهما يعملان في الطاحونة. أتعلمينَ أنني سمحتُ لهما بملء سيارتهما بالدَّين؟ لمَ فعلتُ ذلك؟

قالتِ الجدَّة من فوْرها:

- لأنَّك رجلٌ جيد..رجل صالح!

فقال ريد سام كأنما فاجأتْه الإجابة:

- أجل أنا كذلك، كما أظن.

جلبتْ زوجته الطلبات، حاملةً خمسةَ صحون دفعةً واحدة من دون طبق؛ اثنان في كلِّ يد، وواحدٌ متوازن على ذراعها. وقالت بينما تنظرُ إلى ريد سام:

- لا توجد نفسٌ في أرض الله الخضراء يمكنُك الثقة بها، ولا أستثني من ذلك أحدًا، لا أحد.

سألتِ الجدَّة:

- هل قرأتُما عن ذلك المجرم الفارّ، اللامتناسب؟

فقالتِ المرأة:

- لن أتفاجأ ألبتَّة إنْ هاجم هذا المكان بعينه. إنْ سمع عن وجوده هنا، فلن تفاجئني رؤيتُه على الإطلاق. إنْ سمع أنَّ ثمة سِنتيْن في مسجلة النقد، فلن أستغربَ أبدًا إن...

قال ريد سام: "هذا كافٍ، اذهبي واجْلبي الكوكا كولا التي طلبَها هؤلاء الناس". فذهبتِ المرأةُ لتجلب بقية الطلب.

أكملَ ريد سام:

- يصعبُ العثورُ على رجلٍ جيد. كلُّ شيء يزداد سوءًا. أذكر أيامًا كان بوسْع المرء الخروجُ فيها وتركُ بابه الشبكي مفتوحًا. لقد ولَّت تلك الأيام.

ثمَّ راح يناقش مع الجدَّة تلك الأيامَ الأصلح. قالتِ السيدة العجوز إنَّ أوروبا برأيها هي المَلومة بالكامل على الحال الرّاهن. وأضافت أنَّ الطريقة التي تصرفت أوروبا بها تحملُ المرءَ على الظنّ أننا مصنوعون من مال. فقال ريد سام إنَّه لا جدْوى من الحديث في الأمرِ لأنها محقَّة تمامًا. ركضَ الأطفال خارجًا إلى ضوء الشَّمس الأبيض، ونظروا إلى القرد على الشجرة المخرَّمة، وكان يفلّي جسمَه من البراغيث، ويقضمُها بأسنانه كأنها طعامٌ شَهي.

انطلقوا مرةً ثانية عند الظهيرة الحارَّة، وراحتِ الجدَّة تغفو غفوات قصيرة وتستيقظ كلَّ بضْع دقائق على صوت شَخيرها. أفاقت أمامَ بلدة تومسبورو وتذكَّرت مزرعةً قديمة في هذا الحي زارتْها في صباها، قالت إنَّ المنزل كان بواجهةٍ فيها ستةُ أعمدة بيضاء، وجادّة من شجرات البلوط تؤدّي إلى تعريشتيْن خشبيَّتين صغيرتين، واحدةٌ على كلِّ من جانبي الواجهة؛ حيث يمكن للبنت الجلوسُ مع خاطبها بعدَ جولة في الحديقة. وتذكرت أيَّ طريق بالضبط ينبغي الانعطافُ إليه للوصول إلى المزرعة. كانت تعرفُ أنَّ بيلي لن يرغب بهدْر أيّ وقتٍ في النظر إلى منزلٍ قديم، لكن كلما تكلَّمت عنه أكثر زادتْ رغبتُها في رؤيتِه مرةً ثانية، واكتشاف ما إذا كانتِ التعريشتان التوأمتان ما تزالان قائمتيْن، فقالتْ باحتيال، بعيد عن الحقيقة، لكنَّها تتمنَّى لو أنَّها كذلك:

- تحكي القصة أنّ المنزل كان به لوحٌ سرّي، وأنّ العائلة خبأتْ كل الفضة التي تملكها بداخله ما إن وصل شيرمان* لكن لم يُعثر عليه قط.

قال جون ويزلي:

- هيه! لنذهبْ ونراه، سنعثرُ عليه! سنثقب جميعَ الألواح الخشبية لنجدَه.. مَن يعيش هناك الآن؟ أين يجبُ أن ننعطف؟ بابا، ألا يمكننا الانعطافُ إليه؟

وزعقتْ جوون ستار:

- لنذهب إلى المنزل ذي اللّوح السّري! بابا، ألا يمكنُنا الذهاب لرؤية المنزل ذي اللوح السّري!

فقالتِ الجدَّة:

- ليسَ بعيدًا من هنا، لن يستغرق الأمرُ أكثرَ من عشرين دقيقة.

كان بيلي يحدّق إلى الأمام مباشرة، وفكه مُتصلِّب كحدوةِ حصان، قبل أن يجيب:

- لا.

بدأ الطفلان بالزّعيق والصراخ بأنهما يريدانِ رؤية المنزل ذي اللوح السّري. ركلَ جون ويزلي ظهرَ المقعد الأمامي، وتعلّقت جوون ستار بكتفي أمّها، وراحت تتأفّف باستماتةٍ في أذنها من أنّهما لم ينالا أيَّ متعة حتى في إجازتهما، وأنّهما عاجزيْن أبدًا عن فعلِ ما يرغبان بفعله. ثمَّ بدأ الطفل الرضيع بالبكاء، وركلَ جون ويزلي ظهرَ المقعد بقوّة جعلت والدَه يشعر بالضربة في كُليتِه.

---

* ويليام شيرمان: (1820 - 1891): جندي ومعلم وكاتبٌ ورجل أعمالٍ أمريكي، خدمَ برتبة فريق أوّل في الحرب الأهلية الأمريكية بين عامي 1861 - 1865. (المترجم).

فصرخ: "حسنًا!". وركنَ السيارة إلى جانب الطريق، "ألا تخرسون؟ ألا تخرسونَ جميعًا لثانيةٍ واحدة؟ إنْ لم تخرسوا، فلن نذهب إلى أيِّ مكان".

غمغمتِ الجدَّة:

- ستكون الزيارةُ تثقيفية للغاية لهما.

فقال بيلي:

- حسنًا، لكنِ انتبهوا، فهذه هي المرةُ الوحيدة التي سنتوقَّف فيها لأجل أيِّ شيء من هذا القبيل. مرَّة وحيدة لن تتكرر.

وأرشدتْه الجدَّة:

- الطريقُ الترابية التي ينبغي لك الانعطافُ إليها صارت على مسافة ميلٍ خلفَنا تقريبًا. لقد علّمتُها عندما عبَرناها.

فقال بيلي متذمرًا:

- طريق ترابية!

بعد أنِ انعطفوا واتَّجهوا إلى الطريق الترابية، تذكرتِ الجدَّة خصائص أخرى للمنزل: الزجاج الجميل فوق الباب الأمامي، ومصباح الشمعة في الردهة. وقال جون ويزلي إنَّ اللوحَ السِّري على الأرجح في الموقد.

فقال بيلي:

- لا يمكنك دخولُ المنزل، لا نعرف مَن يعيش هناك.

واقترحَ جون ويزلي:

- بينما تكلمون الناسَ أمام المنزل، سأسرعُ إلى الخلف وأدخل من نافذة ما.

فقالتْ أمُّه:

- سنظلُّ كلنا في السيارة.

انعطفوا إلى طريقٍ ترابية، سارتْ السيارةُ فوقَها بخشونة في زوبعة من الغبار الورديّ، وتذكرتِ الجدَّة زمانًا لم يكنْ فيه طرقات مرصوفة، وقتما كانت رحلة ثلاثين ميلًا تستغرقُ يومًا كاملًا. كانتِ الطريق الترابية كثيرة التلال وفيها مستنقعات مفاجئة ومنعطفات حادَّة على حواجز ترابية خطرة. في لحظة يعتلون تلة تطلُّ على قمم الأشجار الزرقاء لأميال مِن حولهم، وفي اللحظة التالية يهبطون غورًا أحمرَ تطلُّ عليهم فيه الأشجار المكسوَّة بالغبار.

قال بيلي:

- حريٌّ بهذا المكان أن يظهرَ في غضون دقيقة، وإلا سأعود أدراجي.

بدَا الطريق كأنَّ أحدًا لم يعبرْه منذ أشهُر.

قالتِ الجدَّة: "لم يبقَ الكثير"، وحالما قالتها، مرَّت في بالها فكرةٌ مريعة، فكرة مُحْرجة، حتى أنَّ وجهَها احمرَّ وتوسَّعت عيناها، وارتفعتْ رجلاها قالبةَ حقيبتها التي في الزاوية. وما إن تحركتِ الحقيبةُ حتى طارت الصحيفة التي كانت قد وضعتْها فوق السلَّة، ورافقتها زمجرةٌ قفزَ معها القطُّ بيتي سينغ إلى كتف بيلي.

قُذف الطفلان إلى الأرضية وقُذفت أمُّهما - وهي متمسكة بالرضيع- من النافذة لتسقط على الأرض، وقُذفت السيدةُ العجوز إلى المقعد الأمامي. انقلبت السيارة مرَّة واحدة وحطَّت على جانبِها الأيمن في وادٍ إلى جانب الطريق، وظلَّ بيلي في مقعد السائق، والقط - المخطَّط بالرمادي ذو الوجه الأبيض العريض والأنف البرتقالي- متشبّثٌ برقبته مثل يَرَقة.

حالما رأى الطفلان أنَّ بإمكانهما تحريكَ أيديهما وسيقانهما، تدافعا خارجين من السيارة يصيحان: "لقد تعرَّضنا لحادث!"، فيما الجدَّة ملتفَّة على نفسها، آملةً أن تكون مصابةً حتى لا يصب بيلي جامَ غضبه عليها

دفعة واحدة. أمّا الفكرةُ المريعة التي مرَّت في بالها هي أنَّ المنزل الذي تذكرته بكلِّ هذا الوضوح ليس في جورجيا؛ بل في تينيسي.

نزع بيلي القطَّ عن عنقه بكلتا يديه ورَماه من النافذة إلى جذع شجرةِ صَنَوبر، ثمَّ خرجَ من السيارة وراح يبحثُ عن أمّ الأطفال. وجدها جالسةً مستندة إلى جانب القناةِ الحمراء المجوَّفة، حاملةً الرضيع الصارخ، لم يصبْها إلا جرحٌ على طول وجهها وكسرٌ في كتفها، وصاحَ الأطفال في نوبة ابتهاج: "لقد تعرَّضنا لحادث!"

قالت جوون ستار بخيبةِ أمل عندما خرجتِ الجدَّة تعرج من السيارة، وقبَّعتها ما تزال مدبَّسة على رأسها، لكنَّ حافتها الأمامية المكسورة مرتفعةٌ بزاوية أنيقة، وغصنُ البنفسج مدلًّى عن الجانب: "لم يُقتَل أحد"، وجلسوا جميعًا -فيما عدا الطفلين- مُرتجفين في القناة ليتعافوا من الصدمة.

قالتْ أمُّ الأطفال بصوت أجشّ:

- لعلَّ سيارة تأتي.

قالتِ الجدَّة بينما تضغطُ على جنبها: "أظنّ أنّ أحد أعضائي قد تأذى"، لكن لم يجبْها أحد. كانت أسنانُ بيلي تصطكُّ، وكان يلبس قميصًا رياضيًّا أصفر عليه بَبَّغاوات زُرق زاهية، فبدا وجهُه أصفر كقميصِه. وقررتِ الجدَّة ألا تذكر أنَّ المنزل في تينيسي.

كان الطريق يرتفع عشرَ أقدام فوقَهم فلا يرون إلا قممَ الأشجار على الجانب المُقابل منه، وخلف القناة التي يجلسون عندها تمتدُّ الغابات الشاهقة والمُعتمة والسَّحيقة. في غضونِ بضع دقائق، رأوا سيارةً على تلَّة قريبة، تتجه ناحيتَهم بأناةٍ كأنَّ ركابها كانوا يشاهدونهم، فوقفتِ الجدَّة ولوَّحت بكلتا يديها تلويحًا استعراضيًّا لتجذبَ انتباههم. استمرتِ السيارة بالتقدُّم على مَهل، واختفت وراءَ منعطف ثمَّ ظهرت ثانية، وصار تقدمُها

أبطأ على قمة التلَّة التي التفَّت حولَها. كانت سيارةٌ سوداء كبيرة بالية تشبه عربةَ نقل الموتى، وفيها ثلاثة رجال.

توقَّفت فوقهم تمامًا، ولبضع دقائق، نظر السائقُ إليهم نظرة ثابتة خالية من التَّعبير دون أن ينطق، ثمَّ أدار رأسَه وتمتم شيئًا ما للاثنين الآخرين فخرجَا. كان أحدُهما صبيًّا بدينًا يلبس بنطالًا أسودَ وقميصًا فضفاضًا أحمر في واجهتِه حصان فضيٌّ نافر. استدارَ إلى جانبهم الأيمن ووقف يحدِّق وفمُه مفتوح جزئيًّا في تكشيرة رخْوة. أما الآخر، الذي يلبس سروالًا كاكيًّا ومعطفًا أزرق مخطَّطًا وقبعة رماديةً أخفضها فأخفتْ معظم وجهه. مشى الإثنان ببطء إلى جانبهم الأيسر، دون أن يتكلما.

ثمَّ خرج السائق من السيارة ووقفَ بجوارها، وأخذ ينظرُ إلى العائلة. كان رجلًا أكبر سنًّا من الآخرَيْن، عاري الصدر، له شعرٌ بدأ بالمشيب ويرتدي نظاراتٍ بإطار فضي أعطتْه مظهرًا مثقفًا. وكان وجهُه طويلًا مجعّدًا، يلبس بنطالَ جينزٍ أزرق ضيقًا، ويحمل مسدسًا أسوة بالصبيّن.

صرخَ الطفلان:

- لقد تعرَّضنا لحادث!

انتاب الجدَّة شعورٌ غريب أنَّها تعرف الرجل ذا النظارات، فوجهه مألوف لديها كأنها قد عرفتْه طيلة حياتها لكنها في المقابل عاجزةٌ عن تذكرِ هويَّته. ابتعد الرجل عن سيارته وبدأ بنزول الحافَّة، مثبتًا قدميه بعنايةٍ حتى لا ينزلق. كان منتعلًا حذاء من دون جوارب، وكاحلاه حمراوان ونحيلان. قال:

- طابَ نهاركم. أرى أنكم سقطتُّم سقطةً خفيفة.

فقالتِ الجدَّة:

- انقلبْنا مرتين!

فصحَّح كلامها:

- مرَّة واحدة، لقد رأيناكم. ثمَّ قال للفتى ذي القبعة الرمادية: جرِّب سيارتهم لنرى إن كانت تدورُ يا حيرام.

سأل جون ويزلي:

- لمَ تحملُ المسدس؟ ماذا ستفعل به؟

فقال الرجلُ لأمّ الأطفال:

- سيدتي، أتمانعينَ أن تُجلسي الطفلين بجوارك؟ الأطفال يوتّرونني، وأريدُكم أن تجلسوا جميعًا معًا حيث أنتم.

سألتْه جوون ستار:

- مَن أنت لتُملي علينا ما نفعل؟!

ومِن خلفهم، كانتِ الغابات تنفتح مثل فمٍ أسود فاغر. قالت أمُّهما:

- تعالا إليَّ.

وشرعَ بيلي فجأة يقول:

- انظر، إنَّنا في مأزق! نحن في...

ثمَّ زعقتِ الجدَّة ووثبتْ واقفة وقالت بينما تحدِّق به:

- أنتَ اللامتناسب! لقد عرفتك من فوري!

قال الرجل، مبتسمًا بعضَ الشيء كأنما سَرَّه أن يُعرف رغمًا عنه:

- أجل أنا هو. لكنْ كان خيرًا لكم جميعًا لو أنَّك لم تعرفيني سيدتي.

أدارَ بيلي رأسه بحدَّة وقال لأمِّه شيئًا صدمَ الطفلين حتى، فبدأتِ السيدة العجوز بالبكاء، واحمرَّ وجهُ اللامتناسب، فقال:

- لا تستائي يا سيدتي. أحيانًا يقول الرجالُ ما لا يعْنونه. لا أحسبه قاصدًا أنْ يكلِّمك بهذه الطريقة.

فقالتِ الجدَّة: "لن تُطلق النارَ على سيدة، أليس كذلك؟" وأخرجت منديلًا نظيفًا من جيبها وبدأت تمسح عينيها به.

غرزَ اللامتناسب مقدمةَ حذائه في الأرض حافرًا حفرةً صغيرة ثمَّ طمرَها ثانية وقال:

- أتمنَّى ألا أضطرَّ إلى فعل ذلك!.

فقالت الجدَّة بصوتٍ يكاد يكون صراخًا:

- اسمعْ، أعرف أنك إنسانٌ صالح. لا يبدو عليك أنك سوقيٌّ ألبتَّة، وأعرف يقينًا أنك ابنُ أهل طيبين!

"أجل يا سيدتي. أحسنُ أهلٍ في العالم". وأظهرَ عندما ابتسمَ صفًّا من الأسنان البيضاء القوية، "لم يخلق اللهُ امرأة خيرًا من أمّي قط، وقلبُ أبي كان ذهبًا صافيًا". كان الصبيُّ ذو القميص الفضفاض قد جاء من خلفهما ووقف ومسدسُه على خصْره. ثمَّ قرفصَ اللامتناسب على الأرض وقال: "راقبِ الأطفالَ يا بوبي لي، تعرفُ أنهم يوتِّرونني"، ونظر إلى الستة المكوَّمين أمامه وبدا مُحرجًا كأنه لا يسعه التفكيرُ بشيء يقوله، فعلّق رافعًا نظرَه: "لا توجد غيمةٌ في السماء. لا يرى المرءُ شمسًا لكنَّه لا يرى غيمة كذلك".

قالتِ الجدَّة:

- أجل. إنه يومٌ جميل. اسمع، لا يجب عليك تسميةُ نفسك باللامتناسب لأنَّني أعرف أنَّ لك قلبَ إنسانٍ صالح. يمكنني معرفةُ ذلك من مجرد النظر إليك.

صاحَ بيلي: "صه.. صه! اخرسوا جميعًا ودَعوني أعالجُ الموقف". وكان مقرفصًا بوضعيَّة عدَّاء موشك على الانطلاق لكنه لم يتحرَّك.

قالَ اللامتناسب: "أقدِّر ذلك يا سيدتي". ورسمَ بعقبِ مسدسه دائرةً صغيرة على الأرض.

صاحَ حيرام بينما ينظرُ من فوق غطاء السيارة المرفوع:

- سأحتاج إلى نصفِ ساعة لإصلاح السيارة.

قال اللامتناسب مشيرًا إلى بيلي وجون ويزلي: "حسنًا، أولًا خذْه والصبيَّ أنت وبوبي لي إلى هناك". ثمَّ قال لبيلي: "يريدُ الصبيان أن يسألانكما سؤالًا، أتمانع في الذهاب إلى الغابة معهما؟".

فراحَ بيلي يقول: "اسمع، إننا في مأزقٍ رهيب! ولا أحد يدرك ما الأمر". ثمَّ تكسَّر صوتُه. كانت عيناه بزُرقة الببغاوات المرسومة على قميصِه، وظلَّ جامدًا تمامًا.

مدَّتِ الجدَّة يدَها لتعدّل حافة قبعتِها كأنما ستذهب إلى الغابة معهما، لكن القبعة انكسرت بيدِها، فوقفت تحدّق إليها، وتركتها بعدَ ثانية تسقط على الأرض. أنهض حيرام بيلي من ذراعِه كأنه يعينُ رجلًا عجوزًا، وقبضَ جون ويزلي على ذراع أبيه، وتبعَهما بوبي لي. راحوا يمشونَ ناحية الغابة، وحالما بلغوا حافَّتها المعتمة استدارَ بيلي وصاح بينما يسند نفسَه إلى جذع شجرة صَنَوبر عارٍ:

- سأعودُ في غضون دقيقة يا ماما، انتظروني!

زعقتْ أمُّه: "عُدْ الآن!" لكنَّهم اختفوا جميعًا في الغابة.

نادتِ الجدَّة بصوت مفْجوع: "ابني بيلي". لكنها وجدت نفسَها تنظر إلى اللامتناسب المُقرفص على الأرض أمامَها، فقالت بيأس: "أعرف أنك إنسانٌ صالح. لست سوقيًّا ألبتَّة".

قال اللامتناسب بعدَ لحظة، كأنَّه قد فكر بكلامِها مليًّا: "لا، لستُ بإنسان صالح، لكنَّني لست الأسوأ في العالم كذلك. قال أبي إنَّني كلبٌ من

سلالة مختلفة عن إخوتي وأخواتي. قال: "أتعلمون! بعضُ الناس يمكنهم عيشُ حياتهم كلها من دون أن يسألوا عنها، وآخرونَ يحتاجون إلى معرفة علَّتها، وهذا الصبي من الفئة الثانية. سيكبر لينمّي اهتمامًا بكلِّ شيء!". اعتمر قبعتَه السوداء بعد ذلك، ورفع نظره فجأةً إلى أعلى ثمَّ حوَّله إلى عمق الغابة كأنه عادَ مُحرَجًا، وقال محدّبًا كتفيه بعضَ الشيء: "أعتذرُ عن أنني لا ألبس قميصًا أمامكنَّ سيداتي، فقد دفنّا الملابسَ التي كنّا نلبسها وقتما فرزْنا، وإننا نتدبَّر أمرنا إلى أن يسعنا الحصولُ على شيء أفضل".

فقالتِ الجدَّة:

- لا بأس بذلك ألبتَّة. ربما لدى بيلي قميصٌ إضافي في حقيبته.

- سأنظرُ في ذلك فورًا.

صرختْ أمُّ الأطفال:

- إلى أين يأخذانِهما؟

قال اللامتناسب:

- كان أبي حادَّ الذكاء، لا يمكن خداعُه أبدًا. غير أنه لم يتورَّط مع السلطات قط. كان موهوبًا بالتعامل معهم وحسب.

قالتِ الجدَّة:

- يمكنك أن تكون شريفًا كذلك إن حاولت. فكرْ في روعة الاستقرار وعيش حياةٍ رغيدة من دون أن تضطرَّ إلى التفكير بوجود مَن يطاردك طوال الوقت.

ظلَّ الغريب يحكُّ الأرض بعقب مسدسِه كأنه يفكرُ بالأمر، وغمغم:

- أجل يا سيدتي، ثمَّة مَن يطاردني دائمًا.

انتبهتِ الجدَّة إلى نحول عظم كتفيه وراءَ قبَّعته لأنها كانت واقفةً وخافضة نظرَها إليه، فسألته:

- هل تصلي؟

هزَّ رأسه، ولم ترَ إلّا قبعته السوداء تهتزُّ بين اللوحين، وقال:

- لا.

سُمع صوتُ عيارٍ ناري من الغابة، وتبعه آخرُ مباشرة، ثمَّ ساد الصمت. التفَّ رأسُ السيدة العجوز إلى الخلف، وسمعت الريحَ تمرُّ بين قمم الأشجار مثل شهقةٍ طويلة راضية، وصاحت:

- ابني بيلي!

قال اللامتناسب: "كنتُ مُرنّمًا إنجيليًّا لبعض الوقت. كنت كلَّ شيء تقريبًا، إذ خدمتُ في القوات المسلحة، البرية والبحرية، في الوطن وخارجه، وتزوجتُ مرَّتين، وعملتُ حانوتيًّا، وعملتُ في السكك الحديدية، وحرثتُ أمنا الأرض، وعلقتُ في إعصار، ورأيتُ رجلًا يُحرق حيًّا مرَّة". ثمَّ رفع بصرَه إلى أمّ الأطفال والبنت الصغيرة اللتيْن كانتا تجلسان ملتصقتيْن، ووجهاهما مَبيضّان وعيونهما استحالتْ زجاجًا، "حتى أنني رأيتُ امرأة تُجلَد".

فبدأتِ الجدَّة تقول:

- صلِّ، صلِّ، صلِّ، صلِّ...

قالَ اللامتناسب بصوت يكادُ يكون حالمًا: "لا أذكر أنني كنتُ صبيًّا سيئًا ألبتَّة، لكنَّني في مرحلة ما فعلتُ شيئًا خاطئًا، وأُرْسلتُ إلى الإصلاحية.. دُفنتُ حيًّا". ثمَّ رفعَ نظرَه وأسرَ انتباهَها بتحديقة ثابتة.

فقالت:

- هذا هو الوقتُ الذي كان ينبغي لك البدءُ بالصلاة فيه. ما الذي فعلته لتُرسَل إلى الإصلاحية في المرة الأولى؟

قال اللامتناسب، رافعًا نظرَه من جديد إلى السماء الرائقة:

- ألتفتُ يمينًا أقابل جدارًا، ألتفتُ يسارًا أقابل جدارًا. أنظر إلى الأعلى أرى سقفًا، أنظر إلى الأسفل فأرى الأرض. لقد نسيتُ ماذا فعلتُ يا سيدتي. جلستُ هناك وظللت جالسًا، محاولًا تذكرَ ما فعلت، ولم أتذكره حتى يومِنا هذا. بينَ الحين والآخر، أشعرُ أنه يتبادرُ إلى ذهني، لكنه لم يتبادر قط.

قالتِ السيدة العجوز بغموض:

- ربَّما أرسلوك بالخطأ.

- لا، لم يكن خطأً. كانت معهم وثائقُ تدينُني.

- لا بدَّ أنك سرقت شيئًا ما.

نخرَ اللامتناسب مستهزئًا بعضَ الشيء وقال:

- لم يملك أحدٌ قط شيئًا أريدُه. قال رئيسُ الأطباء في الإصلاحية إن ما فعلتُه هو قتلُ أبي، لكنَّني أعرف أنها كذبة، فأبي توفِّي في عام ألف وتسعمائة وتسعة عشر جرّاء جائحةِ الإنفلونزا، ولا علاقة لي بذلك إطلاقًا، ودُفن في فناءِ كنيسة ماونت هوبويل المعمدانيَّة، ويمكنك الذهابُ ورؤية ذلك بنفسك.

- إن تُصلي يساعدك يسوع المسيح.

- هذا صحيح.

فسألتْه وقد صارت ترتعشُ غبطةً فجأة:

- حسنٌ إذًا، لمَ لا تصلي؟

- لا أريد أيَّ مساعدة، إنني أبلي بلاءً حسنًا بمفردي.

عادَ بوبي لي وحيرام من الغابة متمهِّلين، وبوبي لي يحمل قميصًا أصفر عليه ببغاوات زرقٌ زاهية.

قال اللامتناسب: "ارمِ لي هذا القميصَ يا بوبي لي". فجاءه القميص محلقًا وحطَّ على كتفه فلبسَه، ولم تستطع الجدَّة تحديدَ ما يذكرها القميص به. قال اللامتناسب بينما يُزرِّره: "لَا يا سيدتي، لقد وجدتُّ أنَّ الجريمة لا تهم. يمكن للمرء فعلُ أي شيء؛ قتلُ رجل أو سرقةُ عجلة من سيارته، فعاجلًا أم آجلًا سيَنسى ما فعله ويُعاقَب عليه وحسب".

بدأتْ أمُّ الأطفال تصدر أصواتَ لهاثٍ كأنها عاجزة عن التقاط أنفاسها، فسألها:

- سيدتي، ألا تذهبينَ رفقة البنت الصغيرة إلى هناك معَ بوبي لي وحيرام وتنضمّان إلى زوجك؟

قالتِ الأم: "بلى، أشكرك". وتدلَّت ذراعُها اليسرى بعجز بينما تحملُ الرضيع -الذي غطَّ في النوم- باليدِ الأخرى، فقال اللامتناسب عندما رآها تُعاني في تسلُّق القناة: "ساعدِ السيدة يا حيرام، وأنتَ يا بوبي لي أمسك بيدِ البنت الصغيرة".

قالتْ جوون ستار:

- لا أريدُ أن أمسك يده؛ إنه يذكرُني بخنزير.

احمرَّ وجهُ الفتى البدين وضحك، وأمسكَ بذراعها جارًّا إيّاها إلى الغابة وراء حيرام وأمها.

بقيتِ الجدَّة وحيدةً مع اللامتناسب، واكتشفت أنها قد فقدتْ صوتها. لم تحملِ السماءُ أيَّ غمامة، ولا أيَّ أثر للشمس، ولا يوجد حولهما إلا الغابات. أرادت أن تخبرَه بأنَّ عليه الصلاة، وفتحت فمَها وأغلقته عدةَ مرات قبل أن يخرج منه شيء. ثمَّ رأت نفسَها في آخر الأمر تقول: "المسيح، المسيح"، وتعني أنَّ المسيح سيساعدُك، لكنَّ الطريقة التي قالت ذلك بها جعلتْها تبدو أقرب إلى السّباب.

قال اللامتناسب، كأنه يوافقُها:

- أجل سيدتي، لقد أفقدَ يسوع كلَّ شيء توازنَه. حاله مثل حالي، إلا إنَّه لم يرتكبْ أيَّ جريمة، بينما يمكنهم إثباتُ أنني ارتكبتُ واحدة لأن لديهم وثائقَ تُدينني. وبالطبع، لم يُرِني أحدٌ وثائقي قط. ولهذا أوقِّع باسمي الآن. قلتُ لنفسي منذ وقتٍ بعيد: ابتكرْ توقيعًا ووقعْ كلَ شيء تفعله، واحتفظْ بنسخةٍ منه، وهكذا تعرف ماذا فعلت، ويصير بوسْعك مقارنة الجريمة بالعقاب لترى إن كانَا مُتناسبين، وفي النهاية يصير في يدِك شيء يثبت أنَّك لم تُعامَل بإنصاف. سميتُ نفسي باللامتناسب لأنني عاجزٌ عن رؤية التناسب بينَ ما ارتكبته من خطأ وما نلتُه من عقاب.

سُمعت صرخةٌ ثاقبة من الغابة، وتبعها صوتٌ مسدس:

- أترينَه منصفًا يا سيدتي أن يُعاقب شخصٌ عقابًا شديدًا بينما لا يُعاقب آخرُ ألبتَّة؟

صرختِ السيدة العجوز:

- بحقِّ المسيح! إنَّ دماءك صالحة! أعرفُ أنك ما كنتَ لتُردي سيدة! أعرفُ أنك ابنُ أهل طيبين! صلِّ! بحقِّ المسيح، لن تطلق النارَ على سيدة! سأعطيك كلَّ ما أملكه من مال!

قالَ اللامتناسب بينما يحدِّق إلى الغابة من خلفها:

- سيدتي، لم تعطِ جثة حانوتيًّا إكراميةً من قبل.

سُمع عياران ناريّان آخران، ورفعتِ الجدَّة رأسَها مثل دجاجة رومية عطشانة تصرخُ طالبةً الماء: "ابني بيلي! ابني بيلي!" كأنَّ قلبها يكاد ينشقّ.

تابعَ اللامتناسب: "المسيح هو الوحيدُ الذي أحيا الموتى من قبل، ولم ينبغِ له ذلك. لقد أفقدَ كلَّ شيء توازنه. لو أنه فعلَ ما قال لما ظلَّ أمام

المرء ما يفعله إلا هجرُ كلِّ شيء والسيرُ على خطاه، ولو لم يفعل لما ظلَّ أمام المرء إلا التمتعُ بالدقائق القليلة التي يمتلكُها بأفضل طريقةٍ يقدر عليها؛ بقتل شخصٍ ما أو حرق منزله أو ارتكاب رذيلة أخرى بحقِّه. لا متعة إلّا في الرذيلة"، وكاد صوتُه يصير زمجرةً.

غمغمتِ السيدةُ العجوز، غيرَ عارفة ما الذي تقوله، وشاعرةً بدُوار حتى أنَّها انْهارت في القناة، والتوَتْ ساقاها تحتها:

- لعلَّه لم يُحْي الموتى.

"لم أكُن حاضرًا لذا لا يُمكنني نفيُ ذلك. أتمنَّى لو كنت حاضرًا"، وضربَ الأرض بقبضتِه، "ليس من الإنصاف أنَّني لم أكُن حاضرًا لأنني لو كنت حاضرًا لعرفت. اسمعي سيدتي.." وقال بصوتٍ مرتفع "لو كنتُ حاضرًا لعرفتُ وما كنتُ كما أنا الآن". بدَا صوته يكاد يتكسر، وصفَا ذهنُ الجدَّة للحظة. رأت وجهَ الرجل قد تغضَّن حتى شابه تغضُّن وجهِها واقتربَ من البكاء، فتمتمَت: "وَي، إنك طفلٌ من أطفالي! إنك أحدُ أبناء بطني!". ومدَّت يدها لامسةً كتفه، فوثب اللامتناسب للخلف كأنما لدغتْه أفعى وأطلق النارَ على صدرها ثلاثًا، ثمَّ وضعَ مسدسَه على الأرض ونزع نظارته وأخذ ينظفُها.

عادَ حيرام وبوبي لي من الغابة ووقفا فوقَ القناة، وراحا ينظران إلى الجدَّة نصف الجالسة ونصف الراقدة في بركةٍ من الدماء، وساقاها متشابكتان تحتها مثل طفل، ووجهُها يبتسم للسماء الرائقة.

من دون نظارات، كانت عينا اللامتناسب حمراوي الحوافّ وشاحبتين وتبدوان زائغتين. قال، بينما يحمل القطةَ التي راحت تحكُّ نفسَها بساقه:

- خذْها وارمها حيث رميتِ البقية.

فقال بوبي لي وهو يهبطُ القناة ويغني:

- لقد كانت ثرثارة، أليس كذلك؟

- كانت لتصبح امرأةً صالحة لو وُجد شخصٌ ما يطلق النار عليها في كلِّ دقيقة من حياتها.

- يا له من مرح!

قال اللامتناسب:

- اخرسْ يا بوبي لي، لا متعة حقيقيَّة في الحياة.

# المُهجَّر

## ١

تبع الطاووسُ السيدة شورتلي في صعودِ الطريق المودي إلى التلّ حيث تنوي الوقوف، وفي تحرُّكهما تِباعًا، بديًا أشبه بموكب مكتمل. كانت عاقدةً ذراعيها، وفي اعتلائها الحَدَبة يحسبُها الرائي عملاقةَ الريف وقد خرجت إثرَ نذير خطرٍ ما لتحقِّق في الأمر. وقفتْ على ساقين هائلتين، بثقة متشامخة في النفس كجبل، وانتصبت فوقَ انتفاخات غرانيتية تضيق حتى تتَّصل بنقطتين زرقاوين جليديتين من الضوء تثقبان المدى وتستطلعان كلَّ شيء. تجاهلت شمسَ الظهيرة البيضاء الحابية خلفَ جدار متعرِّج من الغيوم كأنها تتظاهر بأنها دخيلٌ ما، ورمَت نظرتها إلى الطريق الطيني الأحمر الذي يتفرَّع من الطريق السريع.

وقفَ الطاووس وراءها تمامًا، وذيلُه المتلألئ بالأخضر والأزرق المذهَّبين تحت شعاع الشمس مرفوعٌ بالقدْر الكافي لئلا يمسَّ الأرض. كان يطفو على جانبيه مثل قطار عائم، ورأسُه المستقرُّ على عنقه الأزرق الطويل قصبيّ الشكل مشدود إلى الخلف كأنما ركَّز انتباهه على شيء ما في المسافة لا يراه أحد سواه.

كانتِ السيدة شورتلي تراقب سيارةً سوداء انعطفت باتجاه البوابة من الطريق السريعة، وبجوار سقيفةِ الأدوات البعيدة نحو خمسين قدمًا،

توقف الزنجيان آستور وسولك عنِ العمل ليراقبا، ورغم أنَّ شجرة توت تخبئهما، عرفت السيدة شورتلي أنهما هناك.

أخذتِ السيدة ماكنتاير تهبط درجاتِ منزلها لتلاقي السيارة، ووجهها يحمل أعرضَ ابتساماتها، لكنَّ السيدة شورتلي -على الرغم من المسافة- تمكَّنت من رصْد ميلانٍ متوتر فيها. لم يكُنِ القادمون إلا عمالًا بالأجرة، كآل شورتلي أنفسهم أو الزنجيّين، ومع ذلك، خرجتْ مالكة المنزل لترحِّب بهم، فوقفت في الخارج لابسةً أحسنَ ثيابها وعقدًا من الخرز، وراحت تتوثب قُدمًا بفم مبسوط.

توقَّفت السيارة في المَمشى بجوارها، وكان القس أولَ الخارجين، وهو عجوز طويلُ الساقين في بدلة سوداء يعتمر قبعةً بيضاء، وعلى عنقه ياقة يلبسها عكسيًّا عرفتِ السيدة شورتلي أنها ما يلبسه القساوسةُ عندما يريدون أن يُعرف أنَّهم قساوسة. كان هذا القسُّ مَن رتَّب لمجيء هؤلاء الناس. فُتح بابُ السيارة الخلفي وقفزَ منها طفلان؛ صبي وبنت، ثمَّ خرجت -ببطء أكثر- امرأةٌ ترتدي ثيابًا بنيَّة وتشبه حبة الفول السوداني، ثمَّ انفتح البابُ الأمامي وخرج الرجل، المُهجَّر، وكان قصيرًا ومنحنيَّ الظهر بعضَ الشيء، ويضع نظارات ذهبية الإطار.

تركزَ بصرُ السيدة شورتلي عليه، ثمَّ اتَّسع قليلًا ليشمل المرأة والطفلين في صورة جماعية، وأولُ ما داهمها باعتباره أمرًا في غاية الغرابة هو أنهم بدوا كبقية الناس. في كلِّ مرة تخيَّلتهم في رأسها، كانت الصورة التي تراودُها صورة الدببة الثلاثة، يمشون في رتل أحادي، مُنتعلين أحذيةً خشبية مثل الهولنديين، ومعتمرين قبّعات بحارة، ومرتدين معاطفَ زاهية، فيها الكثيرُ من الأزرار، لكن المرأة كانت ترتدي فستانًا يمكنُ للسيدة شورتلي ارتداؤه بنفسها، والأطفال في ملابس تشبه ملابسَ أيِّ شخص

حولهم، أما الرجلُ فيلبس بنطالًا كاكيًّا وقميصًا أزرق. فجأة، عندما مدَّت السيدة ماكنتاير يدَها له، انحنى من مستوى الخصر وقبَّلها.

نترَت السيدة شورتلي يدَها ناحية فمها ثمَّ أنزلتها بعد لحظة ودعكتها بشدة برذْفها. لو حاولَ السيد شورتلي تقبيلَ يدها لضربته السيدة ماكنتاير حتى أفقدته وعيَه، لكنَّ السيد شورتلي ما كان ليقبِّل يدَها بأي حال. لا وقت لديه للعبث.

ضيَّقت عينيها ونظرت من كثب، فرأتِ الصبي يتكلم في منتصف المجموعة، ويُفترض أنه أفضلُ ناطق بالإنجليزية بينهم لأنه تعلم بعضَها في بولندا، لذا أخذ ينصتُ لما يقوله والدُه بالبولندية ويعيدُه بالإنجليزية ثمَّ ينصت لما تقوله السيدة ماكنتاير بالإنجليزية ويعيدُه بالبولندية. كان القسُّ قد أخبر السيدة ماكنتاير أن اسمَ الصبي رودولف، وعمرُه اثنا عشَر عامًا، واسم البنت سليدجويغ وهي في التاسعة. بدَا للسيدة شورتلي أن سليدجويغ اسمٌ قد يطلقه المرءُ على حشرة، أو العكس، كأنْ يسمي شخصٌ ابنَه خنفساء القطن، أما اسمُ عائلتهم فكان شيئًا لا يمكن إلّا لهم وللقسِّ لفظُه، ولم تتبيّن منه إلّا غوبلهوك، فظلت والسيدة ماكنتاير طيلةَ الأسبوع تسمّيانهم آل غوبلهوك، بينما تتجهَّزان لاستقبالهم.

كان أمامهما عملٌ عظيم تنجزانِه في سبيل التجهُّز لاستقبالهم، ذلك أنهم لا يملكون شيئًا، لا قطعة أثاث ولا ملاءة أو صحنًا، وتوجَّب عليهما نبشُ كلِّ شيء من الأغراض التي لم تعدِ السيدة ماكنتاير تستخدمها. راحتا تجمعان قطعة أثاث زائدة من حدب، وقطعةَ من صوْب، وصنعتا ستائرَ للنوافذ من بعض أكياس علف الدَّجاج المزهَّرة لأنهما لا تملكان ما يكفي المنزل من الأكياس الحمراء. قالت السيدة ماكنتاير إنها ليست فاحشةَ الثراء ولا يمكنها احتمالُ شراء الستائر. فقالت السيدة شورتلي: "لا يحقُّ لهم الكلام، أتحسبينَ أنهم يعرفون ما هي الألوان حتَّى!؟"،

وقالت السيدة ماكنتاير إنَّ على هؤلاء الناس الشعور بالامتنان لأي شيءٍ يحصلون عليه بعد ما مرّوا به، وإنَّ عليهم التأمل في سعة حظهم لفرارهم مِن هناك ومجيئهم لمكان كهذا.

تذكرتِ السيدة شورتلي نشرةً إخبارية شاهدتها ذاتَ مرة عن غرفة صغيرة تكدَّست فيها جثث موتى عُراة في كومةٍ مرتفعة، أذرعهم وسيقانهم متشابكة، رأسٌ مُقحَم هناك، ورأس هنا، قدم، ركبة، عضْو كان ينبغي سترُه يبرز واضحًا، ويدٌ مرفوعة لا تقبض على شيء. وقبل أن يتمكنَ المرءُ من إدراك أن هذا حقيقي واستيعابِه، تتغيَّر الصورة ويقول صوتٌ عميق: "الزمان لا يتوقف" كان ذلك من صنفِ الأمور التي تحدثُ كلَّ يوم في أوروبا، حيث لم يتطوروا كما في هذه البلاد، وبينما تراقب السيدة شورلي من موقعِها ساورها حدسٌ مفاجئ أن آل غوبلهوك كالجرذان المُصابة ببراغيث الحمى النّمشية، ربما حملوا معهم كلَّ تلك الأساليب الدَّموية عبرَ البحار مباشرة إلى هذا المكان. إن كانوا قد جاؤوا من حيث تعرَّضوا لهذه الأشياء، فمَن يعرف أنهم ليسوا من الأشخاص الذين قد يعرضون غيرَهم لها؟ هزَّها تقريبًا اتساعُ السؤال ورحابته، واختلجت معدتها كأنما زُلزل قلبُ الجبل زلزالًا طفيفًا، فهبطتْ من علوِّها آليًّا متجهةً ناحيتهم لتُقدّم إليهم، كأنها تنوي أن تكتشفَ فورًا ما بمقدورهم فعله.

اقتربتْ منهم، بطنُها تسبقها، ورأسها متراجع، وذراعاها معقودتان، وجزمتها تتخبَّط برفق على ساقيها الضخمتين. وعلى بُعد نحو خمسَ عشرة قدمًا من المجموعة المومئة توقفت وجعلت حضورَها محسوسًا بتصويب نظرتها إلى قفا عنقِ السيدة ماكنتاير. كانتِ السيدة ماكنتاير امرأةً ضئيلة الحجم في الستين من عمْرها لها وجهٌ مدوَّر مغضَّن وغرَّة حمراء تكاد تصل إلى حاجبين برتقاليين مُكحلين، ولها فمُ دُمية صغير، وعينان لونهما أزرقُ فاتح عندما تفتحهما على اتّساعهما، وتصيران أقربَ

إلى الفولاذي أو الغرانيتي عندما تضيقهما لتُعاين علبة حليب. كانت قد دفنَت زوجًا، وطلَّقت اثنين، وتحترمها السيدة شورتلي لأنها شخصٌ لم يخدعه أحدٌ بعد، إلا آل شورتلي ربَّما.. ها ها. مدّت ذراعها باتجاه السيدة شورتلي وقالت للصبي رودولف: "هذه هي السيدة شورتلي، والسيد شورتلي هو اللبَّان هنا"، ثمَّ سألتها، "أين السيد شورتلي؟" بعدما بدأت تقترب منهم ثانية، وذراعاها ما تزالان معقودتين، "أريده أن يقابل آل غويزاك".

صارَ اسمُهم آل غويزاك الآن. لم تنادِهم باسم غوبلهوك في وجههم. قالت السيدة شورتلي: "تشانسي في الحظيرة. لا وقتَ لديه ليستريح بين الشجيرات كأولئك الزنوج".

مسَّت نظرتها في البدء قممَ رؤوس المُهجَّرين، ثمَّ حامَت نزولًا على مهل، كما ينسلُّ الحُميمق* في الجوِّ هابطًا حتى يحطَّ على جثة. وقفت على مسافة تكفي لتمنعَ الرجل من تقبيل يدها، فنظر إليها مباشرة بعينين خضراوين صغيرتين، وابتسمَ ابتسامة عريضةً درداء في أحد جانبيها، ثمَّ حوَّلت السيدة شورتلي انتباهها من دون أن تبتسمَ إلى البنت الصغيرة الواقفة بجوار أمها، تتمايل بكتفيها من جانب لآخر. كان لها شعرٌ طويل مجدولٌ في غديرتين مربوطتين أنشوطتين، ولا مجال لإنكار أنَّها طفلة جميلةٌ وإن كانت تحمل اسمَ حشرة. كانت أجمل خِلقة من آني مود، ومن سارة ماي؛ بنتا السيدة شورتلي اللتين تسيران في عاميهما الخامسة عشرة والسابعة عشرة، لكن نمو البلوغ لم يُصب آني مود، وفي إحدى عيني سارة ماي انحراف. قارنتِ الصبيَّ الأجنبي بابنها، إتش. سي.، فوجدت ابنَها متفوقًا بكثير؛ إذ إنَّ إتش. سي. في عامه العشرين، وله نفس بُنيتها ويلبس نفسَ نظاراتها، وكان يرتاد كليةَ الكتاب المقدس حينئذ، وينوي - عندما

* الحُميمق: جنسُ طيور جارحة من فصيلة البازية. (المترجم).

يتخرج فيها- أن يُنشئ كنيسة. إضافة إلى أنَّه صاحب صوت قوي وعذب في الترانيم، وقادرٌ على بيع أيّ شيء. نظرتِ السيدة شورتلي إلى القس، وتذكرت أن هؤلاء الناس لا يتمتعون بديانةٍ متقدمة، ولا يعرف المرءُ بماذا يؤمنون بما أنهم لم يُصلحوا شيئًا من حماقتها. ثمَّ تراءتْ لها غرفة الجثث المكوَّمة ثانية.

نطقَ القسُّ بلهجة أجنبية، ورغم أنه يتكلم الإنجليزية بدَا كأنما يختنق حلقه بلقمة تبن. كان له أنفٌ كبير، ووجهٌ ورأس مستطيلان أصلعان، وبينما تراقبه، انفتح فمُه الضخم وقال وهو يحدِّق خلفها ويشير بأصبعه: "إءءءءءء".

استدارتِ السيدة شورتلي حول نفسها، ورأتِ الطاووس يقف على بُعد بضع خطواتٍ وراءها، برأس مائل بعض الميلان.

غمغمَ القس: "يا له من طيررر جمييل".

فقالتِ السيدة ماكنتاير ناظرةً ناحية الطاووس: "فمٌ آخر علينا إطعامه".

سألها القس: "ومتى يرفع ذيله المُدهش؟".

قالت: "على كيْفه وهواه. فيما مضى، كان المكان يعجُّ بعشرين أو ثلاثين من هذه المَخلوقات، لكنني تركتهم يموتونَ بمرور الأيام. لا يروق لي صراخهم في منتصف الليل".

قال القس: "يا للجمال، ذيلٌ مليء بالشموس"، ومشى على رؤوس أصابعه لينظر إلى ظهْر الطائر حيث يبدأ التَّصميم اللامع الذهبي والأخضر. ظل الطاووس ثابتًا كأنَّه قد هبط لتوّه من علوٍّ تفيض فيه الشمس ليكون مشهدًا يتأملونه، وتعلّق وجهُ القس الأحمر العطوف المتوهّج ابتهاجًا به.

انشدَّ فمُ السيدة شورتلي بسخرية إلى أحد جانبيه ودمدمت: "ليست إلا طاووسة".

رفعتِ السيدة ماكنتاير حاجبيها البرتقاليين، وبادلتها نظرةً لتشير إلى أن العجوز يعيش مرحلة طفولتِه الثانية*، ثمَّ قالت بصبرٍ يكاد ينفد: "حسنًا، علينا الآن أخذ آل غويزاك إلى منزلهم الجديد"، وساقتْهم عودًا إلى السيارة. اتجه الطاووس نحو شجرةِ التوت حيث يختبئ الزنجيان، وأشاح القس بوجهه المستغرق ثمَّ ركب في السيارة وقاد بالمهجَّرين إلى الكوخ الذي سيسكنونه.

انتظرتِ السيدة شورتلي حتى غابتِ السيارة عن الأنظار، ثمَّ مشَت في طريق دائريَّة إلى شجرة التوت ووقفت على بُعد عشْر خطواتٍ تقريبًا وراء الزنجيين، وكان أحدُهما عجوزًا يحمل دلوًا نصفَ ممتلئ بعلف العجول والآخر صبي ضاربٌ إلى الصفرة، له رأسٌ قصير يشبه رأس خنزير الأرض، محشور في قبعة لبَّاديَّة مدوَّرة، ثمَّ قالت بتروٍّ: "حسنًا، لقد راقبتُما بما فيه الكفاية، ما رأيكما فيهم؟".

انتصبَ العجوز آستور وقال: "أجل كنّا نراقب"، كأن ما يقوله خبر جديد في نظرِها، "من يكونون؟".

قالتِ السيدة شورتلي ملوِّحة بذراعها: "لقد جاؤوا من وراء البحار. إنهم ما يُسمى بالمهجَّرين".

- مهجَّرون؟ يا للعجب، ما يعني ذلك؟

- يعني أنهم ليسوا في المكان الذي وُلدوا فيه، ولا مكانَ لديهم ليذهبوا إليه، كأن تُطردَ من هنا ولا يستقبلك أحد.

قال العجوزُ بصوتٍ مُتفكِّر:

- لكن يبدو أنهم هنا، وإنْ كانوا هنا، فهذا يعني أن لديهم مكان ما.

فوافقَه الآخر قائلًا: "بالتأكيد. إنهم هنا".

---

* الطفولة الثانية: هي الفترةُ الزمنية التي يتصرَّف فيها كبار السنّ تصرفاتِ الأطفال. (المترجم).

لطالما أزعجتْ لامنطقية تفكير الزنوج السيدةَ شورتلي. قالت: "ليسوا يعيشون حيث ينتمون. إنهم ينتمون إلى هناك حيث كلُّ شيء ما يزال كما اعتادوه، أما هنا فالمكانُ متطوّر أكثر من ديارهم"، ثمَّ قالت وأومأت برأسها: "لكن من الأفضل لكم أنْ تحترسوا الآن، فثمَّة نحو عشرة ملايين آخرين مثلهم، وأعرف ما قالته السيدة ماكنتاير".

سألها الأصغر: "ماذا قالت؟".

فقالتْ بصوت غنائي: "ليس من السهلِ الحصولُ على منزل في هذه الأيام، للبيض أو للسود، لكنني أحسبُ أنني سمعتُ ما أنبأتني به".

عقَّب العجوز وهو مُنحنٍ إلى الأمام كأنما يوشكُ على الرحيل لكنه أوقف نفسَه:"إنك عرضة لسماع كلِّ شيء تقريبًا".

قالتِ السيدة شورتلي بصوتٍ رنّان: "سمعتها تقول: "سيقحم ذلك الخوف من الرَّب في قلوب ذينك الزنجيين البليدين"".

فانطلق العجوز يبتعد قائلًا: "إنها تقول ما يشبه ذلك طوال الوقت. ها ها. تقوله حقًّا".

قالتْ للآخر: "خيرٌ لك أن تذهبَ إلى الحظيرة وتساعد السيد شورتلي، لمَ تدفع لك أجرًا برأيك؟".

غمغمَ الزنجي: "هو الذي أرسلني من الحظيرة. هو الذي أوكل إليَّ مهمة أخرى".

فقالت: "حسنًا، من الأفضل لك أن تهمَّ بتنفيذها"، وظلت واقفةً حتى تحرَك. وقفت بعدئذٍ لمزيد من الوقت تفكِر، وعيناها الغافلتان تواجهان ذيل الطاووس مباشرة، إذ كان قد قفزَ إلى الشجرة وتدلَّى ذيلُه أمامها، مليئًا بالكواكب الجبارة ذات العيون المُحاطة كلٌّ منها بلون أخضر، وتسطع عليها شمسٌ ذهبية في لحظة وبرتقالية اللون في تاليتها. كانت كأنها تنظرُ

إلى خريطةٍ للكون، لكنها لم تلاحظها إلا بقدرِ ملاحظتها بُقع السماء التي شقَّقت أخضرَ الشجرة الباهت، بل كانت تراودها رؤيا داخليةٌ بدلًا من ذلك؛ رأتْ فيها عشرة ملايين منهم يتدافعون إلى المنازل الجديدة هنا، ورأت نفسَها ملاكًا عملاقًا له أجنحةٌ باتِّساع بيت، تخبر الزنجيين أن عليهما البحثَ عن منزل آخر، ثمَّ وجهت نفسَها باتجاه الحظيرة، بينما تتأمل في ذلك، وتعابيرُ وجهها مُتكبرةٌ وراضية.

اقتربتْ من الحظيرة من زاوية مجانفة سمحتْ لها بالنظر إلى الداخل قبل أن تُرى. كان السيد تشانسي شورتلي يضبط آخرَ ماكينة حلبٍ على بقرة ضخمة مرقطة بالأسود والأبيض بجوار المدخل، مقرفصًا تحتَها، وثمة سيجارة طولها نحوَ نصف إنش معلقةٌ بمنتصف شفتِه السفلى. راقبته السيدة شورتلي بدقة لنصفِ ثانية ثمَّ قالت: "كانت لتفقد صوابَها لو سمعَت أنك تدخن هنا".

رفعَ السيد شورتلي وجهًا عميقَ الأخاديد فيه تجويف تحت كلِّ من خدَّيه وشقّين طويلين يمتدّان إلى جانبي فمِه المتقرح وقال: "وهل ستكونين مُبلغها بذلك؟".

فقالتِ السيدة شورتلي: "لها أنف يُبلغها".

حملَ السيد شورتلي - من دون أن يظهر عليه أنه أولى هذا العمل الباهر أيَّ اهتمام- عقبَ السيجارة بطرف لسانه، وجذبَه إلى فمه، ثمَّ أغلق شفتيه بإحكام ونهضَ ماشيًا إلى الخارج بينما يرمق زوجتَه بنظرة ممتنَّة، وبصق العقبَ المحترق على العشب.

قالت: "واه يا تشانسي" وضحكت ضحكةً مجلجلة، ثمَّ حفرت حفرة صغيرة بأصبع قدمها وطمرته. حيلةُ السيد شورتلي هذه هي طريقته الفعلية لمجامعتها. عندما كان يتودَّد إليها، لم يجلب غيتارًا يعزف عليه، ولم يجلب لها هدية جميلة تحتفظ بها؛ بل كان يجلس على درجات شرفتها، من دون أن ينبس ببنت شفة، مقلدًا رجلًا مُشلولًا سُندَ ليستمتعَ بسيجارة، وعندما تصل سيجارته إلى الحجم المناسب يوجِّه عينيه إليها، ثمَّ يفتح فمَه ويسحب العقب داخلًا ويظل جالسًا كأنه قد ابتلعَه بينما ينظر إليها بأحلى ما يمكن لامرئ تخيُّله من نظرات الحب. كانت تقتربُ من فقدان صوابها كلَّما فعل ذلك، وترغُب بأن تشدَّ قبعته لتغطي عينيه ثمَّ تعانقه حتى الموت.

قالت وهي تتبعُه إلى الحظيرة: "حسنًا، لقد جاء آل غوبلهوك وتُريدك أن تقابلهم. سألتني: "أين السيد شورتلي؟" فقلت لها: "لا وقت لديه..."."

قال السيد شورتلي وقد عادَ مقرفصًا تحت البقرة: "اجمعي الأوزان".

فسألته:

- أتحسب أنَّ بإمكانه قيادةَ جرّار في حين أنه لا يجيد الإنجليزية؟ لا أظنهم سيعودونَ عليها بأيِّ نفع. الصبي قادرٌ على الكلام، لكنه هشّ. القادر على العمل لا يمكنه الكلام، والقادرُ على الكلام لا يمكنه العمل. ليس حالها أفضلَ ممّا سيكون عليه لو جاءها المزيد من الزنوج.
- لو كنتُ مكانها لفضلت الزنوج.
- تقول إنَّ ثمَّة عشرة ملايين آخرين من المهجَّرين، وتقول إن ذلك القسَّ يمكنه أن يجلب لها العددَ الذي تريد.
- من الأفضل لها أن تتوقفَ عن معابثة ذلك القس.
- لا يبدو عليه الذكاء. إنه أحمقُ نوعًا ما.

- لنْ أقبل بأن يُملي عليَّ بابا روما حتى طريقة إدارة الألبان.
- ليسوا إيطاليّين، بل بولنديين، من بولندا حيث كُدست كلُّ تلك الجثث. أتذكُر تلك الجثث؟
- لن يظلوا أكثرَ من ثلاثة أسابيع هنا.

بعدَ ثلاثة أسابيع، قادتِ السيدة ماكنتاير والسيدة شورتلي السيارة إلى غور القصب لتريا السيد غويزاك يبدأ بتشغيل حصادة الأعلاف، وهي آلة جديدة اشترتْها السيدة ماكنتاير للتَّو بعد أن قالت إنها -وللمرَّة الأولى- لديها شخص يمكنه تشغيلُها. كان السيد غويزاك يجيد قيادةَ الجرار، وتشغيل المحزمة الدائرية، وحصّادة الأعلاف، والدرّاسة، وطاحونة ليتز، وأيّ آلة تملكها. كان حريصًا ونشيطًا. وقالتِ السيدة ماكنتاير إنها حسبَت أنه سيوفِّر عليها عشرين دولارًا في الشهر في فواتير الصيانة وحدَها، و إنَّ حصولها عليه كان أفضل عملٍ يوميّ أنجزته. كان يجيد العملَ على ماكينات الحلب، ونظيفًا أيما نظافة، ولا يدخن.

ركنتْ سيارتها عند حافَّة حقل القصَب ونزلتا منها. رأتَا سولك، الزنجي الصغير، يعلِّق العربةَ بالحصادة، والسيد غويزاك يربطُ الحصادة بالجرار، وعندما انتهى قبلَه أبعد الصبيَّ الملون من طريقه وعلَّق العربة بالحصادة بنفسه مومئًا بوجْه غاضبٍ متوهّج عندما يطلب المطرقة أو مفكَّ البراغي، إذ لم يُنجز شيئًا بسرعة تُرضيه، والزنجيان يوترانه.

في الأسبوع الماضي، عثرَ مُصادفة على سولك في وقتِ العشاء يتسلل حاملًا كيس خيشٍ إلى القفص حيث تهجع الدجاجاتُ الرومية الصغيرة. راقبه يأخذ دجاجة بحجْم المقلاة من المجموعة ويزجُّها في الكيس ثمَّ يضع الكيس تحت معطفه، فتبعَه إلى وراء الحظيرة وانقضَّ عليه، ثمَّ جرَّه إلى الباب الخلفي لمنزل السيدة ماكنتاير ومثَّل لها المشهدَ بأكمله،

بينما يغمغم الزنجي ويتشكّى ويدعو الله أن ينهي حياتَه في حينها إن كان يسرقُ الدجاجة، إنما كان يأخذها ليضع بعضَ ورنيش الأحذية الأسود على رأسها لأنه متقرّح، وليُميته اللهُ إن لم تكن تلك الحقيقة، ويسوع شاهدٌ على كلامه. أمرتْه السيدة ماكنتاير بإعادة الدجاجة ثمَّ قضتْ وقتًا طويلًا تشرح للبولندي أنَّ جميع الزنوج لصوص. وأخيرًا، اضطرت إلى نداءِ رودولف لتشرحَ له بالإنجليزية فيشرح لأبيه بالبولندية، وغادر السيد غويزاك بوجهٍ خائف ومُحبَط.

وقفتِ السيدة شورتلي آملة أن تظهر مشكلة ما في الحصادة، لكن لم يحدث ذلك، بل كانت جميعُ حركات السيد غويزاك سريعة ودقيقة. ثمَّ وثب على الجرار كالقرد وحرَّك الحصادة الكبيرة البرتقالية ببراعة إلى قلب القصب، وفي غضون لحظةٍ بدأتِ الأعلاف الخضراء بالتدفق في فيض أخضر من الماسورة إلى العربة، ومضى يهزُّ الصفوف حتى غابَ عن الأبصار وصار الضجيج بعيدًا.

تنهَّدت السيدة ماكنتاير بابتهاج وقالت: "وأخيرًا صار عندي شخص يمكنني الاعتمادُ عليه. قضيت سنواتٍ أضيع وقتي مع البائسين"، ثمَّ غمغمت: "حثالة بيضاء رديئة وزنوج. لقد استنزفوني حتى جففت. قبل أن تأتوا، كان عندي آل رينغفيلد وكولين وجاريل وبيركين وبينكين وهيرين ويعلم الله من غيرهم، ولم يغادرْ أحدهم من دون أن يأخذَ معه شيئا ليس ملكه من هذا المكان. ولا واحدًا!". كانت السيدة شورتلي قادرةً على الإنصات إليها برباطة جأشٍ لأنها مدركة أنها لو كانتْ حثالة في نظر السيدة ماكنتاير لمَا تكلَّمتاً عن حثالة الناس معًا، وكلتاهما لا تستسيغُ الحثالة. أكملتِ السيدة ماكنتاير المونولوجَ الذي سمعته السيدة شورتلي مرارًا، فقالت بينما ترسلُ نظرة مقطبة عميقة من فوق الحقل: "إنني أدير هذا المكانَ منذ ثلاثين سنة، ودائمًا بالكاد أنجح في ذلك. يُخيل إلى

الناس أنني مصنوعةٌ من المال. عندي ضرائبُ أدفعها، وتأمينٌ ألتزم به، وفواتير الصيانة، وفواتير الأعلاف"، اجتمع كلُّ ذلك عليها فوقفت رافعةً صدرها وقابضة بيديها الصَّغيرتين على مرفقيها، "منذ توفي القاضي وأنا بالكاد أعيلُ نفسي، وكلهم يأخذون شيئًا ما عندما يغادرون، أمّا الزنوج فلا يغادرون، بل يظلون ويسرقون. يظنُّ الزنجي أن الجميع ثريٌّ ويمكنه سرقته، والحثالة البيضاء تظن أن الذين يحتملونَ كلفة توظيف أشخاص بائسين مثلهم أثرياء، وكلُّ ما أملكه هو التراب تحت قدميّ".

فكرتِ السيدة شورتلي في قرارتها: "توظفين وتطردين"، لكنها لم تقل دائمًا ما تفكرُ فيه. ظلتْ واقفة وتركتِ السيدة ماكنتاير تلفظ كلَّ ما في جوفها، لكنه هذه المرَّة لم ينتهِ النهاية المعهودة، إذ قالت: "لكنني خُلِصتُ أخيرًا! مصائب قوم عند قوم فوائدُ. فذلك الرجلُ هناك"، وأشارت حيث اختفى المُهجَّر، "مُضطر إلَى العمل.. ويريدُ العمل!" ثمَّ استدارتْ إلى السيدة شورتلي بوجه مشرق متغضن، "ذلك الرجلُ خلاصي".

نظرتِ السيدة شورتلي أمامها مباشرة كأنَّ بصرها يخترق القصب والتلة ويخرج من الجانبِ الآخر، ثمَّ قالت بطريقةٍ بطيئة مُتجرِّدة: "كُنتُ لأشكُّ في خلاصٍ أناله من الشيطان".

فسألتها السيدة ماكنتاير بعد أن حدجتْها بنظرةٍ حادَّة: "وما قصدك بذلك؟".

هزَّتِ السيدة شورتلي رأسَها لكنها لم تقل شيئًا آخر. والحقيقة أنْ لا شيء آخر لديْها لتقوله، فهذا الحدسُ لم يراودها إلا في تلك اللحظة. لم تفكر كثيرَ التفكير قط في الشيطانِ لأنها شعرت أنَّ الدين ضروري لأولئك الذين لا يملكون الذكاء الكافي ليتفادوا الشرَّ من دونه، أمّا في منظور أمثالها من الناس، ذوي النباهة، فليس الدينُ إلا مناسبةً اجتماعية

تقدم فرصةً للغناء، لكنها لو فكرت في الأمر أكثرَ لاعتبرتِ الشيطان رئيسَه والرب الدخيل عليه. وبمجيء هؤلاء المهجَّرين، كان لزامًا عليها إعادةُ التفكير في عدد كبير من الأمور.

قالت: "أعرف ما قالته سليدجويغ لآني مود"، وعندما احترزتِ السيدة ماكنتاير من سؤالها عن ذلك وقصمت غُصين ساسافراس لتمضغه، تابعت بطريقة توحي بأنَّها ليست تخبرها بكلِّ شيء: "إنَّ الأربعة لن يستطيعوا العيش طويلًا على سبعين دولارًا في الشهر".

فقالتِ السيدة ماكنتاير: "إنه يستحقُّ الزيادة، فهو يوفّر عليّ المال".

وكان ذلك مرادفًا لقولها إنَّ تشانسي لم يوفّر عليها المال قط. كان تشانسي يستيقظ في الرابعة صباحًا ليحلبَ البقرات، في عصف الشتاء وفي حرِّ الصيف، وما يزالُ على مهمَّته هذه منذ سنتين، وقد طال عملُهما لديها أكثر من أيِّ غيرهم، ولا ينالان امتنانًا إلا هذه التلميحات بأنَّ مالًا لم يُوفر عليها من قبْل.

سألتِ السيدة ماكنتاير: "هل حالُ السيد شورتلي أفضل اليوم؟".

رأتِ السيدة شورتلي أنها طرحتْ سؤالها في الوقت المناسب، فالسيد شورتلي مريضٌ في سريره منذُ يومين، وقد شغل السيد غويزاك مكانَه في إدارة الألبان بالإضافة إلى عملِه الخاص، وقالت: "لا ليست أفضل. قال الطبيب إنه يعاني الإرهاقَ المفرط".

قالتِ السيدة ماكنتاير: "إنْ كان السيد شورتلي يعاني إرهاقًا مفرطًا، فلا بدَّ إذًا من أنَّ لديه وظيفة ثانية"، ونظرتْ إلى السيدة شورتلي بعينين تكادن تنغلقان كأنها تعاينُ علبة حليب.

لم تنطقِ السيدة شورتلي بكلمة أخرى، لكن تعاظمتْ ريبتها المظلمة كسحابة رعديَّة قاتمة. الحقيقة أنَّ السيد شورتلي كان يعمل في وظيفة

أخرى بالفعل، وهذا، في بلاد حُرَّة، ليس شأن السيدة ماكنتاير. كان يُقطِّر الويسكي، ولديه مقطرة صغيرةٌ في أقصى مَرامي المكان، على أراضي السيدة ماكنتاير بالطبع، لكن على أرضٍ تمتلكها فقط وليست تزرعُها، على أرض عقيمة لا تعود بالنفع على أحد. لم يخف السيد شورتلي من العمل، بل كان ينهضُ في الرابعة صباحًا ويحلب بقراتِها، وفي منتصف النهار -حينما يفترضُ به أن يستريح- ينصرف إلى مقطرتِه، ولا يقدر الجميعُ على هذا العمل. كان الزنجيان يعلمان بأمر مقطرته، لكنَّه يعلم بأمر مقطرتهما أيضًا؛ لذا لم يحدثْ أنِ اختلفوا. لكن بوجود الأجنبيين في المكان، بوجود أناس يرون كلَّ شيء ولا يفهمون شيئًا، أناس جاؤوا من مكان يخوض معاركَ مستمرة، حيث لم يحدثْ إصلاح للدين، بوجود هذا الصنف من الناس، على المرءِ البقاءُ متنبِّهًا طيلة الوقت. فكرت في أنه لا بدَّ من وجود قانون ضدَّهم، فلا يوجد سببٌ يمنعهم من البقاء هناك والاستيلاء على أماكن الذين قُتلوا في حروبهم ومجازرهم.

قالتْ فجأة: "وعلاوةً على ذلك، قالت سليدجويغ إنَّ أباها حالما يدخر المالَ الكافي فسيشتري سيارة مستعملة، وما إن يحصلوا على سيارة مستعملة، سيهجرونك".

قالتِ السيدة ماكنتاير: "لا يمكنني أن أدفعَ له ما يكفي ليدخر مالًا"، ثمَّ أردفَت: "لستُ قلقة حيالَ ذلك بالطبع، فإنْ أُصيب السيد شورتلي بعجز تام سأضطرُّ إلى الاستفادة من السيد غويزاك في الألبان طوال الوقت، وسأضطرُّ إلى زيادة مرتبه. وهو لا يدخن"، وكانت هذه المرةَ الخامسة التي تشير فيها إلى ذلك ضمنَ الأسبوع.

قالتِ السيدة شورتلي مشدِّدة على حروفها: "لا يوجد رجلٌ يجدُّ في عمله بقدر تشانسي، ولا رجل يجيدُ العناية بالأبقار بقدْره، ولا رجل مسيحي أكثر منه"، ثمَّ طوتْ ذراعيها واخترقتْ نظرتها المسافة. علا

صخبُ الجرار والحصادة وظهرَ السيد غويزاك قادمًا من الجانب الآخر لصفِّ القصب، فدمدمت: "ولا يُمكن قول ذلك عن الجميع". تساءلت عمّا إن كان البولندي سيعرف ماهية مقطرة تشانسي إذا ما وجدها، فمشكلةُ هؤلاء الناس هي عجزُ المرء عن معرفة ما يعرفونه. في كلِّ مرةٍ يبتسم السيد غويزاك، تمتدُّ أوروبا في مخيلةِ السيدة شورتلي، غامضة وشريرة، محطة تجارب للشيطان.

مرَّ الجرار والحصادةُ والعربة، تصلصل وتدوّي وتطحن، من أمامهما، فصاحتِ السيدةُ ماكنتاير: "فكّري في الوقت الذي كان سيستغرق الرجال والبغال لإنجاز ذلك. سينتهي حصادُ هذا الغور كلّه في غضون يومين بهذا المعدل".

دمدمتِ السيدة شورتلي: "ربما، إذا لم يحدث حادثٌ فظيع ما". فكرت في كيفية تحويلِ الجرار البِغال إلى أشياء عديمة القيمة، لكن في هذه الأيام، لا يمكن للمرءِ التخلّي عن البغل. ثمَّ ذكرت نفسَها بأنَّ الزنجيَّين سيكونان الراحلين التاليين.

في الظهيرة، شرحتْ ما سيحدث لآستور وسولك اللذيْن كانا في معلف الأبقار يملآن ناشرة الدَّمْن، إذ جلستْ بجوار مكعب ملح تحت ظُلة صغيرة، وبطنها في حجرِها، وذراعاها فوقَه، وقالت: "خيرٌ لكما أيها الملونان أن تحترسا، فأنتما تعرفان ما صارت إليه قيمة البغل".

قال العجوز: "لا شيء في حقيقة الأمر، ولا أي شيء".

قالت: "قبل أن يؤدّي الجرار المهمَّة، كان ممكنًا أن يؤديها البغل، وقبل أن يؤديها المُهجَّر، كان ممكنًا أن يؤديها الزنجي"، ثمَّ تنبَّأت قائلة: "سيحين الوقت الذي لا يوجَد فيه ما يدعو لذكر الزنوج".

ضحكَ العجوز بتهذيب وقال: "حقًّا قُلتِ. ها ها".

لم يقلِ الصغير شيئًا، ولم يبدُ عليه إلا التجهُّم، لكنه قال عندما دخلت المنزل: "تتصرَّف البطينة كأنها تعرف كلَّ شيء".

فقال العجوز: "لا تقلق، إنَّ منزلتك أدنى من أن ينازعك أحد عليها".

لم تخبرِ السيد شورتلي بمخاوفها إزاءَ المقطرة حتى عاد من عمله في الألبان، ثمَّ قالت بينما يرقدان في سَريرهما في الليلة التالية: "ذاك الرجل يطوف المكانَ خلْسة".

طوَى السيد شورتلي ذراعيه فوقَ صدره بارزِ العظام وتظاهرَ بأنه جثة.

تابعتْ كلامها: "يطوف خِلسة"، ثمَّ ركلته ركلةً قوية بطرف ركبتها، "مَن يدري ما يعرفون أو لا يعرفون؟ مَن يدري أنه لن يذهب مباشرةً إليها ويخبرها إذا ما وجدَها؟ وما أدراك أنهم لا يقطّرون الكحولَ في أوروبا؟ إنهم يقودون الجرارات، ولديهم جميعُ ضروب الآلات. أجبني".

فقال: "لا تقلقيني الآن، أنا ميت".

غمغمت: "إنَّ الأجنبيَّ فيه هو عيناه الصغيرتان، وطريقته في هزِّ كتفيه"، ثمَّ شدَّت كتفيها وهزَّتهما عدةَ مرات، "كيف يكون عنده شيء يهزّ كتفيه حياله؟".

قال السيد شورتلي: "لو كان الجميع ميتًا بقدْري لما واجه أحد مشكلة".

غمغمت: "القس"، وظلتْ صامتة لدقيقة، ثمَّ قالت: "أرجّح أنهم في أوروبا يتبعونَ طريقة مختلفةً ما لصناعة الكحول، لكنني أظنُّ أنَّهم يعرفون الطرق كلها. إنَّهم ممتلئون بالطرق المُلتوية. لم يتقدموا أو يصلحوا دينَهم قط. لديهم الديانة نفسُها التي كانت قبلَ ألف عام. دائمًا ما يتحاربون ويتنازعون، ثمَّ يُقحموننا في ذلك. ألم يُقحمونا فيه مرَّتين بالفعل؟ ولم يسعفنا عقلنا بشيء إلا الذهاب إلى هناك وتسوية الأمر لأجْلهم حتى

يرجعوا إلى هنا ويتلصَّصوا ويجدوا مقطرتك ويذهبوا إلى السيدة ماكنتاير مباشرة. وهُم فوق ذلك مستعدّون لتقبيل يدها في أي لحظة. أتسمعني؟!".

- لا.
- وسأخبرُك بشيء آخر: لن أتفاجأ ألبتَّة إن كان يفهم كلَّ ما تقوله، سواء بالإنجليزية أم غيرها.
- لا أتكلم لغات أخرى.
- أشكُّ أنَّ هذا المكان سيحوي زنوجًا في القريب العاجل، وأؤكد لك أنني أفضِّلُ الزنوج على البولنديين. وعلاوة على ذلك، أنوي مساعدة الزنجيين عندما يحين الوقت. تذكَر كيف صافحَهما غوبلهوك عندما جاء، كأنه لا يَعي الفرق، كأنه أسودُ مثلهما، لكن عندما بلغ الأمرُ مبلغَ العثور على سولك يسرق الدجاج مضَى وأخبرها. كنتُ أعرف أنه يسرق الدجاج، وكان بإمكاني إخبارها بنفسي.

كان السيد شورتلي يتنفَّس برفق كأنه نائم.

قالت:

- لا يعرف الزنجيُّ متى يكون له أصدقاء، وسأخبرك بشيء آخر، إنني منزعجةٌ شديدَ الانزعاج مِن سليدجويغ. لقد قالت إنهم كانوا يعيشون في منزلٍ من الطوب ببولندا، وذات ليلة، جاء رجلٌ إليهم وأخبرهم أن عليهم مغادرتَه قبل شروق الشمس. أتصدِّق أنهم عاشوا في منزل من الطوب؟

مظاهر، المنزلُ الخشبي يكفيني. تشانسي، استدِر ناحيتي. أكرَه رؤيةَ الزنوج يتعرَّضون لسوء المعاملة ويُطردون. في داخلي كثيرُ الشفقة على الزنوج وفقراءِ القوم. ألم يكن هذا شعوري على الدَّوام؟ أقول ألمَ أكُنْ دائمًا صديقة للزنوج والفقراء؟

عندما يحين الوقت، سأساندُ ذينك الزنجيَّين وهذه نهاية الأمر. لن أقفَ متفرّجة بينما يطرد القسُّ كلَّ الزنوج.

اشترتِ السيدة ماكنتاير مسلفة* جديدةً وجرارًا برافعة آلية لأنها قالت إنها -وللمرَّة الأولى- عندها مَن يستطيع التعامل مع الآلات. كانت والسيدة شورتلي قد قادتَا السيارة إلى الحقل الخلفي لمُعاينة ما سَلَفه في اليوم المنصرم، وقالت السيدة ماكنتاير بينما تنظرُ إلى الأرض الحمراء المتموّجة: "لقد أُنجز ذلك إنجازًا جميلًا".

تغيرتِ السيدة ماكنتاير منذ بدء المُهجَّر بالعمل لصالحها، وراقبتِ السيدة شورتلي التغيُّر من كثب: فقد بدأتِ التصرف كشخص يستحيل ثريًّا سرًّا ولم تعُد تفضي بسرّها إلى السيدة شورتلي كما عهدتُّها. شكّت السيدة شورتلي في أن القسَّ محْراك هذا التغير، ذلك أنَّ القسوس في غاية المكر؛ أوَّلًا يستميلها إلى كنيسته، ثمَّ يمدُّ يدَه إلى محفظتها. قالت السيدة شورتلي في قرارتها: حسنًا، إنها حمقاء! كان في جعْبة السيدة شورتلي سرٌّ كذلك، فهي تعرف شيئًا يفعله المُهجَّر من شأنه أن يصرعَ السيدة ماكنتاير. تمتمت: "مازلتُ أرى أنه لن يعمل إلى الأبد مقابلَ سبعين دولارًا"، ونوتِ الاحتفاظ بسرّها لنفسها وللسيد شورتلي.

قالتِ السيدة ماكنتاير: "حسنًا، ربما سأضطرُّ إلى التخلص من بعض الموظفين الآخرين حتى يمكنَني أن أدفع له أكثر".

أومأتِ السيدة شورتلي لتشير إلى أنها كانت تعرفُ أنَّ هذا سيحدث منذ وقت بعيد، وقالت: "لستُ أقول إنَّ ذينك الزنجيّين لا يستحقان ذلك، لكنهما يفعلان أفضل ما يجيدانِ فعله. يمكنك دائمًا أن تُملي على الزّنجي ما ينبغي فعله، وتقفي بجواره حتى يفعله".

---

* المسلفة: آلةٌ أو أداة من الآلات الزراعية تستخدَم للحراثة الثانوية، أي: لعزْق التربة واقتلاع الأعشاب الضارة حولَ الزرع. (المترجم).

قالتِ السيدة ماكنتاير: "هذا ما قاله القاضي"، ونظرت إليها نظرةَ استحسان. كان القاضي زوجَها الأول، الذي ورَّثها المكان، وقد سمعتِ السيدة شورتلي أنها تزوَّجته عندما كانت في الثلاثين وهو في الخامسة والسبعين، ظانَّة أنها ستصير ثريَّة حالما يموت، لكنَّ العجوز كان نذلًا، وعندما سُوّي أمرُ تركته وجدوا أنه لا يملك نكْلة، ولم يترك لها إلا الخمسين فدانًا والمنزل، لكنَّها طالما تكلمت عنه بطريقةٍ مبجَّلة واقتبست مَقولاته، مثل: "مصائبُ قوم عند قوم فوائد"، و"شيطانٌ تعرفه خير من شيطان لا تعرفه".

عقَّبت السيدة شورتلي: "بأيِّ حال، شيطان تعرفينه خير من شيطان لا تعرفينه"، واضطرَّت إلى أن تشيح بوجهِها حتى لا ترى السيدة ماكنتاير ابتسامتها. كانت قد اكتشفتْ ما يخطط له المُهجَّر عن طريق العجوز آستور، ولم تخبر أحدًا إلا السيد شورتلي، وحينها انتصبَ السيد شورتلي في سريره كما انتصب لعازر في قبره قائلًا:

- كاذبة!

- لا.

- لا!

- بلى.

وسقط السيد شورتلي على ظهره.

فقالتِ السيدة شورتلي: "لا يتمتَّع البولندي بالحصافة الكافية. أظن أن القسَّ مَن أقنعَه بذلك. وألوم القس".

كان القسُّ يتردد لرؤية آل غويزاك، ودائمًا ما يزور السيدة ماكنتاير أيضًا فيتمشّيان في الجوار وتُريَه التحسينات وتنصتُ إلى كلامه الرنّان. وفجأة، راودت السيدة شورتلي فكرةُ أنَّه يحاول إقناعَها بجلب عائلة بولندية أخرى

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى المكان، وبعيْش عائلتين منهم هنا، ستصيرُ البولندية اللغةَ الوحيدة المنطوقة تقريبًا! سيرحلُ الزنوج وتجد نفسَها والسيد شورتلي بمواجهة العائلتين! بدأت تتصور حربًا بين الكلمات، ورأتِ الكلمات البولندية والإنجليزية يهجم بعضها على بعض، ويطارد بعضُها بعضًا، وليست جُملًا، بل كلمات فقط، ثرثرة ثرثرة ثرثرة، تتصاعد مُجلجلة وحادَّة فتتطارد ثمَّ تتشابك. رأت الكلمات البولندية، قذرة وعليمة وغير مُصلَحة، ترشقُ الكلمات الإنجليزية النظيفة بالطين حتى تساوت كلُّها بالقذارة. رأتها جميعَها مكوَّمة في غرفة، جميع الكلمات الميتة القذرة، كلماتهم وكلماتها، مكوَّمة كالجثث العارية في النشرة الإخبارية. هتفت في سرِّها: خلِّصني يا رب من سلطان الشيطان الآسن! وبدأتْ منذ ذلك اليوم تقرأ إنجيلها باهتمام جديد، فانكبَّت على سفر الرؤيا وأخذت تقتبسُ كلامَ الأنبياء، وسرعانَ ما بلغت فهمًا أعمقَ لوجودها. رأت بوضوح أنَّ معنى العالم لغزٌ مُخطط، ولم يفاجئها شكُّها بأن يكون لها دورٌ خاص في هذه الخطة لأنها قوية. رأت أن الربَّ القدير قد خلقَ الأقوياء ليفعلوا ما ينبغي فعله، وشعرت أنها ستكون مستعدة لتلبية النِّداء عندما تُنادى. وفي الوقتِ الراهن، شعرت أن مهمتَها هي مراقبة القس.

أخذتْ زياراته تضايقها أكثرَ فأكثر، وفي آخر زيارة، راح يجول ويلتقط الريش عنِ الأرض. عثرَ على ريشتي طاووس وأربع أو خمس ريشات دجاج رومي وريشة دجاجة قديمة وأخذها معه مثلَ باقة ورد. لم يخدع هذا السلوك الأبله السيدةَ شورتلي ألبتَّة، فها هو ذا، يقود الأجانبَ في قطعان إلى أماكن ليست ملكهم، ليضرمَ شعلةَ النزاعات، ويجتثَّ الزنوج، ويغرس عاهرةَ بابل في وسط الصّالحين! وصارت كلما جاءَ إلى المكان تخبئ نفسَها وراء شيء ما وتراقبه حتَّى يغادر.

وفي ظهيرة أحدِ الآحاد راودتها رؤياها. كانت قد مضتْ لتُعيد الأبقار إلى الزريبة بالنيابة عن السيد شورتلي الذي يعاني ألمًا في ركبته، وراحت تمشي على مهل عبرَ المرعى بذراعين معقودتين وعينين مثبَّتتين على الغيوم المتدنية في المسافة، والتي تبدو صفوفًا خلفَ صفوف من سمك أبيض جرفته الأمواج إلى شاطئ عظيم أزرق. توقفتْ قليلًا بعد جرفٍ لتلهث إرهاقًا، ذلك أن لها وزنا هائلًا تنقله في الأرجاء، ولم تعُد شابَّة كسابق عهدها. في بعض الأحيان، كانت تشعر بقلبها ينقبضُ وينبسط مثلَ قبضة طفلٍ داخلَ صدرها، وعندما ينتابها هذا الشعور، يجمِّدها كلَّها مرةً واحدة، وتؤخذ بالطوفان كأنها سفينة ضخمة تهيم بلا هُدى، لكنها اعتلتْ هذا الجرف من دون تشنُّج ووقفت عليه مسرورة من نفسها. وفجأة، بينما تتفرَّج انفتحت السماءُ كستارة مسرح ووقف جسمٌ عملاق في مواجهتها. كان بلون شمسِ بداية الظهيرة، أبيضَ ذهبيًّا، وليس له شكل مُحدد، لكن فيه عجلات ناريّة بداخلها عيونٌ غاضبة داكنة تدور بسرعة. لم تعرف ما إن كان الجسم يتقدم أو يتراجَع لأنَّ بهاءه عظيم أشدَّ ما يكون، فأغمضت عينيها لتنظر إليه فاستحال أحمرَ كالدم وصارتِ العجلات بيضاء، ثمَّ قال صوتٌ رنّان جدًّا، كلمة واحدة فقط: "نبوءة".

وقفتْ في مكانها تترنَّح بعض الشيء لكنها حافظت على استقامتها، وعيناها مُغمضتان وقبضتاها مقبوضتان وقبعتها القشيَّة منخفضة على جبهتها، ثمَّ قالت بصوتٍ عال: "سيُذبح أطفالُ الأمم الشريرة. ستصير السيقان مكان الأذرع، والأقدام في الوجوه، والآذان في راحات الأيدي. مَن سيبقى سليمًا؟ من سيبقى سليمًا؟ من؟".

فتحتْ عينيها في الحال، ورأت السماءَ مملوءة بالسمك الأبيض الذي يحمله على جنبه بتكاسلٍ تيارٌ خفي، وتظهر بين الحين والآخر أجزاء من الشمس منغمسةً في المسافة وراءها كأنها تنجرفُ إلى الجهة المعاكسة.

راحت تصفُّ قدمًا أمام قدم بتخشُّب حتى عبرتِ المرعى ووصلت إلى المعلف، ثمَّ قطعت الحظيرة ذاهلة ولم تكلِّم السيد شورتلي. تابعتْ طريقها حتى رأت سيارةَ القس مركونة أمام منزل السيدة ماكنتاير، فتمتمت: "ها هو هنا من جديد. جاء جالبًا الخراب".

كانتِ السيدة ماكنتاير والقسُّ يتمشيان في الفناء، ولكي لا تقابلهما وجهًا لوجه، انعطفتْ يسارًا ودخلت مخزنَ العلف، وهو كوخ من غرفة واحدة تكدست فيه أكياس مزهّرة من علف الدجاج. رأت في إحدى أركانه أصدافَ محار ساقطة وبضعَ تقاويم قديمة على الجدار تروّج لعلف عجول وأدوية مسجّلة مختلفة. ظهر في أحدها رجلٌ نبيل ملتحٍ يلبس سترةً مشقوقة الذيل ويحمل قنينة، وكُتب تحت قدميْه: "لقد جعلني هذا الاكتشاف الأعجوبة طبيعيًّا!" لطالما شعرت السيدة شورتلي بالألفةِ تجاه هذا الرجل كأنه شخصٌ مشهور تعرفه، لكن مخها في هذه اللحظة لا يرى إلا الحضورَ الخطير للقس. موْضَعت نفسَها إزاء شقٍّ بين لوحين حيث يُمكنها النظرُ ورؤيته رفقة السيدة ماكنتاير يتمشيان ناحية مفقسة الدجاج الرّومي، التي تقع أمام مخزن العلف تمامًا.

قال عندما اقتربَا من المفقسة: "إءءءءء! انظري إلى الدجاجات الصغيرة" ثمَّ وقفَ ينظر مُخازرًا عينيْه من بين أسلاك السياج.

والتوَى فمُ السيدة شورتلي.

سألته السيدة ماكنتاير: "أتظن أنَّ آل غويزاك سيهجروننني؟ أتظن أنهم سيذهبونَ إلى شيكاغو أو إلى مكان يشبهها؟".

فسألها القسُّ بينما يهَزْهز أصبعَه أمام دجاجة وأنفه الكبير قريب من السياج: "ولم عساهم يفعلون ذلك؟".

قالت السيدة ماكنتاير: "من أجل المال".

فأجابها بلا مبالاة: "إءءءء، أعطهم مزيدًا منه إذًا. عليهم أن يتدبروا أمرهم".

غمغمتِ السيدة ماكنتاير: "وأنا كذلك. وهذا يعني أنني سأضطرُّ إلى التخلي عن بعض الآخرين".

فسألها، موليًا اهتمامَه للطيور أكثرَ منها: "وهل أداء آل شورتلي مُرضٍ؟".

- وجدتُّ السيد شورتلي يدخن في الحظيرة خمسَ مرات في الشهر الماضي. خمس مرات!
- وهل الزنجيّان أفضل منهم؟
- إنَّهما كاذبان ولصّان، وتنبغي مراقبتهما طيلة الوقت.
- تؤ تؤ. وأيًّا منهم ستعزلين؟
- لقد قرَّرت إعطاءَ السيد شورتلي إخطار شهره الأخير في الغد.

بالكاد بدَا على القسِّ أنه يسمعها، إذ كان منشغلًا بهزهزة أصبعه داخل السياج. جلستِ السيدة شورتلي على كيسٍ مفتوح من العلف الهريس في هدَّة هامدة أرسلت سحابةً من غبار العلف من حولها، ووجدت نفسَها تنظر باستقامة إلى الجدار المُقابل حيث يحمل السيد النبيل على التقويم اكتشافَه الأعجوبة، لكنها لم تره، بل ظلَّت تنظر أمامها كأنها لا ترى شيئًا ألبتَّة. ثمَّ نهضت وركضت إلى منزلها، ووجهُها يكاد يكون أحمر متفجرًا.

فتحتِ الأدراج كلها وأخرجتْ صناديق وحقائبَ بالية من تحت السرير، ثمَّ بدأت تفرغُ محتويات الأدراج إلى الصناديق من دون أن تتوقفَ لحظة أو تنزع قبعتها الشَّمسية التي تعتمرها، وحملتِ البنتين على فعل المثل. عندما دخل السيد شورتلي لم تنظر إليه حتى، بل اكتفت بأنْ تشير إليه بأحد ذراعيها بينما تحزم الأمتعة بالآخر قائلة: "اجلبِ السيارة إلى الباب الخلفي. لن أسمح بأن تنتظرَ حتى تُطرَد".

لم يشكّ السيد شورتلي قطُّ بكُليَّة عِلمها، واستوعب الموقفَ بأكمله في نصف الثانية، فتراجعَ إلى الباب من دون أن يظهر عليه شيء إلا تقطيبة شَكِسة ومضى ليجلب السيارة.

أوثقوا السريريْن الحديديّين إلى سطح السيارة، وحشروا الكرسيين الهزازين داخل السَّريرين، ولفّوا الفراشين بين الكرسيين، وفوق كلِّ ذلك، ثبتوا صحّارة دجاج. حمَّلوا جسمَ السيارة بالحقائب والصناديق القديمة ولم يتركوا إلا مساحة صغيرة لآني مود وسارة ماي. استغرقَهم إنجاز ذلك بقية الظهيرة ونصف العشية، لكن السيدة شورتلي كانت عازمةً على أن يغادروا قبلَ الرابعة صباحًا، وألا يضبط السيد شورتلي آلة حلبٍ مرَّة ثانية في هذا المكان. وطوال الوقت الذي قضته في العمل، كان لَونُ وجهها يتغير سريعًا من الأحمر إلى الأبيض جيئة وذهابًا.

قبلَ الفجر بقليل، مع بدْء السماء بردِّ حبيبات المطر، كانوا مستعدّين للرحيل. ركبوا السيارة جميعهم وجلسوا محشورين بين الصناديق والصرر ولفائف المفارش، وانطلقتِ السيارة السوداء المربعة مصدرة أصواتَ جَرشٍ أكثر من المُعتاد كأنها تحتجُّ على حمولتها. في المقعد الخلفي، جلست الفتاتان الطويلتان الشَّقراوان بارزتا العظام على كومة من الصناديق، رفقةَ جرْو كلب بيغل وقطة معها هرَّتاها في مكانٍ ما تحت البطانيات، وأخذتِ السيارة تتحرك ببطء كأنها سفينةٌ مثقوبة محملة فوق طاقتها، بينما تبتعد عن كوخهم متجاوزة البيت الأبيض حيث تنام السيدة ماكنتاير قريرةَ العين - ولا يُحتمل أنها خمنت أن السيد شورتلي لن يحلبَ بقراتها في هذا الصباح- وكوخ البولندي على قمة التلة وصولًا إلى الطريق المؤدي إلى البوابة حيث كان الزنجيّان يمشيان، واحدًا تلو الآخر، في طريقِهما إلى المساعدة في الحلب. نظرًا مباشرة إلى السيارة وركابها، لكن رغم أنَّ الأضواء الأمامية الصفراء الخافتة سطعت على وجهيهما،

لم يبُد عليهما رؤية أيّ شيء، أو ربما لم يباليَا بما يَريانه، كما لو أن السيارة المُحمّلة كانت تعبر ضبابَ الصباح المبكر في آخرِ الظلمة. تابعَا طريقهما بالسرعة نفسها من دون أن ينظرَا مرة ثانية.

بدأتِ الشمس الصفراءُ الغامقة بالارتفاع في سماءٍ بلوْن رمادي داكن مصقول كلوْن الطريق السريعة، وامتدَّت الحقول في الجانب الآخر ناشفةً ومهزولة. سأل السيد شورتلي للمرة الأولى: "أين سنذهب؟".

كانتِ السيدة شورتلي جالسةً وقدمُها على أحد الصناديق فحُشرت ركبتها في بطنِها، ومرفَق السيد شورتلي تحت أنفِها تقريبًا، وقدمُ سارة ماي الحافية بارزة من فوق المقعد الأمامي تمسُّ أذنَها.

كرَّر السيد شورتلي: "أين سنذهب؟"، وعندما لم تُجبه، استدار ونظر إليها.

أخذتْ حماوة ضارية تتصاعدُ إلى وجهها ببطء وتملؤه كأنَّها تحتشد لتشن هجومًا أخيرًا. كانت جالسةً باستقامة رغم التواء ساقها تحتَها وانحشار إحدى ركبتيها في عنقِها تقريبًا، لكنَّ الضوء غاب غيابًا مُستغربًا عن عينيها الزرقاوين الجليديتين. شعرتْ كأنَّ أبصارهم كلها استدارت بالعكس، وأخذت تحدّق بداخلها، فقبضت فجأةً على مرفق السيد شورتلي وقدم سارة ماي وبدأت تجذبُها كأنما تحاول إيجادَ مكان لطرفين إضافيَّين في جسمها.

بدأ السيد شورتلي بالسبابِ وأوقف السيارة بسرعة، وصرخت سارة ماي بها أن تكفَّ عن ذلك، لكن الظاهر أنَّ السيدة شورتلي كانت تعتزم إعادة ترتيب السيارة كلِّها دفعة واحدة، فراحت تتخبَّط جيئة وذهابًا وتقبض على كلِّ شيء بمتناول يدها وتضمُّه إليها؛ رأس السيد شورتلي، وساق سارة ماي، والقطة، وملاءة بيضاء ملفوفة، وركبتها الضخمة قمرية الشكل، ثمَّ

تلاشت تعابيرها العنيفة مرَّة واحدة فصارت نظرة ذهول، وارتخت قبضتها على ما تقبض عليه. ثمَّ اقتربت إحدى عينيها من الأخرى وبدتْ تنهار بهدوء لكنها ظلت ثابتة.

شرعتِ الفتاتان -اللتان لم تعرفا ما أصابها- تقولان: "إلى أين نذهب يا أماه؟ إلى أينَ نذهب؟" كانتا تظنّان أنها تمزح مزحةً ما، وأنَّ والدهما، بتحديقه أمامه مباشرة، يقلدُ رجلًا ميتًا. لم تعرفا أنها عاشت تجربةً عظيمة أو أنها هُجِّرت عن كلِّ ما تملكه في هذا العالم. كانتِ الطريق الرمادية المصقولة الممتدة أمامهم تخيفُهما، وظلتا تردِّدان بأصوات تعلو بالتدريج: "إلى أين نذهب يا أماه؟ إلى أين نذهب؟"، بينما ظهرَ على أمهما -وقد ارتخى جسدُها الضخم في كرسيها وصارت عيناها أشبَه بزجاج مطلي بالأزرق- أنها تتأملُ للمرَّة الأولى الحدودَ الفسيحة لبلادها الحقيقية.

# 2

قالتِ السيدة ماكنتاير للزّنجي العجوز: "حسنًا، يمكننا تدبرُ أمرنا من دونهم. لقد شهدْناهم يأتون ويرحلون، سودًا وبيضًا". كانت واقفةً في حظيرة العجول بينما يُنظِّفها، وتحمل في يدِها قشاشة تلمُّ بها بين الحين والآخر كوز ذرة أو تشير إلى بقعةٍ غابت عن انتباهه. سُرَّت عندما اكتشفت رحيل آل شورتلي، لأن ذلك يعني عدمَ اضطرارها إلى طردهم. دائمًا ما هجرها موظفوها لأنَّ هذه هي طبيعتهم، ومن كلِّ العائلات التي عملت لديها، كان آلُ شورتلي الأفضل إن لم تحسب المهجَّر، ولم يكونوا حثالةً تمامًا، فالسيدة شورتلي امرأة طيبة، وستشتاقها، لكن كما اعتادَ القاضي أن يقول: لا يمكن للمرء نيلُ كلِّ ما يبتغيه. إضافة إلى أنها راضيةٌ بالمُهجَّر، وظلت تُرددُ بارتياح: "لقد شهدناهم يأتون وشهدناهم يرحلون".

قالَ العجوز بعد أن انحنى ليمدَّ مجرفتَه تحت رفِّ علف: "وأنت وأنا ما نزال هنا".

وفهمتْ بالضبط من لهجته ما قصد تفهيمَها إياه. سقطت أشعةُ الشمس في قضبان من بين شقوقِ السقف على ظهْره وقطّعته ثلاثَ قطع متمايزة، وراحت تراقب يديْه الطويلتين القابضتين على المجْرفة وصورته الجانبية المعوجَّة العجوز، ثمَّ قالت في قرارتها: لعلك كنت هنا "قبلي"، لكن الأرجح شديد الرجحان أنني سأكونُ هنا عندما ترحَل. وقالت بصوتٍ صارم: "لقد ضيعت نصف حياتي بالعبثِ مع الناس عديمي القيمة، لكنني انتهيت من ذلك".

فقال: "سود وبيض، الاثنان سيّان".

كرَّرت قائلة: "انتهيت من ذلك" وانتزعت مَيْدعتَها الغامقة التي كانت قد ألقتها بسرعةٍ على كتفيها من عند العنق. كانت تعتمر قبعةً قشية عريضة الحافة كلفتها عشرين دولارًا منذُ عشرين سنة، وباتت تستخدمُها الآن قبعة شمس. قالت: "المال جذرُ الشرور كلها. كان القاضي يقول ذلك كلَّ يوم. قال إنه يستنكر المال، وقال إنَّ سببَ غروركم أنتم الزنوج هو كثرةُ المال المتداوَل".

كان الزنجيُّ العجوز قد عرف القاضي، فقال: "قال القاضي أيضًا إنه يتوقُ لليوم الذي يصيرُ فيه أفقرَ من أن يستأجر زنجيًّا. قال إنَّ العالم سيسترد توازنه عندما يحين ذلك اليوم".

مالتْ إلى الأمام، مسندة يديها إلى خصرها ومادة عنقها، وقالت: "حسنًا، لقد حان ذلك اليوم تقريبًا هنا، وإني قائلة لكلِّ واحد منكم: من الأفضل لكم البقاءُ متيقظين، ذلك أنني لم أعُد مضطرَّة إلى تحمل الحماقة، فلديَّ الآن شخص "مُضطرّ" إلى العمل".

كان العجوزُ يعرف متى يجيبُ ومتى لا يجيب، فقال في آخر المطاف: "لقد شهدناهم يأتون وشهدناهم يرحلون".

- بأيِّ حال، لم يكن آل شورتلي أسوأهم حتى الآن. أتذكر آل غاريتس جيدًا.

- وهؤلاء كانوا قبل آل كولين.

- لا، كانوا قبل آل رينغفيلد!

فغمغم قائلًا: "رباه! آل رينغفيلد".

قالت: "لا أحد مِن تلك الشاكلة "يريد العمل"".

كرَّر قوله كأنه لازمة: "لقد شهدناهم يأتون وشهدناهم يرحلون"، ثمَّ أردف بينما ينهضُ منحنيًا حتى واجهها: "لكننا لم نرَ قطُّ أحدًا يشبه ما لدينا الآن". كان بلون القرْفة، وله عينان غبَّشهما العمر حتى بدتا معلقتين وراء أنسجة عنكبوت.

رمقته بنظرةٍ حادَّة حتى أنزل يديه إلى المجرفة، وعاد إلى انحنائه ليجرف كومةً من القُشارة المتجمِّعة بجوار عربة اليد، ثمَّ قالت بعناد: "يمكنه الانتهاءُ من تنظيفِ الحظيرة في الوقت الذي يستغرقُه السيد شورتلي حتى يقرر أنَّ عليه تنظيفها".

غمغم العجوز: "إنه من بولندي".

- من بولندا.

قال: "والحياة في بولندي لا تشبه ما هي عليه هنا. لديهم طرق مختلفة في فعل الأمور"، وبدأ يغمغم غمغمة مبهمة.

- ما الذي تقوله؟ إن كان عندك ما تقوله عنه، فقله، وقله جهارًا.

ظلَّ صامتًا، يحني ركبتيه المتقلقلتين ويمرُّ بالقشاشة على محيط الجانب السفلي للحوض.

- إن كنتَ تعرف شيئًا فعلَه ولا ينبغي له فعلُه، فأتوقَّع منك أن تبلغني.

- ليست المسألة أنه ينبغي له أو لا ينبغي، بل هو شيء لم يفعله أحد غيره.

- ليس في جعبتك شيء ضدَّه، وهو هنا وسيظل هنا.

ثم غمغمَ وضحك ضحكة مهذبة: "لم يعمل هنا أحد يشبهه قط".

قالت: "إنَّ الزمان يتغير. أتعرف ما يحدث لهذا العالم؟ إنه ينتبج، إنه يمتلئ بالناس إلى درجة لن ينجو معها إلا الأذكياء الحريصون النشيطون"، وضغطت بأصبعها راحةَ يدها عندما لفظت كلماتِ أذكياء وحريصين

ونشيطين. وعبرَ الطرف القصيّ للحُجيرة، كان بصرُها يصل إلى الطريق حيث يقف المهجَّر في بابِ الحظيرة المفتوح حاملًا بيدِه خرطومًا أخضر. كانت في هيئته صلابة ما بدا أنها تجبرُها على الاقتراب منه ببطء، حتى في أفكارها، وفرضت أنَّ ذلك سببه عجزُها عنْ إجراء محادثةٍ بسيطة معه، فكلما قالت له شيئًا ما وجدت نفسَها تصيح وتومئ بإفراط، وتعي أنَّ أحدَ الزنجيين متكئ خلف أقرب ظُلة يراقبها.

قالت بعد أن جلستْ على أحد رفوف العلف وعقدتْ ذراعيها: "بالطبع لا! لقد قرَّرت أنني نلتُ من الحثالة في هذا المكان ما يكفي عمري كله، ولن أقضي سنواتي الأخيرةَ في العبث مع آل شورتلي ورينغفيلد وكولين بينما يمتلئ العالم بأناس "مضطرّين" إلى العمل".

فسألها: "كيف ازداد الناسُ إلى هذه الدرجة؟".

قالت: "لأنَّ الناس أنانيون. ينجبون الكثيرَ من الأطفال، ولم يعُد ذلك منطقيًّا".

كان قد أمسكَ بمقبضي عربة اليد وأخذ يتراجَع خارجًا من الباب، ثمَّ توقف، نصفُه تحت أشعة الشمس ونصفُه في الظل، وظلَّ واقفًا مكانه يمضع لثتَه كأنَّه نسيَ في أي اتجاه يريد الذهاب.

قالت: "الأمرُ الذي لا تعونه أيها الملوَّنون، هو أنني عقدةُ الوصل هنا، فإذا لم تعملوا لا أجني المال، ولا يمكنني دفعُ أجرتكم. جميعكم معتمدٌ عليَّ، لكن جميعكم يتصرَّف كأنما الحال معكوس".

كان محالًا الحُكمُ من وجهه فيما إن كان سمعَها أو لا، وأخيرًا، تابع طريقَ خروجه بينما يقول في تمتمةٍ مفهومة: "قال القاضي إنَّ الشيطان الذي تعرفه خيرٌ من الشيطان الذي لا تعرفه"، واستدارَ ومضى يتدحرج.

نهضَت ولحقت به، وظهر فجأة تجويفٌ عميق عمودي في منتصف جبهتها، تحت غرَّتها تمامًا، وقالت بصوتٍ ثاقب: "لقد توقفَ القاضي عن دفع الفواتير هنا منذ وقت بعيد".

كان زنجيُّها الوحيد الذي عرف القاضي، وظنَّ أنَّ معرفته به تمنحه الأحقية، وكان يحتقرُ زوجيْها الآخرين، السيد كرومس والسيد ماكنتاير، حتى إنَّه هنّاها بطريقتِه المهذَّبة المتستِّرة بعد طلاقاتها. عندماكان يرى الأمرَ ضروريًّا، كان يعمل تحتَ نافذة يعرف أنها تجلس بجوارها ويكلِّم نفسه في محادثة حذرة موارِبة، فيسأل ويجيب ثمَّ يقرر. وذاتَ مرة، نهضتْ بهدوء وصفقت النافذة بشدة أسقطتْه على أعقابه. وأحيانًا كان يكلِّم الطاووس، إذ كان الطاووس يتبعه في الأرجاء وعينُه مثبَّتة على كوز الذرة البارز من جيب العجوز الخلفي، أو يجلس بجواره ويفلّي نفسَه. سمعته مرَّة من باب المطبخ المفتوح يقول للطائر: "أذكر وقتًا كان يجوب فيه عشرون من بني جنسِك هذا المكان، والآن لا يوجد إلاكَ ودجاجتيْن. في زمن كرومس كانت اثنتا عشرة، وفي عهد ماكنتاير خمس، والآن أنت ودجاجتان".

وآنذاك خرجتْ من الباب إلى الشرفة وقالت: "السيد كرومس والسيد ماكنتاير! لا أريدُ سماعَك تنادي أيهما بأيِّ شيء آخر ثانية. وعسى أن تفهم هذا: عندما تموت الطواويسُ لن أجلب بدلًا منها".

لم تُبقِ الطاووس إلّا لخوفها الخرافي من إزعاج القاضي في قبره. كان يعجبه أن يراها تمشي في الجوار، وقال إنَّها تُشعره بالثَّراء. من أزواجها الثلاثة، كان القاضي الأكثر حضورًا في حياتها رغم أنه الوحيدُ الذي دفنته. دفنته في مقبرة العائلة، وهي مساحةٌ صغيرة مسيجة في وسط حقل الذرة الخلفي، بجوار أمه وأبيه وجدَه وثلاث عمّات ورضيعين من أبناء عمومته. أما زوجها الثاني، السيد كرومس، ففي مستشفى الأمراض النفسية على بُعد أربعين ميلًا، وآخرهم، السيد ماكنتاير، تفترضُ أنه ثملٌ

في غرفةٍ بفندق ما في فلوريدا. لكن القاضي -الغارق في حقل الذرة رفقةَ عائلته- موجودٌ في المنزل دائمًا.

كانت قد تزوَّجته في شيخوخته طمعًا بماله، لكن ثمَّة سببٌ آخر رفضت الاعتراف به آنذاك، حتى في سرِّها، وهو أنه يعجبُها. كان قامةً قضائية عجوزًا قذرة مضّاغة تبغ، يشتهر في المقاطعة كلها بثرائه، وينتعل حذاءً طويل العنق، ويلبس ربطةَ عنق خيطيَّة وبَدْلة رمادية مخططة بالأسود وقبعة بنميّة صفراء صيفًا وشتاءً. كان شعرُه وأسنانه بلون التبغ، ووجهُه ورديٌّ باهت محفّر ومخدد بندوب غامضة تبدو من عصورِ ما قبل التاريخ، كأنما قد نُبش من تحت الأرض مع المنبوشات. وكانت تفوح منه رائحةٌ غريبة لأوراق نقدية متعرقة مُغنّجة لكنه لم يحملْ مالًا قط ولا أظهر نكْلةً. عملت سكرتيرة لديه لبضعة أشهر، لكن العجوز رأى ببصره الثاقب أنَّ أمامه امرأة مُعجبة به لشخصه، وكانت السنوات الثلاث التي عاشها بعد زواجهما أسعدَ وأيمنَ ما عاشته السيدة ماكنتاير في حياتها، لكن عندما توفي تبيَّن أنَّ عقاره مُفلس، وترك لها بيتًا عليه رهنٌ عقاري وخمسين فدانًا تدبَّر قصَّ أشجارها قبل أن يموت. كأنه -انتصار أخير في حياة ناجحة- تمكَّن من أخذ كلِّ شيء معه.

لكنَّها صمدت.. صمدت أمامَ سلسلة من المزارعين واللبانين المستأجرين كان العجوز نفسُه ليجد مشقةً في قهرها، وتمكَّنت من التصدي للاستنزاف المستمر لقبيلةٍ من الزنوج المزاجيّين المتقلبين، حتى إنَّها تدبرت الثبات في مواجهة المُستغلين العرضيّين وتجار الماشية والأخشاب والذين يشترون ويبيعون كلَّ شيء في شاحناتٍ مركبة يأتون فيها ويزمرون في الفناء.

وقفتْ مائلة إلى الخلف بعضَ الشيء وذراعاها مطويَّتان تحت مَيْدَعتها وتعبير راضٍ يعلو وجهَها، بينما تراقب المُهجَّر يطفئ الخرطومَ ويغيب في الحظيرة. أحزنَها أن المسكين طُرد من بولندا وفرَّ قاطعًا أوروبا واضطرَّ إلى السكن في كوخ مستأجر بديار غريبة، لكنها ليست مسئولة عن أيّ من ذلك، وقد عاشتْ أوقاتًا صعبة أيضًا. كانت تعرف ماهيةَ المعاناة. ينبغي للناس أن يضطرّوا إلى المعاناة. ربما مُنح السيد غويزاك كلَّ ما يحتاج إليه في طريقه عبر أوروبا إلى هنا. ربما لم يضطرّ إلى المعاناة بالقدْر الكافي. وقد منحته وظيفة، ولا تدري ما إنْ كان ممْتنًّا أو لا. لم تعرفْ شيئًا عنه إلا أنه ينجزُ العمل. الحقيقة هي أنه ليس حقيقيًّا تمامًا في نظرِها بعد، بل معجزة ما رأتها تحدث وتكلَّمت عنها لكنها مازالت لا تصدقها.

راقبتْه يخرج من الحظيرة ويشير لسولك، الواقف قريبًا من مؤخرة المعلف، ثمَّ أومأ وأخرجَ شيئًا من جيبه وقفَ كلاهما ينظر إليه، فانطلقت عبرَ الممرّ متجهة ناحيَتهما. كان قوامُ الزنجي مُرتخيًا وطويلًا، ويمدُّ رأسَه المستدير قُدمًا بطريقته الحمْقاء المعهودة. كان أفضلَ من أبلهٍ بقليل، لكن أمثاله دائمًا ما يكونون عمالًا مُجدّين. قال القاضي: وظِّفي دائمًا زنجيًّا أبلهَ لأنَّهم لا يحوزون من العقل ما يكفي ليوقفَهم عن العمل. أخذَ البولندي يومئ بسرعة، وترك شيئًا ما مع الصبي الملون ثمَّ انصرف، وقبل أن تنعطفَ في الممرّ سمعت صوتَ دوران محرك الجرار وصارَ في طريقه إلى الحقل. أمّا الزنجي فظلَّ متلكئًا مكانه، فاغرًا فمه أمام ما يحمله في يده أيًّا يكن.

دخلتِ المعلف وقطعتْه إلى الحظيرة، ناظرةً باستحسان إلى الأرض الإسمنتية الرَّطبة النظيفة. لم تكُنِ الساعة قد جاوزت الساعة التاسعة والنصف، والسيد شورتلي لم يغسلْ شيئًا قطُّ قبل الحادية عشرة. عندما خرجت من الطرف الآخر رأتِ الزنجي يعبرُ الطريق أمامها ببطء شديد

في خطِّ قُطري، وعيناه ما تزالان على ما أعطاه السيد غويزاك إيّاه. لم يرها، لكنه توقف قليلًا وحنى ركبتيه بينما يميلُ فوق يدِه، ولسانُه يرسم دوائرَ صغيرة. كان يحمل صورةً رفع أصبعه وأخذ يمشّيه برفق عليها، ثمَّ رفع رأسَه ورآها وبدَا أنه تيبَّس مكانه، بفم نصف مبتسم، وأصبع مرفوع.

سألته: "لمَ لم تذهب إلى الحقل؟".

رفعَ إحدى قدميه وفتح فمَه أكثر بينما اتَّجهت يده حاملة الصورة ببطء ناحية جيبه الخلفي.

قالت: "ما هذا؟".

دمدم: "لا شيء"، وسلمها إياها آليًّا.

كانت صورة بنت عُمرها نحو اثني عشَر عامًا في فستان أبيض، ولها شعر أشقر فيه إكليل، وتنظر أمامَها بعينين فاتحتيْن رقيقتين هادئتين.

سألته: "مَن هذه الطفلة؟".

قال الصبيُّ بصوت عال: "ابنة عمه".

مكتبة
t.me/soramnqraa

فسألته: "حسنًا، وماذا تفعل بالصورة؟".

قال بصوتٍ أعلى: "سوف تتزوَّجني".

زعقت: "تتزوَّجك!".

قال: "سأدفع نصفَ تكلفة جلبها إلى هنا. أدفع له ثلاثةَ دولارات في الأسبوع. هي أكبرُ سنًّا الآن. إنها ابنةُ عمه، ولا يهمُّها مَن تتزوج، إذ إنها ستكون سعيدة جدًّا إن ابتعدتْ عن ذلك المكان". بدا صوتُه العالي يرتفع مثل نافورة صوتية متوترة ثمَّ سقطَ جامدًا عندما رأى وجهَها. كانت عيناها بلون الغرانيت الأزرق عندما يحطُّ الوهجُ عليهما، لكنها لم تكنْ تنظر إليه، بل إلى آخر الطريق حيث يُمكن سماع صوت الجرار القصيّ.

غمغمَ الصبي: "لا أحسبها ستأتي أبدًا".

قالت بصوتٍ رَتيب: "سأحرص على أن تستعيدَ كلَّ سنتٍ من مالك"، ثمَّ استدارت ومشتْ مُبتعدة والصورة في يدها مثنية نصْفين، من دون أن يبدو على جسمِها الصغير المتصلِّب ما يدل على أنها مهزوزة.

حالما دخلتِ المنزل، استلقتْ في سريرها وأغمضت عينيها ثمَّ ضغطت بيدِها على قلبِها كأنها تحاول إبقاءه في مكانه. انفتح فمُها وأصدرت صوتين ناشفين قصيريْن أو ثلاثة، ثمَّ جلست بعد دقيقة وقالت جهارًا: "كلهم متشابهون. لطالما كان الحالُ هكذا"، وسقطت على ظهرِها من جديد، "عشرون عامًا من التعب الشَّديد والإرهاق المديد، وحتى قبره سرقوه!"، وبتذكرها ذلك، بدأت تبكي بصمتٍ، وتمسح عينيها بين الحين والآخر بحاشية مَيْدَعتها.

ما كانت تفكرُ فيه هو الملاك الذي نُصب على قبر القاضي. كان شيروبيمًا* عاريًا من الغرانيت رآه العجوز في المدينة ذاتَ يوم في نافذة متجر لشواهد القبور، فأُخذَ به من فورهِ لأنَّ وجهه يذكّره بزوجته من جهة، ولأنه يريد عملًا فنيًّا أصيلًا يوضَع على قبره، فعاد إلى المنزل برفقته، وأجلسه على مقعد القطار الأخضر المخْملي بجواره. لم تلاحظِ السيدة ماكنتاير الشبه بينه وبينها قط، ولطالما رأته قبيحًا، لكنْ عندما سرقه آل هيرين عن القبر، انصدمتْ وثارت حفيظتُها. كانتِ السيدة هيرين تراه في غاية الجمال، وتتردد كثيرًا إلى المقبرة لرؤيتِه، وعندما غادر آل هيرين غادر الملاك معهم، باستثناء أصابع قدميه، ذلك أنَّ ضربة الفأس الذي استخدمَه هيرين العجوز لكسره أصابته مرتفعةً أكثر مما يجب. ولم تحتملِ السيدة ماكنتاير كلفة استبداله بعد ذلك.

* الشيروبيم: هي جوقةٌ من الملائكة مذكورة في عدَّة مواضع من الكتاب المقدس، وتعتبر أحدَ أقسام الملائكة في اليهودية والمسيحية. (المترجم).

عندما أفرغتْ ما فيها من دموع، نهضت ومشتْ إلى آخر الردهة، وردهتها فسحة لها شكلُ خزانة مُعتمة وهادئة كمُصلّى كنَسي، فجلست على طرف كرسي القاضي الطبية مُسندةً مرفقها إلى طاولة مكتبه، وهو قطعة أثاث ضخمة له غطاء متحرّك فيه كوّات ملؤها الأوراق المغبّرة. كانت دفاتر الادّخار والحسابات مكدَّسة في الأدراج نصفِ المفتوحة، وثمَّة خزنةٌ صغيرة مقفلة رغم أنها فارغة، وُضعت مثلَ خيمة في منتصفه. لم تُغيّر شيئًا في هذا الجزء من المنزل مذ توفي العجوز، فكان أشبهَ بنصبٍ تذكاري له، ومُقدسٌ لأنه اعتادَ إجراءَ أعماله هنا. عند أدنى حركة بأيِّ اتجاهٍ كان الكرسي يصدر أنَّةً كهيكل عظمي صَدئ تشبه صوته عندما كان يتذمَّر من فقره المدقع، فقد اقتضى أول مبادئه أن يتكلم كأنَّه أفقر رجل في العالم، ومشيَت هي على خطاه، ليس لأنَّه اعتاد ذلك وحسب، بل لأنه حقيقة. عندما جلست ووجهُها المنقبض المُهتاج مستديرٌ ناحية الخزنة الخاوية عرفت أنه لا يوجَد في العالم أفقر منها.

جلستْ من دون حراك وراء طاولة المكتب لعشرة أو خمس عشرة دقيقة، ثمَّ نهضتْ كما لو أنها اكتسبتْ بعضَ القوة، وركبت سيارتها فقادتها إلى حقل الذرة.

يمرُّ الطريق في دغلٍ من أشجار الصنوبر الظليلة، وينتهي على قمة تلة تدور كالمرْوحة هبوطًا ثمَّ صعودًا في امتداد واسع من الخضرة المُزينة بالشُّرابات. كان السيد غويزاك يحصد من الجهة الخارجية للحقل بطريقٍ دائرية إلى منتصفه حيث تختفي المقبرة كاملةً بين الذرة، وكان بمقدورها رؤيتُه في الجانب القصي المرتفع للمنحدر، مُمتطيًا الجرار ومِن خلفه الحصادة والعربة، وبين الحين والآخر يضطرُّ إلى النزول عنِ الجرار وتسلُّق العربة ليوزع العلف لأن الزنجيَّ لم يصل بعد. وقفت أمام سيارتها الكوبيه تراقبه بصبرٍ نافد وذراعاها مطويتان تحتَ مَيْدَعتها، بينما يعمل ببطء على

حاشية الحقل، ويقترب تدريجيًّا حتى صار بمقْدورها التلويحُ له لينزل، فأوقفَ الآلة وقفز وجاءها راكضًا يمسح فمَه الأحمر بقطعة قماش مزيّتة.

قالت له: "أريد أن أكلِّمك"، وأشارت له بالاقتراب إلى الظل عند حافة الدغل، فنزعَ قبعته وتبعها مبتسمًا، لكنَّ ابتسامته اختفت عندما استدارت وواجهته. كان حاجباها النحيلان والغاضبان كرجلي عنكبوت؛ قدِ اقتربا من بعضهما اقترابًا مشئومًا، وغاصَ التجويف الشاقولي تحت غرَّتها الحمراء حتى جسر أنفها. أخرجتِ الصورة المثنيَّة من جيبها وناولته إياها بصمت، ثمَّ تراجعت خطوة وقالت: "سيد غويزاك، تُريد أن تجلبَ هذه الطفلة البريئة المسكينة إلى هنا وتحاول تزويجَها لزنجيٍّ أسود أبله نتنٍ لص! أيّ وحشٍ أنت!".

أخذَ الصورة بينما عادتِ ابتسامته ببطء، وقال: "ابنة عمي. في الثانية عشرة هنا، مناولتها الأولى في السادسة عشرة الآن".

قالت في قرارتها: وحش! ونظرتْ إليه كأنها تراه للمرَّة الأولى. كانت جبهته ورأسُه بيضاء حيث أظلّتهما القبعة، لكنْ بقيةُ وجهه أحمر يعجُّ بالشعر الخشن الأشقر القصير. وكانت عيناه أشبهَ بمسمارين لمّاعين وراءَ نظارته ذهبية الإطار التي أصلحها فوقَ أنفه بسِلك. بدَا وجهه بكماله كأنه رُقع جُمعتْ من عدة وجوه أخرى. قالت: "سيد غويزاك"، بادئة كلامَها ببطء ثمَّ تعجلت أكثر حتى انقطع نفَسُها في منتصفِ الكلمة، "لا يمكن لذلك الزنجي أن يتزوَّج امرأة بيضاء من أوروبا. لا يمكنك أن تكلمَ زنجيًّا بهذه الطريقة، ذلك أنك ستلهب حماسته إزاء أمرٍ لا يمكن حدوثه. ربما يمكن أن يحدث في بولندا، لكن لا يمكن هنا، وعليك أن تكفَّ عن ذلك. الأمر برمَّته حماقة. لا يتمتع ذلك الزنجيُّ بذرَّة تعقل، وستحمِّسه...".

قال: "هي في مخيَّم منذ ثلاث سنوات".

قالت بصوتٍ حاسم: "لا يمكن لابنة عمّك أن تأتي وتتزوج أيًّا من زنوجي".

قال: "هي في ستّ عشرة الآن. من بولندا. ماما توفّيت، بابا توفي. تنتظر في مخيَّم. المخيم ثلاثة"، ثمَّ أخرج محفظة من جيبه ومرَّر أصابعه فيها فأخرج صورةً أخرى للبنت نفسِها، وهي أكبرُ ببضع سنوات، تلبس شيئًا داكنًا وبشعًا. كانت تقف مُستندة إلى جدار رفقةَ امرأة قصيرة يظهر أنْ لا أسنان لها، ثمَّ قال مشيرًا إلى المرأة: "هذه ماما. توفّيت في المخيم اثنان".

قالتِ السيدة ماكنتاير وهي ترجعُ له الصورة: "سيد غويزاك، لن أقبل بإزعاج زنوجي. لا يمكنني إدارةُ هذا المكان من دون زنوجي. يمكنني إدارته من دونك، لكنْ ليس من دونهم، وإن ذكرتْ هذه البنت لسولك ثانية فلن يكون لك عملٌ عندي. أتفهمني؟".

لم يظهرْ وجهه أيَّ علامة فهم، وبدا يُجمّع قطعَ هذه الكلمات في ذهنه ليشكّل فكرة.

تذكّرت السيدة ماكنتاير كلماتِ السيدة شورتلي: "إنه يفهم كلَّ شيء، لكنه يتصنع أنَّه لا يفهم ليفعل ما يحْلو له بالضبط"، ثمَّ استعاد وجهَها نظرةَ الصدمة والحنق التي بدأت كلامَها بها، وقالت: "لا أفهم كيف يمكن لرجلٍ يعتبر نفسه مسيحيًّا أن يجلبَ فتاةً بريئة إلى هنا ليزوّجها لشيء كذاك. لا أفهم!"، وهزَّت رأسها ثمَّ أرسلتْ إلى المدى نظرةً متألمة كئيبة.

بعدَ لحظة، هزَّ كتفيه وترك ذراعيْه ترتخيان كما لو أنه مُتعب، وقال: "لا يهمُّها الأسود. هي في مخيم منذ ثلاث سنوات".

شعرتِ السيدة ماكنتاير بضعفٍ غريب خلف ركبتيها، وقالت: "سيد غويزاك، لا أريد أن أضطرَّ إلى محادثتك في هذا الأمر ثانية. وإن فعلتُ فستُضطر إلى البحث عن مسكنٍ آخر، أتفهمني؟".

لم يقُل الوجهُ المرقّع شيئًا، وشعرت أنه لا يراها، فقالت: "هذا المكان لي. أنا أقرّر مَن يأتي ومَن يذهب".

قال: "أجل"، وأعاد اعتمارَ قبعته.

قالت بعد أن راودتْها فكرةٌ متأخرة: "لستُ مسئولة عن بؤس العالم".

قال: "أجل".

أردفَت: "لديك عملٌ جيد. يجب أن تكون ممتنًّا لوجودك هنا، لكنني لست واثقة من أنك مُمْتن".

قال: "أجل"، وهزَّ كتفيه بعضَ الشيء واستدار عائدًا إلى الجرار.

راقبتْه يركب الآلة ويجرها إلى الذرة ثانية. عندما عبرَها ولفَّ المنعطف، صعدت إلى قمة المنحدر ووقفتْ عاقدة ذراعيها تحدّق بتجهُّم إلى الحقل، وغمغمت: "كلهم متشابهون. سواء أجاؤوا من بولندا أم من تينيسي. لقد تدبرتُ أمرَ آل هيرين ورينغفيلد وشورتلي ويمكنني تدبرُ آل غويزاك"، ثمَّ ضيقت نظرتها حتى صارت لا تحيط إلا بجسم الجرار الآخذ بالتضاؤل، كأنها تراقبُه من خلال مِنظار. قضت حياتَها كلَّها تحارب فيضانَ العالم، والآن جاءها هذا الفيضان في صورة بولندي. قالت: "لا فرقَ بينك وبين بقيتهم، إلا إنَّك ذكي وحريص ونشيط، لكن أنا أيضًا مثلك، وهذا مكاني"، ووقفتْ مكانها، بقوامِها الصغير أسود القبعة والمَيْدعة، ذي الوجْه الشيروبيميّ يتقدَّم في السن، وعقدت ذراعيها كأنها ندٌّ لكلِّ شيء. لكن قلبها كان يخفق كأنها تعرضتْ بالفعل لعنفٍ داخلي

ما، ثمَّ فتحت عينيها لتشملا الحقلَ كلَّه حتى لم يعدِ الجرار أكبرَ من جندب في مجال بصرِها الموسّع.

ظلَّت واقفة لبعض الوقت، ثمَّ هبَّ نسيمٌ خفيف وارتعشت الذرة في موجات واسعة على كلا جانبي المنحدر. استمرَّت الحصادة الكبيرة، بهديرها الرتيب، بإطلاقها مطْحونة إلى العربة في تدفُّق علفيّ ثابت، وعندما هبط الليلُ كان المهجَّر قد دار مرارًا وتكرارًا في عمله حتى لم يبقَ شيء على أيّ من جانبي التل إلا الجُذامة، والمقبرة مرتفعةٌ في المنتصف مثلَ جزيرة صغيرة، حيث يرقد القاضي مبتسمًا تحتَ نصبه التذكاري المُنتهك.

# 3

أمضى القسُّ - ووجهُه الطويل اللطيف مستندٌ إلى أصبعه- عشرَ دقائق يتكلم عن المَطهَر بينما تنظرُ إليه السيدة ماكنتاير خازِرة عينيها بغضبٍ من الكرسي المقابل. كانا يشربان جعَّة الزنجبيل على الشرفة الأمامية، وظلّت تخشخش بالثلج في كأسها، وتخشخش بسلسلتها، وبإسوارتها كمهرٍ ضجرٍ يجلجل لجامه، بينما تقول في سرّها إنه لا يوجد التزامٌ أخلاقي يجبرُها على إبقائه، لا يوجد التزام أخلاقيٌّ ألبتّة، وفجأة، ترنَّحت واقفة فالتقى صوتُها لهجتَه الأعجمية مثلما يلتقي صوتُ المثقب المنشار الآلي: "اسمع، لستُ مؤمنة باللاهوت؛ بل عمليَّة، وأريدُ أن أكلمك بخصوص شيء عمليّ".

تأوَّه قائلًا: "إءءءء"، بصوتٍ أجش تلاه الصمت.

كانت قد وضعتْ ما لا يقلُّ عن أصبع من الويسكي في جعتها حتى تتمكن من احتمالِ زيارته بكاملها، وجلست مُرتبكة إذ وجدتِ الكرسي أقرب إليها ممّا توقَّعت. قالت: "لست راضية عن السيد غويزاك".

رفعَ العجوز حاجبيه في تعجب زائف.

قالت: "إنه زائد. ولا يتَّسق مع المكان. يجب أن يعمل لديَّ شخصٌ يتسق معه".

أدارَ القسُّ قبعتَه بعناية فوق ركبتيه. كان من حيله البسيطة أن ينتظر ثانية بصمت ثمَّ يقلب المحادثة معيدًا إيّاها إلى مجاريه الخاصة. كان في الثمانين من عمره، ولم تعرفْ قسًّا من قبْل حتى ذهبت لرؤيته من أجل أن يجلبَ لها المُهجَّر، وبعد أن جلبَ لها البولندي، صار يحاول توظيفَ

الأحاديث المتعلقة بالعمل مقدمةً ليحاول تحويلَها إلى المسيحية، مثلما توقعَت أنه سيفعل تمامًا.

قال العجوز: "امْنحيه بعضَ الوقت. سيتعلم أن يتَّسق. أين طيرك الجميل ذاك؟ إءءءء، إنني أراه" ثمَّ وقف وأرسل نظرَه إلى المرج حيث يمشي الطاووس والدَّجاجتان في انتباهٍ متوتِّر، وأعناقُها الطويلة منتفشة، الذكر أزرقُ أرجواني والدَّجاجتان خضراوان فضيَّتان، وجميعُها يتلألأ في شمس الظهيرة المتأخرة.

واصلتِ السيدة ماكنتاير هجومَها بصوت رتيبٍ ثابت: "إن السيد غويزاك في غايةِ الكفاءة. أعترفُ بذلك، لكنه لا يجيدُ التفاهم مع زنجيَّيَ وهما لا يحبانه. لا يمكنني السماح بأن يرحل زنجيَّيَ. ولا يعجبني سلوكه. ليس ممتنًّا أيَّ امتنان لوجودِه هنا".

وضعَ القسُّ يدَه على الباب الشبكي وفتحَه مُحضرًا لهروبه، ثمَّ غمغم: "إءءءء، عليَّ الذهاب".

قالت: "إذا ما قابلتُ رجلًا أبيضَ يفهم الزنوج فسأطرد السيد غويزاك"، ووقفت من جديد.

استدارَ ونظر في وجهها قائلًا: "لا مكانَ لديه يذهب إليه"، ثمَّ أردف: "سيدتي العزيزة، أعرفُك بما يكفي لأعرف أنَّك لن تطرديه لأمر تافه" ومن دون أن ينتظرَ إجابة، رفع يدَه ومنحَها بركاته بصوت هادر.

ابتسمتِ ابتسامة غاضبة وقالت: "لستُ السببَ في هذا الوضع بالطبع".

تركَ القسُّ عينيه تهيمان ناحيةَ الطيور، وكانت قد بلغتْ منتصف المرج، حيث توقَّف الذكرُ فجأة ولوَى عنقه إلى الخلف ثمَّ رفع ذيلَه ونشره مصدرًا صخبًا رنانًا برّاقًا، وعامتْ صفوفٌ من الشموس الصغيرة الحبلى في سَديم أخضر ذهبي فوق رأسِه. وقف القسُّ مبهورًا سائبَ

الفك، وتساءلت السيدة ماكنتاير عما إن كانت قد رأتْ من قبلُ عجوزًا بهذه البلاهة. قال بصوتٍ عال: "سيجيء المسيح بصورة كهذه"، ثمَّ مسح فمَه بيده وظلَّ واقفًا مكانه فاغرًا إياه.

لبسَ وجه السيدة ماكنتاير تعبيرًا متزمتًا جامدًا، واحمرَّ وجهها، فقد أحرجها ذكرُ المسيح في المحادثة كما كان ذكرُ الجنس يحرج أمَّها، وقالت: "ليست مسئوليتي أنَّ السيد غويزاك ليس لديه مكانٌ يذهب إليه. لا أرى نفسي مسئولةً عن الناس الزّائدين في العالم".

لم يبدُ على العجوز أنه سمعَها، فقد كان تركيزُه مثبتًا على الذكر الذي يتراجع في خطواتٍ دقيقة، ورأسه مستندٌ إلى ذيله المنشور، ثمَّ غمغم: "تجلي المسيح".

لم تحُز أدنى فكرة عما يتكلم عنه، وقالت بينما ترمقُه بنظرةٍ حادَّة: "لم يكُن السيد غويزاك مضطرًّا إلى القدوم إليَّ في المقام الأول".

أنزلَ الذكر ذيله وبدأ ينقر العشب.

كرَّرت مشددةً على كلِّ كلمة: "لم يكن مضطرًّا إلى القدوم إليَّ في المقام الأول".

ابتسمَ العجوز ابتسامةً شاردة وقال: "لقد جاء ليخلّصنا"، ثمَّ تناول يدَها بلطف وصافحَها وقال إنَّ عليه الانصراف.

لو لم يرجعِ السيد شورتلي بعدَ بضعة أسابيع لخرجتْ تبحثُ عن رجل جديد توظّفه، ولم تكن راغبة بعودته، لكنها وقتما رأتِ السيارة السوداء المألوفة تصعد الطريقَ وتتوقف بجوار المنزل انتابَها شعورٌ أنها هي العائدة إلى منزلها بعد رحلة طويلة تَعيسة. أدركت فجأة أنها كانت مُشتاقة للسيدة شورتلي. لم يكن لديها مَن تحادثه منذُ غادرت السيدة شورتلي، فركضتْ إلى الباب متوقعة رؤيتَها تكافح في صعود الدرجات.

كان السيد شورتلي واقفًا وحدَه، معتمرًا قبعةً سوداء من اللباد وقميصًا عليه أشجار نخيلٍ حمراء وزرقاء، لكنَّ التجاويف في وجهه الطويل المتقرح أعمقُ مما كانت عليه قبل شهر.

قالت: "حسنًا! أين السيدة شورتلي؟".

لم يقلِ السيد شورتلي شيئًا، وبدَا أنَّ التغيُّر في وجهه مِن منشأ داخلي، إذ كان أشبه برجلٍ أمضى وقتًا طويلًا من دون ماء. قال بصوت عالٍ: "كانت ملاك الربِّ، كانت أعذبَ امرأة في العالم".

دمدمتِ السيدة ماكنتاير: "أين هي؟".

"ميتة. تعرَّضت لسكتة دماغية في يوم مُغادرتها هذا المكان"، كان في وجهه وقارٌ كوقار جثة، وأردفَ قائلًا: "أحسب أنَّ ذلك البولندي قتلها. لقد رأت حقيقته منذُ البداية. كانت تعرف أنه مبعوثٌ من عند الشيطان. لقد أخبرتني بذلك".

احتاجتِ السيدة ماكنتاير إلى ثلاثة أيام لتتجاوز وفاةَ السيدة شورتلي. قالت لنفسها إنَّ أيَّ شخص يراها كان ليحسبها نسيبتها. وظفتِ السيد شورتلي من جديد ليؤدي أعمالَ المزرعة رغم أنَّها في الحقيقة لم ترغبْ بوجوده من دون زوجته، وأخبرته أنَّها ستعطي المهجَّر إخطارَ شهْره الأخير في نهاية الشهر، وأن بإمكانه استعادةَ عملِه في الألبان. كان السيد شورتلي يفضِّل العملَ في الألبان، لكنه نوى الانتظار، وقال إنَّ رؤية البولندي يغادر المكانَ ستمنحه بعضَ الرضى، وقالت السيدة ماكنتاير إنها ستمنحُها الكثيرَ من الرضى. اعترفت أنها كان ينبغي لها القناعة بالعوْن الذي كانت تتلقّاه في المقام الأول، لا أن تبحثَ في أجزاء أخرى من العالم عنه. قال السيد شورتلي إنه لم يحبّ الأجانب منذُ كان في الحرب العالمية الأولى ورأى حقيقتَهم. قال إنه رأى جميعَ الأصناف آنذاك، لكن لم يكن فيهم

مَن يشبهوننا. قال إنه يذكر وجهَ رجلٍ رمى قنبلة يدويةً ناحيته وإنه كان يلبس نظارةً صغيرة مدوَّرة كنظارة السيد غويزاك بالضبط.

قالتِ السيدة ماكنتاير: "لكن السيد غويزاك بولندي، ليس ألمانيًّا".

ففسَّر لها السيد شورتلي: "لا يوجد فرقٌ كبير بين الصنفين".

سُرَّ الزنجيان لعودةِ السيد شورتلي، فقد كان المُهجَّر ينتظر منهما أن يعملا بجدٍّ مثله، بينما يعرف السيد شورتلي حدودَ قدرتهما. لم يكُن نفسه عاملًا مُجدًّا بوجود السيدة شورتلي لتضبطه، لكنه في غيابها كان أكثرَ إهمالًا وبطئًا حتى. أما البولندي فكان يعمل بنشاطه المعتاد، وبدَا أنْ لا فكرة لديه عن أنه على شفيرُ الطرد. رأتِ السيدة ماكنتاير أعمالًا ظنتْ أنها لن تُنجز أبدًا تُنجز في وقت قصير، وظلَّت عازمة على التخلص منه. صار منظرُ قوامه الصغير الصلب بحركته السَّريعة هنا وهناك أشدَّ المناظر إزعاجًا لها في المكان كله، وشعرت أن القسَّ العجوز قد خدعَها. لقد قال إنَّه لا يوجد التزامٌ قانوني يُجبرها على إبقاء المُهجَّر إنْ لم يكن أداؤه مُرْضيًا، لكنه ذكر الالتزامَ الأخلاقي.

نوتْ إخباره بأنَّ التزامَها الأخلاقي حكرٌ على ناسها، على السيد شورتلي، الذي خاضَ الحربَ العالمية من أجل هذه البلاد، وليس للسيد غويزاك الذي لم يأتِ إلا ليستغلَّ ما يمكنه استغلاله. شعرتْ أنَّ عليها مصارحة القس بأفكارها قبل أن تطردَ المُهجَّر، وعندما حلتْ بداية الشهر ولم يأتِ القسُّ أجَّلت إخطار البولندي لبعض الوقت.

حدَّث السيد شورتلي نفسه بأنه كان ينبغي له منذُ البداية معرفة أنه لا توجد امرأة تفعلُ ما تقول، ولم يعرف إلى متى يمكنه احتمالُ تذبذبها. أحسَّ أن قلبها قد بدأ يرقُّ وباتت خائفةً من طرد البولندي خشية أن يشقَّ عليه إيجاد مكان آخر. كان بمقدورِه أن يخبرَها بالحقيقة فيما يخصُّ ذلك،

وهي أنه إذا ما طردته فسيملك في غضونِ ثلاث سنوات منزله الخاص، وينصب هوائي التلفاز على سطحه، لكنه -ومن بابِ السياسة- صارَ يأتي كلَّ مساء إلى بابها الخلفي ويلقنها بعض الحقائق. فيقول: "أحيانًا لا يحصل الأبيض على الاحترام الذي يحصلُ عليه الزنجي، لكن ذلك لا يشكل فرقًا، لأنه ما يزال أبيض، لكن أحيانًا"، وهنا صمت قليلًا وأرسل نظرَه في المدى، "لا ينالُ من حارب ونزف ومات في خدمة بلادنا الأم هذا الاحترام الذي يستحقُّه المحارب. دعيني أسألك: أمنصفٌ هذا؟" وعندما يسألها سؤالًا كهذا، يمكنُه مراقبة وجهِها ومعرفة أنها تتأثر. لم تبدُ على خير ما يرام في هذه الأيام، ولاحظ خطوطًا حولَ عينيها لم تكُن موجودة عندما كانت السيدة شورتلي عونَها الأبيض الوحيد في هذا المكان. وكلما فكرَ بالسيدة شورتلي، شعر بقلبِه ينخسف كدلوٍ قديم في بئر جاف.

ظلَّ القسُّ العجوز نائيًا كأنما أفزعتْه زيارته الأخيرة، لكنه في آخر الأمر، عندما رأى أنَّ المهجَّر لم يُطرد تجرَّأ على الزيارة من جديد ليتابع إرشاد السيدة ماكنتاير من حيث يذكر أنه توقفَ عن ذلك. لم تكُن قد طلبتْ منه الإرشاد، لكنه ظلَّ يرشدُها بأيّ حال، مُقحمًا تعريفًا صغيرًا لأحدِ الطقوس الدينية أو لوصية ما في كلِّ محادثة، بصرف النَّظر عن الطرف الآخر فيها. جلس في الشرفة، من دون أن يولي أيَّ انتباه لوجهها نصف الهازئ ونصفِ الحانق عندما جلست تهزُّ قدمها، منتظرةً فرصة لتدقَّ إسفينًا في كلامه، وكان يقول: "ذلك أنه"، كأنما يتكلم عن شيءٍ حدث البارحة في البلدة، "عندما أرسل الربُّ ابنَه الوحيد، سيدنا يسوع المسيح"، وحنى رأسَه بعضَ الشيء، "مخلصًا للبشرية، فقد..."

قالت عندئذ بصوت نطّطه: "أيها الأب فلين، أريد محادثتك في أمر جاد".

وأجفلَ الجلد تحت عين العجوز اليمنى.

ثمَّ قالت مُحملقة فيه بضَراوة: "في رأيي، لم يكُنِ المسيح إلا مُهجَّرًا آخر".

فرفعَ يديه بعضَ الشيء ثمَّ تركهما تهبطان على ركبتيه مغمغمًا: "إءءءء"، كأنه يفكرُ في الأمر.

قالت: "سأطردُ الرجل. لا يوجد ما يلزمني به. التزامي مكرَّس للناس الذين فعلوا شيئًا ما من أجل بلادهم، لا للذين جاؤوا ليستغلّوا ما يمكنهم استغلاله"، ثمَّ بدأت تتكلمُ بسرعة، وتتذكر كلَّ حججها. بدا أنَّ انتباه القس قد انكفأ إلى مُصلًى خاص ما لينتظر انتهاءَ كلامها، وشرد بصرَه مرَّة أو مرتين إلى المرج، كأنه يتصيّد ذريعةً ما للفرار لكنها لم تتوقف. أخبرته كيف أنها لم تفرّط بهذا المكان لثلاثين سنة، وأنها تتدبر أمورَها بشقِّ الأنفس أمام أناس لا تعرف من أين جاؤوا ولا أين يذهبون، أناس لم يرغبوا بشيء إلا سيارة. قالت إنها اكتشفتْ أنهم متماثلون سواء أجاؤوا من بولندا أم من تينيسي، وقالت إنَّ آل غويزاك لن يترددوا في هجرها عندما يستعدّون. أخبرته بأنَّ الذين يبدو عليهم الثراءُ هم أفقر الناس لأن لديهم الكثير ممّا ينبغي الحفاظُ عليه، وسألته كيف يظنُّ أنها تدفع فواتير العلف. قالت له إنَّها تودُّ تجديدَ منزلها لكن لا يمكنها احتمالُ كلفة ذلك، حتى إنَّها لم تحتمل استبدالَ النُّصب التذكاري لقبرِ زوجها. سألته عما إن كان يودُّ تخمينَ ما بلغه تأمينها لهذا العام. وأخيرًا، سألته عما إن كان يظنُّها مصنوعة من المال وأطلق العجوز فجأة جُؤارًا مدوّيًا بشعًا كأنه سؤالٌ هزلي.

عندما انتهتِ الزيارة، شعرتْ بالخذلان، رغم أنها انتصرتْ عليه انتصارًا ساحقًا، ثمَّ عقدت عزمَها على أنها في بداية الشهر ستعطي المُهجَّر إخطارَ شهره الأخير وأخبرتِ السيد شورتلي بذلك.

لم يقلِ السيد شورتلي شيئًا. كانت زوجتُه المرأة الوحيدة بين مَن عرفهنَّ التي لا تخافُ من فعل ما تقوله. قالت إنَّ البولندي مُرسلٌ من عند الشيطان والقس، ولم يشكّ السيد شورتلي قطُّ بأنَّ للقس قبضةً غريبة على السيدة ماكنتاير، وأنها قريبًا ستبدأ بحضورِ قداساته. بدتْ كأنما ثمَّة ما يُنهكها من الداخل، إذ كانت أنحلَ وأضيق خلقًا وأبلدَ ذهنًا من عادتها. صارت تنظرُ إلى علبة الحليب من دون أن ترى مدَى اتّساخها، وقد رأى شفتيها تتحرَّكان من دون كلام. لم يرتكب البولندي أيَّ خطأ لكنه ظلَّ يزعجها شديدَ الإزعاج بأيّ حال، أما السيد شورتلي، فكان ينجزُ الأمورَ كما يحلو له، ولم يوافقْ ذلك دائمًا ما تُحبه، لكن لم يبدُ أنها لاحظته، بيدَ أنها لاحظتْ أنَّ البولندي وعائلته كلها يزدادون وزنًا، وقد أوضحت للسيد شورتلي أنَّ تجاويف خدودهم انتفخت وأنهم يدخرونَ كلَّ سنتٍ يكسبونه. فتجرأ السيد شورتلي على قول: "أجل يا سيدتي، ويومًا من هذه الأيام سيتمكّن من شراء أملاكك والغدر بك"، ورأى أنَّ تصريحه هزَّها.

قالت: "إنني منتظرةٌ أولَ الشهر وحسب".

انتظرَ السيد شورتلي كذلك، وحلتْ بداية الشهر وانقضتْ ولم تطرده. كان السيد شورتلي ليقول لأيّ شخص ما ينبغي قولُه، ليس لأنه شخصٌ عنيف، لكنه يكره رؤيةَ أجنبيّ يزعج امرأة، بل شعرَ بأنَّ ذلك أمرٌ لا يمكنه التنحي جانبًا ورؤيته يحدث.

لم يكنْ لدى السيدة ماكنتاير سببٌ يمنعها من طرد السيد غويزاك حالًا، لكنها ظلت تُرجئ الأمرَ من يوم إلى آخر. كانت قلقةً حيالَ فواتيرها وصحتها، ولا تنام الليل، وعندما تنام تحلم بالمُهجَّر. لم تسرِّح أحدًا من قبل، فقد هجروها كلهم. حلمت ذات ليلةٍ بأنَّ السيد غويزاك وعائلته ينتقلون إلى منزلها بينما تنتقل هي إلى منزل السيد شورتلي، وكان وقعُ ذلك ثقيلًا عليها حدَّ أنها أفاقت ولم تنمْ بعدها لعدة ليال، وحلمتْ مرَّة

أن القسَّ جاء ليزورها وراح يصفُ الكلام خلف الكلام قائلًا: "سيدتي العزيزة، أعلم أنَّ قلبك الرقيقَ لن يسمح لك بطرد المسككين. فكِّري بآلامهم، فكِّري بالأفران وشاحنات النقل والمخيَّمات والأطفال المرضى وربنا المسيح".

فقالت: "إنه زائدٌ وقد أخلَّ بالتوازن هنا، وأنا امرأة عملية منطقية ولا توجد أفران ولا معسكرات، ولا ربنا المسيح هنا، وعندما يغادرُ سيكسب مالًا أكثر. سيعمل في الطاحونة ويشتري سيارة، ولا يكلمني بعد ذلك؛ السيارة هي كلُّ ما يرغبون به".

تابعَ القسُّ صفَّ كلامه: "الأفران والشاحنات والأطفال المرضى، وربنا العزيز".

قالت: "هذا أكثرُ ممّا يمكنني احتماله".

في الصباح التالي، عقدتْ عزمَها بينما تتناول فطورَها على أنها ستعطيه الإخطار فورًا، ووقفت ثمَّ خرجت من المطبخ متَّجهة إلى الطريق ومنديل مائدتها ما يزال في يدِها. كان السيد غويزاك يرشُّ الحظيرة، وهو واقف وقفته المنحنية ومسندُ إحدى يديه إلى خصْره، فأطفأ الماء وأوْلاها اهتمامًا ضجِرًا نوعًا ما كأنها تتدخَّل في عمله. لم تفكرْ في ما ستقوله له، بل جاءتْ وحسب، ثمَّ وقفت في بابِ الحظيرة، تنظر بتجهُّم على الأرض المبللة النظيفة والدعامات القاطرة ماءً. قال: "هل أنت بخير؟".

قالت: "سيد غويزاك، بالكاد يمكنني الإيفاءُ بالتزاماتي الآن"، ثمَّ أردفت بصوتٍ أعلى وأقوى، مشدِّدة على كلِّ كلمة، "لديَّ فواتير أدفعها".

قال: "أنا أيضًا. فواتير كثير، مال قليل"، ثمَّ هزَّ كتفيه.

في الطرفِ الآخر من الحظيرة، رأت ظلًّا طويلًا له أنفٌ كالمنقار ينسلُّ كأفعى إلى منتصفِ الطريق من الباب المفتوح لأشعة الشمس ثمَّ

يتوقف، وفي مكان ما خلفَها، أدركت حلول الصمت حيث كان صوتُ جاروفي الزنجيّين مسموعًا منذ دقيقة. قالت بغضب: "هذا المكانُ لي. كلُّكم زيادة. كلُّ واحد منكم زائد".

قال السيد غويزاك: "أجل"، وشغل الماء من جديد.

فمسحتْ فمَها بمنديلها وغادرت، كأنها حققت ما جاءت لأجله.

انسحب ظلُّ السيد شورتلي من الباب واتكأ على حائط الحظيرة ثمَّ أشعل نصفَ سيجارة أخرجَه من جيبه. لم يعُد ثمَّة شيء يفعله إلا انتظار أن تضرب يدَ الرب، لكنَّه ثمة شيء واحد يعرفه، وهو أنه لن ينتظرَ بصمت.

وبدءًا من ذلك الصباح، بدأ بالتشكّي وسرْد جانبه من القصة على كلِّ شخص يراه، أسود كان أو أبيض. يشكو في متجرِ البقالة وفي المحكمة وعلى ناصية الشارع وللسيدة ماكنتاير نفسها مباشرة، فليس لديه ما يُخفيه، ولو أن البولندي يفهمُ كلامه، لقاله له أيضًا. قال للسيدة ماكنتاير: "لقد خُلق الناس جميعهم أحرارًا وسواسية، ولقد خاطرتُ بحياتي وطرفٍ من أطرافي لأثبت ذلك. ذهبت وحاربت ونزفتُ ومتُّ ورجعت لأجدَ أنَّ مَن استولى على عملي هو مَن كنتُ أحاربه بعينه. قنبلةٌ يدوية اقتربت من قتلي، ولقد رأيت مَن رماها: رجل ضئيل يلبس نظارة مثل نظارتِه تمامًا، وربَّما اشتراها من المتجر نفسه. إنه لعالم صغير"، ثمَّ أطلق ضحكةً مريرة وَجيزة. وبما أنه لم يعدْ يترك الكلام للسيدة شورتلي وبدأ يتكلم بنفسه، وجد أنه موهوبٌ بالفطرة في ذلك. كان يتمتع بالقدرةِ على جعل الآخرين يروْن منطقه، وقد تكلَّم مع الزنجيّين كثيرًا.

سأل سولك ذاتَ صباح بينما ينظِّفان الصوْمعة: "لم لا ترجع إلى أفريقيا؟ إنها بلادُك، أليست كذلك؟".

قال الصبي: "لن أذهبَ إليها، فقد يأكلونني حيًّا".

قال السيد شورتلي بلطف: "حسنًا، إن أحسنتِ التصرفَ فلا سبب يمنعُك من البَقاء هنا، وذلك لأنك لم تهربْ من أيّ مكان. لقد جُلب جدكَ جلبًا، ولم يكن له رأيٌ في ذلك. إن الذين يهربونَ من بلادهم هُم الذين لا حاجة لي بهم".

قال الزنجي: "لم أشعرْ قطُّ بالحاجة إلى السفر".

فقال السيد شورتلي: "حسنًا، إن قُدر لي السفرُ ثانية فستكون وجهتي إما الصين أو أفريقيا. فعندما يذهب المرءُ إلى أيّ من هذين البلديْن، يمكنه على الفور التمييزُ بينه وبين سكّانها. أمّا إن ذهَب إلى أماكن أخرى، فلا يمكنه التمييزُ إلا إنْ قالوا شيئًا ما، ورغمَ ذلك، لا يمكنه التمييزُ دائمًا لأن نصفَهم يجيدون الإنجليزية. وهنا نرتكبُ الخطأ، بسَماحنا لكلِّ أولئك الناس بتعلم الإنجليزية. كان حجمُ المتاعب ليقلَّ جدًّا لو أنَّ الناس لا يجيدون إلا لغتَهم. قالت زوجتي إنَّ إجادةَ لغتين تشبه امتلاكَ عينين في مؤخر الرأس. لم يكن خداعُها ممكنًا".

غمغمَ الصبي: "وأنا أشهدُ على ذلك"، ثمَّ أردف: "كانت صالحة. كانت صالحة حقًّا. لم أعرف امرأةَ بيضاء أصلح منها قط".

استدارَ السيد شورتلي إلى الاتجاه المعاكس، وعمل صامتًا لبعض الوقت، وبعد بضع دقائق، وقف مُنحنيًا ونقرَ كتفَ الصبي الملوَّن بمقبض جاروفه، وللحظةَ، لم يفعلْ شيئًا إلا التحديقَ به وعيناه الدامعتان تكتنزان قدرًا كبيرًا من المعنى، ثمَّ قال برفق: "لِيَ النَّقْمَةُ، يَقُولُ الرَّبُّ"*.

اكتشفتِ السيدة ماكنتاير أنَّ جميع سكان البلدة يعرفون بنسخة السيد شورتلي مما جرَى، وأنَّ الجميع ينتقد سلوكها. بدأتْ تعي أن التزامَها الأخلاقي يفرض عليها طردَ البولندي، وأنها تتملَّص من ذلك لأنه صعب.

* من رسالة بولس إلى أهل رومية (12:19).

لم يعُد بمقدورها تحملُ الذنب المُتعاظم أكثرَ من ذلك، وفي صبيحة سبتٍ باردة، ذهبت بعدَ الفطور لتطرده، واتَّجهت إلى سقيفة الآلات حيث سمعت صوت محرك الجرار.

كان الصقيع الثقيلُ منتشرًا فوق الحقول حتى جعلها كظهور الخراف الخشنة، والشمس فضيَّة تقريبًا، والغابة منتصبة مثلَ شوك ناشف في أفق السماء، وبدا الريفُ كأنه ينكفئ عنْ دائرة الضوضاء الصغيرة حول السقيفة. كان السيد غويزاك مُقرفصًا بجوار الجرار الصغير، يركّب إحدى قطعَه. أملَت السيدة ماكنتاير أن يحرث الحقولَ في الأيام الثلاثين الباقية من عمله لديها. كان الصبي الملوَّن واقفًا بجواره حاملًا بعضَ الأدوات في يده، والسيد شورتلي تحت السقيفة موشكٌ على ركوب الجرار الكبير، والرجوع به إلى الخارج، فنوَت الانتظارَ حتى يبتعدَ والزنجي من طريقها لتباشر مهمتَها الكريهة.

وقفتْ تراقب السيد غويزاك بينما تدقُّ الأرضَ الصلبة بقدمها، ذلك أن البرد قد بدأ يستلّق قدميها وساقيها كالشلل. كانت تلبسُ معطفًا أسود ثقيلًا ووشاحًا أحمر شدت قبعتَه السوداء فوقَه لتحمي عينيها من وهج الشمس. وتحت حافة قبعتها السوداء، حملَ وجهُها نظرةً حائرة، وتحرَّكت شفتاها في صمت مرة أو اثنتين. صاح السيد غويزاك من فوق صخبِ الجرار للزنجي أن يناوله مفكّ براغ، وعندما تناوله، أدارَ ظهرَه للأرض المجلّدة ومدَّ يدَه أسفل الآلة. لم يكن بإمكانها رؤيةُ وجهه، لم ترَ إلّا قدميه وساقيه وجذعَه بارزةً بصفاقة من تحت جانب الجرار. كان يلبس جزمةً مطّاطية مشقَّقة وملطَّخة بالوحل، ثمَّ رفع ركبته وأخفضها وأدار نفسه بعضَ الشيء. ومن بين كلِّ الأشياء التي تغيظها فيه كان أنه لم يغادرْ مِن تلقاء نفسه.

كان السيد شورتلي قد ركبَ الجرار الكبير وأخذ يرجع به مخرجًا إياه من تحت السقيفة، وبدا أنه دفَّأه كأنما أسرتْ حرارته وقوته فيه نبضات أطاعها من فوره، ثمَّ وجهه ناحية الجرار الصغير، لكنه ركنَه على منحدرٍ طفيف وقفز عنه ثمَّ استدارَ عائدًا إلى السقيفة. كانت نظرةُ السيدة ماكنتاير ثابتة على ساقي السيد غويزاك الممدَّتين على الأرض، ثمَّ سمعت صوتَ انزلاق مكابح الجرار الكبير، وعندما رفعت بصرَها رأتْه يتحرَّك قُدمًا حاسبًا مسارَه بدقة. تذكرت لاحقًا أنها رأتِ الزنجي يقفز بصمتٍ مبتعدًا عن الطريق كأنما دفعه نابضٌ مخفي في الأرض، وأنها رأتِ السيد شورتلي يدير رأسَه ببطء لا يصدق ويحدق بصمت من فوقِ كتفه، وأنها أخذتْ تنادي المُهجَّر لكنهما لم يناداياه. شعرتْ أنَّ عينيها وعيني السيد شورتلي وعيني الزنجي اجتمعتْ في نظرةٍ واحدة جمَّدتهم في المؤامرة إلى الأبد، وأنها سمعتِ الصوتَ القصير الذي أصدرَه البولندي عندما كسرت عجلة الجرار عمودَه الفقري. ثمَّ ركضَ الرجلان ليساعداه وأغمي عليها.

تذكَّرت عندما استردَّت وعيَها أنها ركضتْ إلى مكان ما، ربما إلى المنزل ثمَّ خرجتْ منه، لكنها لم تتذكرْ لمَ، أو إن كانت قد أغمي عليها ثانية عندما وصلت إليه. وعندما رجعتْ إلى مكان الجرارين كانت سيارة الإسعاف قد وصلت، وجسد السيد غويزاك مغطًّى بأجساد زوجته وولديْه المحنية، وبجسدٍ أسود تدلى فوقَه يغمغم كلامًا لم تفهمْه. ظنَّت في البداية أنه الطبيب، لكنها -شاعرةً ببعض الانزعاج- تعرفتِ القس، الذي جاءَ مع سيارة الإسعاف وراح يدسُّ شيئًا في فم الرَّجل المسحوق. وقف بعد دقيقة، ونظرت أولًا إلى ساقي بنطاله المدميّتين ثمَّ إلى وجهِه الذي لم يكُن مُعرضًا عنها، لكنه منطوٍ وخالٍ من التعابير مثل بقيَّة الريف. لم تفعل شيئًا إلا النظرَ إليه، ذلك أنَّ الصدمة التي عاشتها هزَّت كيانَها، ولم يستوعب عقلُها كلَّ ما يجري. شعرت أنها في بلدٍ أجنبية ما حيث الناس المحنيّون

فوقَ الجسد هم السكانُ الأصليون، ووقفت تشاهد كغريبةٍ بينما يُحمل جثمانُ المتوفَّى إلى سيارة الإسعاف.

في ذلك المساء، غادر السيد شورتلي من دون إخطارٍ ليبحث عن وظيفة جديدة، واستحوذتْ على الزنجي سولك رغبةٌ مفاجئة برؤية المزيد من العالم، فانطلق إلى الأجزاء الجنوبية من الولاية. أمّا العجوز آستور، فلم يستطع العملَ من دون رفْقة، وبالكاد لاحظتِ السيدة ماكنتاير أنها ظلتْ بدون مساعدة، ذلك أنها تعرضت لانْهيار عصبي، وأُسعفت إلى المستشفى. عندما عادت، رأتْ أن المكان أكبر من أنْ تستطيع إدارته الآن، فسلَّمت بقراتها لبائع مزادٍ محترف (باعها بخسارة)، وتقاعدتْ لتعيش على ما تملكه، بينما تحاول إنقاذَ صحتها المتدهورة. بدأ الخدرُ يصيب إحدى ساقيها ويديها وبدأ رأسُها بالتَّهزهز، وفي آخر المطاف، صارت مضطرَّة إلى البقاء في السرير طيلةَ الوقت، وليس لديها إلا امرأة ملونة تخدمها. ثمَّ أخذ بصرُها يسوء بوتيرةٍ ثابتة، وفقدتْ صوتها مرَّة واحدة. لم يتذكر كثيرٌ من الناس الذهابَ إلى الريف لزيارتها، إلا القسّ العجوز، إذ كان يذهب بانتظام مرة في الأسبوع حاملًا كيسًا من فُتات الخبز، وبعد أن يُطعمها للطاووس، يدخل ويقعد على جانبِ سريرها ويشرحُ لها تعاليم الكنيسة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يوم المجموعة القصصية .. #2

# يصعب العثور على رجل جيّد

بات يدرك كيف سيكون الزمان بدون الفصول، وكيف ستكون الحرارة بدون الضوء، وكيف سيكون الرجل بدون الخلاص. صار في نظره اللحاق بالقطار وعدمه سواءً، ولولا أن جذب انتباهه شيء ما فجأة، شيء مثل صيحة من قلب الظُلمة الآخذة بالاجتماع، لربما نسي أنّ ثمة محطة ينبغي الذهاب إليها.

لم يرَ نفسه غزير الخطايا من قبل، لكنه بات يرى أن خِسّته الحقيقية كانت محتجبة عنه لئلا تصيبه باليأس. أدرك أنّ خطاياه جميعها، منذ بدء الزمان، منذ حمل في قلبه خطيئة آدم، حتى الوقت الحاضر، قد غُفرت، ورأى أنه لا توجد خطيئة أفحش من أن يعدّها خطيئته، وبما أنّ الرب يحب بقدر ما يسامح، شعر في تلك اللحظة أنه جاهز لدخول الفردوس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING